مُعْجَمُ المُؤَرِّخِينَ المُسْلِمِينَ

حَتّى القَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الهِجْرِيّ

إعداد

يُسْرِي عَبْدُ الغَنِي عَبْدُ الله

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

معجم المؤرخين المسلمين

حتى القرن الثاني عشر الهجري

(مفتتح)

ما لم يعلم كله لا يترك كله،
فإن العلم بالبعضِ خير من الجهل بالكلِّ

أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ.

---

(١) تمت مراجعة التعريف بالمؤرخين الذين ذكرهم هذا المعجم وأعمالهم على فهارس دار الكتب المصرية وفهارس المكتبة الأزهرية وفهارس معهد المخطوطات العربية.

كلمة

حتى يكون التاريخ دائماً
شعاعاً مِن الماضي يضيء
الحاضر والمستقبل.

مدخل

من لا ماضي له، لا حاضر له، قول مأثور له وجاهته وقيمته. .

والتاريخ دائماً وأبداً شعاع من الماضي يضيء الحاضر والمستقبل.

وفي هذه الصفحات التي نقدمها للقراء طائفة من المؤرخين المسلمين وأهم أعمالهم، وقد حاولنا عرضها في صورة قوائم ببلوجرافية تشكل مغجماً مبسطاً غرضنا منه تعريف القارىء بأجدادنا العظام من المؤرخين المسلمين وأهم إنجازاتهم التي تتميز بالأصالة، أو التي كان لها شأن في تاريخ المعرفة البشرية بوجه عام.

وقد دفعني إلى جمع مادة هذا المعجم المبسط عدم معرفة بعض الباحثين ببعض هؤلاء المؤرخين أو حاجتهم الماسة في بعض الأحيان إلى فكرة وجيزة عنهم أو عن أعمالهم، وأنا لا أزعم أنني جمعت كل المؤرخين، بل تحدثت عن أشهرهم وأكثرهم تداولاً في مجال البحث بوجه عام.

ذكرت اسم المؤرخ، ثم ترجمت له ترجمة موجزة، وقمت بتحليل أشهر عمل له ورتبت المعجم حسب الترتيب الهجائي لتسهل الاستفادة منه.

وتضمن المعجم نظرة عامة على تطور الكتابة التاريخية منذ أقدم العصور حتى القرن الخامس عشر للميلاد مع التركيز على الكتابة التاريخية الإسلامية بوجه عام.

كما قدمت للقارىء دراسة عن علم التاريخ الإسلامي بين النشأة والتطور.

ودراسة ثالثة عن عصر التجمع الإسلامي في مواجهة الضربة القاصمة ودور العلماء ورجال التاريخ الإسلامي في ذلك.

ولا يسعنا في البداية والنهاية إلا أن نقول إن هذه محاولة متواضعة للتعريف برجال التاريخ الإسلامي المجيد على أن نستكملها إلى عصرنا الحديث بإذن الله تعالى.

والله تعالى ولي التوفيق القاهرة في ٢٥/١/١٩٩٠م

علم التاريخ الإسلامي

بين النشأة والتطور

يعتبر علم التاريخ الإسـلامي من العلوم النقلية، بسبب اتصـاله الأول بعلم الحديث. ومن المحقق أن العرب في جاهليتهم وأوائل الإسلام لم يقوموا بتدوين التاريخ، وإنما كانـوا يحفظونـه في ذاكرتهم؛ ولم يكن ذلـك لأنهم كانـوا يجهلون الكتابة، ولكن لتحبيذهم الحفظ على الكتابة؛ فهذه الأخيرة لم تكن وقتذاك لتعطي صاحبها تفوقاً في المجتمع أكثر مما تعطيه ملكة الحفظ. فكان تاريخ العرب الأول، وهو عبارة عـن وقائع وأيـام وغزوات محفـوظاً في الـذاكرة يـرددونه على ألسنتهم وأعانهم على حفظه بيئتهم الصحراوية الطليقة، التي ليس فيها تعقيد.

ولكن بعد أن ابتعد العرب عن بيئتهم وتفرقوا في الأرض للفتح والغـزو بين شعوب لا تتكلم لغتهم، ضعفت ملكة الحفظ عندهم وظهرت حاجتهم إلى التدوين. ففي أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري، كان العرب في حاجة ملحـة إلى ضبط ونقل أحاديث النبي والسير والأحوال؛ ليصلح الناس في أمور دينهم؛ وكان هذا بداية تدوين التاريخ الإسلامي. وإن كان التدوين في التاريخ لم ينتشر إلا حينما أقبل أهل البلاد المفتوحة على الإسلام، وأقبلوا على تعلم العربية؛ حيث كانت حضاراتهم السابقة تساعدهم على تذوق التاريخ. فكان معظم المؤرخين الأوائل في الإسلام هم المستعـربين من العجـم؛ لأن العـرب ـ في أول الأمـر ـ كـانت تلحقهم أنفـة من انتحـال العلم، لكونه من جملة الصنائع.

وقد كان أول ما دون في التارخ الإسلامي ـ بطبيعة الحال ـ يعتمد على الذاكرة الإنسانية، لبعد التدوين عن أخبار الجاهلية والعصر الإسلامي الأول.

إن مَنْ يقرأ ما دون من الذاكرة العربية يتجلى له أن أغلب التاريخ العربي الأول مستمد من السماع والمشاهدة. ولذا لجأ المؤرخون إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان من الحفاظ الموثوق بهم، وهو ما عرف «بالأسانيد» جمع «سند»، بمعنى رفع القول إلى قائله. فكان الحفاظ هم الوسطاء بين الخبر والمؤرخ؛ وهي طريقة للإجماع على صحة الخبر. وهذه الطريقة عينها في التاريخ كانت قد اتبعت عند جمع الأحاديث النبوية المطهرة، ليطمئن جامعو الأحاديث إلى اتصال الأحاديث بالرسول؛ مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أوائل تدوينه، بل إن التاريخ كان يجمع من نفس رواة الحديث في سلسلة من الإسناد الموثوق بهم. ومن ناحية أخرى، اعتبر التاريخ نفسه من وسائل الحديث في الجرح والتعديل، بالكشف عن أقوال رواة الحديث والتمييز بين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب والاختراع في الحديث.

ويبين خير الدين السخاوي المتوفى ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م في كتابه الهام «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» والذي طبع أكثر من طبعة أهمها طبعة دمشق (١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م) يبين السخاوي هذه الصلة بين التاريخ والحديث في قوله: إنه لم يستغْن عن الكذابين في الحديث بمثل التاريخ.

ولكن بعد انتشار التدوين وتمكن التاريخ من النفوس، لم تعد الرواية المسندة ـ التي اعتبرت في أول الأمر من الدين ـ تكفي في نقل الحقيقة التاريخية؛ لأنها لم تكن تحمل من الحقيقة إلا صداها، دون أن تحيط بظروفها لضعف طاقة الذاكرة الإنسانية.

وعلى هذا تحول المؤرخ الإسلامي من مجرد إخباري كما كان يطلق عليه في أول الأمر كل غرضة استيعاب الأخبار والمحافظة على كيفية اتصالها من حيث رواتها إلى البحث عن الخبر في ذاته، زيادة في تحري الحقيقة. وهكذا وجد تطور جديد في كتابة التاريخ؛ إذ تخلص التاريخ من طريقة الحديث إلى مجال أوسع مستقل ازدهر فيه منهاجه.

فابن خلدون مؤسس علم التاريخ الحضاري (العمراني) يهاجم دون هوادة

المؤرخين الأوائل مثل: ابن إسحاق المتوفى ١٥٢ هـ/٧٦٩ م، والطبري المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م، والمسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ، وأحمد بن عبد ربه المتوفى ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م، والثعالي المتوفى ٤٣٩ هـ / ١٠٣٧ م، والبكري المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م - وسبب هجوم ابن خلدون عليهم، اعتمادهم على مجرد نقل ما رأوه أو سمعوه، وعدم تأمل الحقيقة في ذاتها ومناقشتها واعطائها عللاً وأسباباً كما يقول ابن خلدون في الصحيفة (٢) من مقدمته السطر رقم (٢٢).

ولم يعد التاريخ في رأي شيخنا عبد الرحمن بن خلدون أخباراً وحوليات، ولكنه نقد للحقائق وبحث عن أسبابها؛ وقد ساعد ابن خلدون بهذا الرأي على إبراز شخصية المؤرخ وذاتيته. ولذا اعتبر ابن خلدون أول كاتب في العالم عالج موضوع: فلسفة التاريخ على حد قول الأستاذ/عنان في مؤلفه القيم (ابن خلدون وتراثه الفكري / ص ١٦٨).

لقد استتبع التحول من جمع الخبر إلى الخبر في ذاته، تغير أيضاً في أسلوب التاريخ؛ فبعد أن كان التاريخ يجمع معظمه في هيئة شعر، وذلك لأن الذاكرة كانت أقدر على حفظه، أو في جمل قصيرة جافة، الواحدة بجانب الأخرى بدون ربط، أصبح أسلوبه مرسلاً يكاد يخلو من الشعر فيه حلاوة وطلاوة وليقارن القارىء مثلاً سيرة ابن هشام (ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) مع مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م).

ومع ذلك ، فإن المؤرخين المتأخرين لم يكونوا ليستطيعوا كتابة التاريخ دون أن يذكروا المصادر التي استقوا منها معلوماتهم، وبدلاً من قولهم فلان وفلان، ذكروا الكتب التي أخذوا منها حقائقهم مثال لذلك نجد أن مؤرخاً كجلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ) الموافق (١٥٠٦ م) يذكر في مقدمة مصنفه الكتب التي اعتمدها في تأليف كتابه: «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، في جزأين، القاهرة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩ م.

وظهر بدل العنعنة (عن فلان، عن فلان، عن فلان) ما يعرف بأسانيد الكتب، وهذه العنعنة أصبحت التهميش في وقتنا الحاضر. وهذا الذي ذكرناه؛ يدل على فضل

المسلمين ـ ولا شك ـ في وضع أسس هذا العلم والإسهام في تطوره؛ كما وضعوا أسس غيره من العلوم.

هذا ـ وفي واقع الأمر ـ لم يشتغل بالتأليف في التاريخ كالمسلمين، ذلك لأنهم اعتبروه من أحسن العلوم وأشهرها كما يقول السخاوي؛ فألف فيه فحول المؤرخين آلاف الكتب التي أعطوها عناوين مختلفة، تدل على محتوياتها. وقد كان أغلب ما ألف في التاريخ، في أول الأمر، بقصد المنفعة والعبرة والحصول على ملكة التجارب كما يقول السخاوي. حيث كانوا يرون في كتاب الله مثلاً يقتدى به، فقد قص القرآن الكريم كثيراً من أخبار الأمم الماضية للتذكرة والعبرة. لذلك كانت المؤلفات الأولى يتوسع فيها لبدء الأرض (راجع البخاري ص ٧؛ السيوطي، كتاب الشماريخ في علم التاريخ، تحقيق سيبولد، ط ليدن، ١٨٩٤ م). وغير ذلك من أمور الأمم، وقصص الأنبياء، وسيرة الرسول الذي حمل رسالة الإسلام وأحوال القيامة ومقدماتها. وأغلب هذه المؤلفات العامة المناهج، من لدن البدء (ياقوت، معجم البلدان، القاهرة ١٣٢٣ هـ/١٩٠٦ م ١ ص١١) نجدها ـ على الأخص ـ بعناوين: «أخبار» و «سير» و «مغاز» و «تاريخ» و «فتوح»، ومعظمها مرتب على الحوليات والموضوعات. بعد ذلك ظهرت رغبة عند المؤرخين المسلمين في تقصير هذه المؤلفات العريضة العامة المناهج، والتصرف فيها بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، ولأن أغلبها مطول يحتوي على تكرار ضائع، وعلى سلسلة من الأسانيد المفصلة التي لا لزوم لها. كما ظهرت الرغبة في العدول عن الإطلاق في الأخبار والنظرة الشاملة إلى التقييد والاقتصار على جزء معين من التاريخ. وإن كانت هذه الكتب لم تلق قبولاً بوجهٍ عام في نفوس بعض علماء المسلمين القدامى، بحيث إنه شُبه من يقدم على ذلك: بمن أقدم على خلق سوي؛ فقطع أطرافه، وتركه أشل اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصم الأذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً. ونجد أغلب الكتب المختصرة ـ على الأخص ـ بعناوين: «مختصر» و «ذيل» و «شرح» و «حاشية»؛ لتدل على اعتمادها على مصدر سابق. [مروج الذهب للمسعودي) ط. مصر، ١ ص ٣].

ومن ناحية أخرى، كان التاريخ يكتب لإبقاء الذكر، بحيث انهم رددوا عن النبي قوله: «من ورخ مؤمناً، فكأنما أحياه» [السخاوي، ص٢٨] كما اعتبروا إنفاق الملوك والأغنياء على المصانع والحصون لا يعادل إبقاء الذكر في التاريخ؛ مما يزيد من فضل هذا العلم ـ ونجد أغلب الكتب التي تختص بهذا القصد بعناوين: «الأنساب» و «التراجم» و «الطبقات» و «الوفيات» و «المعاجم»؛ ومعظمها ينظر في المواليد والوفيات.

وربط المسلمون التاريخ بكل العلوم، مثل: الأدب والسياسة والاجتماع والفقه والجغرافيا والرحلات؛ فكان بحق علم العلوم. ويتبين من أسماء الكتب التالية صلة التاريخ الواسعة بالعلوم، التي قد لا تكون دائماً من صميم التاريخ، مثل «غرائب»، و «تحفة» و «عقود» و «در» و «نزهة» و «روضة» و «حديقة» و «حسن» و «حقائق» و «خريدة» و «خطط». وقد كانت هذه الصلة العامة سبباً في أن صار للتاريخ أعداء بالغوا في الزراية عليه، وادعوا أنه ليس بعلم محدد المنهج، وأن غاية فائدته: «إنما هي القصص والأخبار، ونهاية معرفته الأحاديث والأسمار» كما يقول السخاوي. ولكن انبرى من المؤرخين مَنْ دافعوا عنه؛ مثل المؤرخ السخاوي الذي ألف رسالة بعنوان: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ.

وتعرف طبقات عديدة من المؤرخين لن نذكر مؤلفاتهم في هذا المقام لكثرتها ويمكن للقارىء العودة إلى كتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة والى ذيله.

هذه الطبقات ظهرت طول فترة حضارة الإسلام، مع أنه في العالم القديم كان المؤرخون يعدون على الأصابع. منها طبقة أولى ظهرت على الخصوص أيام التدوين التاريخي في القرن الثاني الهجري، لم يصل إلينا معظم ما دونته؛ وإن اعتمدت الطبقات التالية على ما كتبوه، وهي في السيرة النبوية والمغازي والفتوح، وهي موضوعات استهوت مؤرخي الإسلام الأوائل، الذين نذكر أشهرهم (راجع في ذلك:

A study on the Beginings of History: Buri writing in yslam Bull, of the

sch, of ar, and African studies val XIX part 101 1957, P.9 sgg.)

- عروة بن الزبير (ت ٩٤/ ٧١٢)، ألف في السيرة،
- وهب بن منبه (ت. ١١٠/٧٢٨)، ألف عن ملوك حمير.
- ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤/٧٤٢)، تكلم في المغازي.
- ابن اسحاق (ت ١٥٠/ أو ١٥١/ ٧٦٧ - ٧٦٨)، الذي استحق لجدارته في كتابه السيرة النبوية على حسب تسمية ابن خلدون لقب الأستاذ، وابن أبي مخنق (ت ١٥٧/٧٧٤)، وهذا الأخير وصلت إلينا نتف من كتبه.

● **طبقة في القرن الثالث الهجري**: أغلبهم تناول نفس المواضيع السابقة وزادوا فيها، واعتمدوا على الأوائل كل الاعتماد ووصلت إلينا منهم كتب كثيرة مثل: الواقدي (ت ٢٠٦ أو ٢٠٧/٨٢١ أو ٨٢٣)، وابن الكلبي (٢٠٤/٨١٩ أو ٢٠٦/٨٢٢)، وابن هشام (٢١٣/٨٢٨ أو ٢١٨/٨٢٤)، وابن سعد (ت ٣٢٠/٨٤٥)، وابن عبد الحكم (ت ٢٥٧/٨٧١)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦/٨١٩)، والبلاذري (ت ٢٧٩/٨٩٢)، والدينوري (ت ٢٨٢/٨٩٥)، واليعقوبي (ت ٢٨٣ / ٨٩٨)، والنوبختي (الثالث / التاسع).

● **طبقة في القرن الرابع الهجري**: شديدة الخصب، نذكر منها: ابن جرير الطبري، (ت ٣١٠/٩٢٣)، وابن البطريق (ت ٣١١/٩٢٣)، وابن عبد ربه (ت ٣٢٧/٩٣٩)، والصولي (ت ٣٣٥ أو ٣٤٦/٩٥٦)، والكندي - أبو عمر - (ت ٣٥٠/٩٦١)، والأصفهاني (ت ٣٥٦ / ٩٦٧)، والخوارزمي - أبو عبد الله - (حوالى ٣٦٦/٩٧٦)، وابن القوطية (ت ٣٦٧ / ٩٧٧)، وابن النديم (ت ٣٨٣/٩٩٣)، وابن زولاق (ت ٣٨٧/٩٩٧).

● **طبقة في القرن الخامس الهجري**: لا تقل في إنتاجها عن السابقة، نذكر منهم:

ابن حزم (حوالى ٤١٨/١٠٢٧).

المسيحي (ت ٤٢٠/١٠٢٩).

ابن مسكويه (ت ٤٢١/١٠٣٠).

العتبي (ت ٤٢٨/١٠٣٦).

البغدادي (ت ٤٢٩/١٠٣٧).

الثعالبي (ت ٤٢٩/١٠٣٨).

الصابي (ت ٤٤٨/١٠٥٦).

الماوردي (ت ٤٥٠/١٠٥٨).

القضاعي (ت ٤٥٥/١٠٦٢).

يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨/١٠٦٦).

ابن صاعد أو صاعد (ت ٤٦٢/١٠٦٩)

البيهقي (أبو الفضل) المتوفى ٤٧٠/١٠٧٧.

نظام الملك (ت ٤٨٥/١٠٩٢).

الروذراوري المتوفى ٤٨٨/١٠٩٥.

● **طبقة في القرن السادس الهجري، منهم:**

أسامة بن منقذ (ت ١٥١٢/١١١٨).

ابن منجب الصيرفي (ت ٥٤٢/١١٤٧).

الشهرستاني (ت ٥٤٨/١١٥٣).

ابن القلانسي (ت ٥٥٥/١١٦٠).

أبو صالح (حوالى ٥٦٨/١١٧٢).

ابن عساكر علي (ت ٥٧٣/١١٧٦).

ابن بشكوال (ت ٥٧٨/١١٨٣).

ابن الجوزي فرج (ت ٥٩٧/١٢٠٠).

عماد الدين (ت ٥٩٨/١٢٠١).

● **طبقة في القرن السابع الهجري، منهم:**

ابن الأثير (ت ٦٢٠/١٢٣٣).

ابن الجوزي سبط (ت ٦٤٤/١٢٤٦).

القفطي (ت ٦٤٦/١٢٤٨).

أبو شامة (ت ٦٦٥/١٢٦٧).

ابن أبي أُصَيْبعة (ت ٦٦٧/ ١٢٧٠).
المكين ابن العميد (٦٧٢/ ١٢٧٣).
ابن ميسر (ت ٦٧٧/١٢٧٨).
ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢).
الجويني (ت ٦٨١/١٢٨٢).
القزويني (ت ٦٨٢/١٢٨٣).
ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥/١٢٨٦).
ابن العبري بارهيرابيوس (ت ٦٨٥/١٢٨٦).
ابن واصل (ت ٦٩٧/١٢٩٨).
ابن الطقطقي (ت ٧/١٣) من نفس القرن.
ابن عذارى (٧/١٣) من نفس القرن.

● **طبقة في القرن الثامن الهجري، منهم:**

رشيد الدين (ت ٦١٨/١٣١٨).
أبو الفدا (ت ٧٣٢/١٣٣١).
النويري (٧٣٢/١٣٣).
ابن الوردي القرشي (ت ٧٤٤/١٣٤٣).
الذهبي (ت ٧٤٨/١٣٤٧).
الكتبي (٧٦٤/١٣٦٣).
ابن أيبك (ت ٧٦٤/١٣٦٣).
الصفدي (ت ٧٦٤/١٣٦٣).
لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦/١٣٧٤).
ابن حبيب بدر (ت ٧٧٩/١٣٧٧).

● **طبقة في القرن التاسع الهجري، منهم:**

ابن الفرات (ت ٨٠٧/١٤٠٥).
عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦).

ابن دقماق (ت ١٤٠٧/٨٠٩).
القلقشندي (ت ١٤١٨/٨٢١).
المقريزي (ت ١٤٤٢/٨٤٥).
ابن حجر العسقلاني (ت ١٤٤٩/٨٥٣).
ابن عربشاه (ت ١٤٤٥/٨٥٤).
العيني (ت ١٤٥١/٨٥٥).
أبو المحاسن بن تغري بردي (ت ١٤٦٩/٨٧٤).
ابن إياس (ت ـ ١٥/٩) من نفس القرن.

● **طبقة في القرن العاشر الهجري منهم:**

السخاوي (ت ١٤٩٧/٩٠٢).
ميرخند (ت ١٤٩٨/٩٠٣).
السيوطي (ت ١٥٠٥/٩١١).

● **طبقة في القرن الحادي عشر الهجري منهم:**

الشيخ أبو الفضل (ت ١٦٠٢/١٠١١).
المقري (١٦٣٣/١٠٤١).
حاجي خليفة ـ ملا كاتب حلبي ـ (ت ١٦٥٧/١٠٦٧).
أبو الغازي بهادور (حوالى ١٦٦٣/١٠٧٤).
البكري الصديق (ت ١٠٧٦/١٠٨٧).

والله تعالى ولي التوفيق

من مراجع هذه الدراسة:

ـ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى / تأليف: د. عبد المنعم ماجد / ط ٥ / ١٩٨٦ م، مكتبة الانجلو / الصفحات من (٢١١) إلى (٢١٩).

ـ مقدمة ابن خلدون / ط دار الشعب، تحقيق علي عبد الواحد وافي.

ـ الفهرست لابن النديم.

- كشف الظنون لحاجي خليفة.
- مروج الذهب للمسعودي ط، مصر.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦.
- صحيح الإمام البخاري.
- كتاب الشماريخ في علم التاريخ بتحقيق سيبولد ط ليدن، ١٨٩٤ م.
- ابن خلدون وتراثه الفكري، ط٢، القاهرة ١٩٥٣ للأستاذ / عنان.
- سيرة ابن هشام/ ط دار الوفاء بالقاهرة.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، في جزأين، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ م.
- السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق ١٣٤٩/١٩٣٠ م.
- صحيح الإمام مسلم.
هرنشو، علم التاريخ، ترجمة وإضافة العبادي، القاهرة ١٩٣٧.

نظرة عامة على

تطور الكتابة التاريخية

منذ أقدم العصور حتى القرن الخامس عشر للميلاد
مع التركيز على الكتابة التاريخية الإسلامية

نعرف جميعاً أن علم التاريخ علم قديم يرجع إلى الوقت الذي ترك فيه الإنسان آثاره على الصخر، فالإنسان البدائي الذي عاش في الكهوف زين كهفه بتلك النقوش البدائية التي تصور حياته ليراها ويدرسها مَنْ يأتي بعده من بنيه أو عشيرته. وربما كانت تلك الصور التي حفظتها لنا كهوف الإنسان الأول هي أول ما دون الإنسان من تاريخه.

وهذا يؤدي بنا إلى القول بان التدوين التاريخي يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، إذ عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها في تلك الصور التي حفرها على جدران كهفه البدائي. وبالتالي نستطيع القول ان التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخي إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التي تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض. غير أن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى عمر الحياة الإنسانية الطويلة.

ومن المعروف أن أقدم ما وصل إلينا من التواريخ ما كتبه المصريون والبابليون والأشوريون والعبرانيون وهو يتضمن ذكر خوارق مثل ظهور مذنبات، ونتاج بقرة ثنائية الرأس وهي حكايات تعني العناية الإلهية، وأقاصيص عن أبطال الشعوب القديمة. وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد بدأ الإغريق يحررون العقل البشري من سلطان الخرافة وتلمسوا العلل لظواهر طبيعية نسبت إلى نزوات الآلهة وأهوائها.

فقد تنبأ الفيلسوف اليوناني المالطي الذي زار مصر وتعلم من كهنتها علم

الهندسة بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ق.م. وصحت نبوءته وكان ذلك إيذاناً بافتتاح عصر جديد في تاريخ تحرر العقل البشري. ثم جاء هكيتوس الملطي الذي ولد حوالى عام ٥٤٦ ق.م. وفصل بين الحقيقة والأسطورة في تأريخه لنشأة الإغريق. ثم كان هيرودوت الذي يلقب بأبي التاريخ الذي شب في مدينة هليكرناسوس الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى (حوالى ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) جاب هيرودوت أقطار الشرق باحثاً في ماضيه متقصياً أحواله، مدوناً لما وعى من تاريخه، فاستهواه النزاع بين الإغريق والفرس أو بين أوروبا وآسيا أو بين الغرب والشرق، وكانت الصورة التي أبرزها هيرودوت لهذا الصراع في كتابه العظيم قصة النقائض والأضداد منذ الأزل.

بعد هيرودوت يأتي المؤرخ تيوسيديد حوالى (٤٧١ - ٤٠١ ق.م) الذي أفرط في سرد أحداث السياسة والحرب في تاريخه لحرب البلوبونيز وهي الحرب التي دارت رحاها بين أثينا واسبرطة وقادته تلك النظرة إلى تمجيد الأفراد وإعلاء شأن البطولة وهي نظرة سادت الدراسات التاريخية لزمن طويل بل أثرت في كتابات الكثير من المفكرين والكتاب الذين تناولوا بالدراسة القادة والأبطال والزعماء والأنبياء والرسل.

وما إن جاء القرن الثالث قبل الميلاد حتى ظهرت حوليات المؤرخ مانيثون المصري الذي عاش زمن بطليموس الأول، وبطليموس الثاني، ووضع باليونانية تاريخاً لقدماء المصريين استمده من مصادر مصرية قديمة. وتاريخ بابل لبيروسوس الذي عاش زمن انطيوخوس الثاني حوالى (٢٥٠ ق م) وكتب باليونانية تاريخاً لبابل استمده من مصادر بابلية قديمة.

ولسنا في هذه السطور في معرض الإسهاب عن مؤرخي الرومان مثل (كاتو) خطيب الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد. ويوليوس قيصر، وسالت، وليڤي في القرن الأول قبل الميلاد. ثم تطورت الكتابات التاريخية منذ ذلك الحين في الغرب الأوروبي.

* * *

ويجب علينا هنا أن نتحدث عن نشأة علم التاريخ عند العرب. فنحن نعرف أن العرب كانوا قبل الإسلام يؤقتون بالنجوم والأهلة ويؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة المشرفة حتى خلافة الفاروق عمر بن

الخطاب رضي الله عنه وأرضاه فأمر الناس أن يؤرخوا من عام الهجرة.

أما عن تدوين التاريخ أو التدوين التاريخي ذاته فمن المعروف أن العرب في الجاهلية تذاكروا أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفهية في صورة أشعار وأخبار متفرقة ضمتها إلى يومنا هذا بطون أمهات المراجع والمصادر الأدبية والتاريخية. ويقال: إن أهل اليمن قد نقشوا على مبانيهم بالخط المسند أو المسماري بعض أخبار ملوكهم التي وصلت إلينا، وكذلك فعل ملوك الحيرة العراقية الذين دونوا بخطهم أخبار مملكتهم، وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها وعن هذا الطريق وصلت إلينا.

وعندما جاء الإسلام الحنيف وقامت الدولة العربية الإسلامية الكبرى وأصبحت هناك حاجة ماسة إلى معرفة سير أشرف خلق الله النبي محمد ﷺ وأحواله، توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها فكان ذلك بدء اشتغال أجدادنا العرب في الإسلام بالتاريخ. وأول من كتب السيرة النبوية الشريفة كما تؤكد المصادر التاريخية عروة بن الزبير بن العوام المتوفى حوالي عام ٩٣ هـ، وأبان بن عثمان بن عفان المتوفى قرابة عام ١٠٥ هـ، ووهب بن منبه المتوفى حوالي ١١٠ هـ، ومن أشهر من كتب في علم السيرة والمغازي محمد بن اسحاق المتوفى عام ١٥٢هـ، والذي اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨ هـ في سيرته المشهورة والتي شرحت واختصرت أكثر من مرة، ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى عام ٢٠٧ هـ، وكثير من رواية الواقدي احتواه كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ.

وفي تلك الأثناء امتدت أطراف دولتنا الإسلامية، ووقعت الفتنة العظمى والعصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية مثل اليهودية والمسيحية والمجوسية والبوذية من الديانات السماوية وغير السماوية فتوافرت الأسباب لجمع الأخبار وتدوينها نتيجة عوامل متعددة منها:

أ ـ رغبة العلماء في فهم الإشارات التي وردت في الكتاب والسنة عن الأمم الغابرة.

ب ـ ميل بعض الخلفاء كمعاوية بن أبي سفيان الأموي والمنصور العباسي إلى الوقوف على سياسة الملوك ومكائدهم.

جـ ـ حرص الموالي على الإشادة بمجد بلادهم القديم.

د ـ كان تدوين الأنساب وأيام العرب في الجاهلية والإسلام يسد حاجة الشعراء والأدباء في مقام الفخر والهجاء.

هـ ـ حاجة الخلافة للأنساب لأهميتها في تقدير العطاء للجند.

و ـ رغبة الولاة (ولاة الأمور) في معرفة ما فتح من البلدان صلحاً وما فتح عنوة وما فتح بعهد لأن لكل من هذه الحالات حكماً خاصاً من حيث الجزية والخراج ـ واعتقد أن ذلك من البواعث القوية على تدوين أخبار الفتوحات الإسلامية كلها.

لهذا كله وُجِدَ إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الذين مضوا وأحوال الجاهلية الأولى وحوادث الإسلام.

وأطلق على كل ذلك لفظ الأخبار وعلى المتخصص في روايته إخباري، كما عرف المتخصص في رواية الحديث النبوي الشريف بالمحدث.

ويلاحظ الباحث في التاريخ الإسلامي أن النقلة من الحديث إلى الأخبار من بعض الرجال مثل ابن اسحاق، والواقدي والمدائني المتوفي سنة ٢٢٥هـ، فكل منهم كان محدثاً وإخبارياً.

وكذلك يلاحظ بداية التخصص في الأخبار ومن قبيل ذلك محمد بن السائب الكلبي النساب الشهير الذي اشتهر بدرايته بعلم الأنساب. وأبو مخنف الذي اهتم بأخبار الردة وموقعة الجمل، وموقعة صفين وأخبار الخوارج.

وفي تلك المرحلة وجد نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها مثل أبي مخنف الذي أشرنا إليه وهو الذي كتب أخبار العراق، والمدائني الذي كتب أخبار خراسان والهند، والواقدي الذي كتب أخبار الحجاز.

ويهمنا في هذا المقام أن نذكر هنا أن التاريخ بدأ عند أجدادنا العرب على أنه فرع في علم الحديث فتأثر بطريقة وأسلوب المحدثين في جمع الرواية التاريخية

ونقدها فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلي. وهذا المصبدر قد يكون شخصاً عرف بالعدل، له علم مباشر واضح بالواقعة المروية كأن يكون شهد أو اشترك فيها، أو أخذها من كتاب قديم أو بعض روايات وأحاديث أهل البادية. وكانت تلك الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام، فكان النقد عندهم أو ما يسمى في علم الحديث علم الجرح والتعديل ذاتياً منصباً على الرواة لا موضوعياً منصباً على المرويات، واتبعوا أيضاً طريقة علماء الحديث في تدارس كتب التاريخ وتلقينها عن مؤلفيها، بالسند المتصل قراءة وسماعاً وإجازة، بل أكثر من ذلك جمعوا المرويات أو الروايات ورتبوها بحسب موضوعاتها في شكل رسائل أو كتب تشبه أبواب الحديث.

وألاحظ أن المؤرخين المسلمين سلكوا في عرض الحوادث طريقتين:

أولاهما: ـ وهي الأقدم ـ الترتيب على السنين بعد مقدمة في التاريخ القديم يبدو أنها عادة بذكر الطوفان أو بدء الخليقة، ويبدو ـ كما اعتقد ـ أن أول مَنْ اتبع هذه الطريقة مؤرخ يدعى الهيثم بن عدي (المتوفي سنة ٢٠٧ هـ) ثم اتبعها من بعده الطبري ومسكويه وابن الأثير وأبو الفدا وغيرهم من المؤرخين المسلمين.

ثانيهما: تشمل سوق الحوادث مساق القصة المنسوبة المرتبة على العهود وجرى على هذه الطريقة اليعقوبي والدينوري والمسعودي صاحب مروج الذهب.

● ● ●

لقد تطورت الكتابة التاريخية عند أجدادنا العرب تطوراً ملحوظاً مع أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكان لذلك مجموعة من الأسباب نذكر منها الآتي:

أ ـ زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية خاصة دواوين الإنشاء، والجند والخراج والبريد.

ب ـ أمكن لرجال التاريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات، فاحتوت كتابات تواريخ القرن الثالث على عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات. ومعلومات غزيرة عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات.

جـ ـ ما شهده ذلك العصر من نشاط حركة الترجمة من الفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية وغيرها من اللغات إلى العربية لغتنا الأم.

د ـ سهولة الانتقال في أنحاء الدولة الإسلامية دفعت الكثير من طلاب العلم والمؤرخين على الرحلة من أجل طلب الرواية ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها.

لذلك يمكننا القول بأن مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة هي:

١ ـ كتب السيرة والأخبار.

٢ ـ السجلات الرسمية.

٣ ـ المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية.

٤ ـ المشاهدة والمشافهة.

وعندما كثرت المادة التاريخية اتجه كثير من العلماء وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً، وبالتالي ارتفع شأن المؤرخين بين علماء الدول الإسلامية بوجه عام.

● ● ●

ومنذ القرن الثالث الهجري وعندما أصبح علم التاريخ علماً مستقلاً نجد اتجاهات معينة لكتب التاريخ فمنذ منتصف القرن الثالث أخذت الوحدة السياسية للدولة الإسلامية تتداعى وانقسمت الدولة العباسية إلى دويلات متعددة في مشارق الأرض ومغاربها.

أدى ذلك إلى ظهور التواريخ المحلية ومن ذلك على سبيل المثال:

● كتاب فتوح مصر والمغرب: الذي ألفه عبد الرحمن بن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ الموافق ٨٧١ م.

● كتاب الولاة، وكتاب القضاة للكندي المتوفى ٣٥٠ هـ / ٩٦١ هـ.

● كتاب تاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ.

● كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى ٥٧١.

● كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري (القرن السابع) وظلت سلسلة التواريخ العامة في اطّراد فوجدنا:

● تجارب الأمم لمسكويه.

● كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير.

● كتاب المختصر في أخبار البشر (٤ أجزاء / استامبول ١٨٧٠ م).

● ● ●

■ وليسمح لنا القارىء المفضال أن نقف هنا أمام المسعودي المؤرخ (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) المتوفى سنة ٣٤٦ هـ الموافق ٩٥٦ م ولهذا المؤرخ المسلم أهمية خاصة وبالذات في كتابيه: (مروج الذهب، ومعادن الجوهر) الذي طبع في (٤) أجزاء في القاهرة سنة ١٩٣٨ م وكتاب (التنبيه والإشراف).

قبل المسعودي كان إذا اتفق لأحد من مؤرخي العرب أن يذكر بعض التفاصيل عن الصين أو شبه القارة الهندية أو الترك أو بعض الأمم الأوروبية فإنه كان يستقي جل معلوماته وأخباره وتواريخه من مصادر ثانوية أو روايات زائفة أو حكايات شعبية يجانبها الواقع والمنطق، فيصبح تاريخه عن هذه الأمم نسجاً من الأساطير وضروب التناقض والأخطاء الزمنية. ولم تكن المؤلفات الخاصة بالجغرافية أحسن حالاً من ذلك، إذ لا يكاد المؤلف الجغرافي يتجاوز حدود بلادنا العربية وبلاد فارس وبعض الأقاليم المجاورة، حتى يدخل إلى ميدان الأساطير المضحكة أحياناً والبعيدة عن العقل والمنطق.

وعندما ظهر المسعودي، وكان ذا عقلٍ راجح، ومعارف واسعة عميقة، زار المسعودي بلاد مشرقنا الإسلامي وغير الإسلامي وتمكن بجهدٍ مشكور أن يمدنا بمعلومات صادقة وقيمة في آنٍ واحد عن الجغرافية، والتاريخ، وعن التاريخ الطبيعي بجميع مجالاته وفروعه.

ولكن على الرغم من أن المسعودي جمع بين التوفيق في تحري الصدق وموهبة

الملاحظة الواعية والحرص على تقييد الأقوال الزائفة التي أتى بها سابقوه، إلا أن الناس بعد شيخنا المسعودي استمروا في تداول الأخطاء الخاصة بتاريخ الهند والصين والترك.

● ● ●

وكان على الكتابة التاريخية أن تنتظر ظهور مؤرخ عظيم لن يهتم به معظم المؤرخين أو من تصدوا للبحث التاريخي إلا وهو: رشيد الدين فضل اللّٰه الهمذاني المتوفى سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م صاحب كتاب (جامع التواريخ).

نضع أمامنا هذا الكتاب الهام، نطالع المجلد الأول منه وعنوانه (تاريخ غازاني) في تاريخ أقوام المغول وقبائلهم وملوكهم الذين حكموا في إيران وغيرها.

نعرف أن (غازان خان) عمل على توفير مواد البحث للمؤرخ رشيد الدين الذي استطاع لعلمه باللغة المغولية أن يفيد من قراءة هذه المواد ونجح في أن يستخلص منها تاريخ المغول.

نطالع المجلد الثاني من جامع التواريخ فيمكن تقسيمه إلى قسمين:

أ ـ قسم يتناول تاريخ الفرس قبل الإسلام ثم التاريخ الإسلامي إلى سقوط بغداد العباسية.

ب ـ قسم يتناول تاريخ الشعوب والأمم التي اتصل بها المغول في تاريخهم.

والمجلد الثاني الذي كتبه رشيد الدين بناءً على رغبة (أولجاتيو) الذي طلب منه أن يكتب كتاباً عن تاريخ الأمم والشعوب التي اتصل بها المغول. وبناء على هذا التوجيه شرح رشيد الدين في كتابه ما أمر به الخان.

رشيد الدين يحدثنا عن تصنيفه لهذا الكتاب بأنه نقل عن العلماء وعن الكتب. أما العلماء فكانوا كثيرين في بلاد (أولجاتيو)، من الخطا والماجين والهند وكشمير والتبت والأويغور وغيرهم من أقوام الترك والعرب والإفرنج. ومن هؤلاء العلماء فلاسفة ومنجمون ومؤرخو أديان وغيرهم، اتصل بهم رشيد الدين وكلمهم وناقشهم ثم أخذ منهم.

وأما الكتب فقد كان كل عالم من العلماء في بلاط الخان مزوداً بكتب تشتمل على تواريخ أمته وحكاياتها ومعتقداتها. وأخذ رشيد الدين من هذه الكتب ما رآه يتفق مع خطته في الكتاب.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين يعتبر بحق ثورة في الكتابة التاريخية عند المسلمين خاصة ذلك القسم الخاص بالشعوب التي عرفها المغول، فقد بذل فيه رشيد الدين جهداً كبيراً، فهو يحدثنا أنه حين أراد كتابة تاريخ (الخطا) استقدم عالمين من الصين هما: (ليتاحي) و (يكسون) وكانا عالمين بالطب والفلك والتاريخ وقد أخبرا رشيد الدين أن خير كتاب في تاريخ الخطا كتبه ثلاثة لامات متخصصون هم:

١ ـ فوهين من مدينة نان جان جيو.

٢ ـ فنجو من مدينة كن جيو.

٣ ـ شيخون من مدينة لأووكسين.

وأكد العالمان الصينيان لرشيد الدين أن علماء المملكة راجعوا هذا الكتاب، وشهدوا بأصالته فأحضر رشيد الدين هذا الكتاب بعد لأي ونقل عنه مادته العلمية في تاريخ (الخطا) ويذكر شمس الدين الكاشاني في (تاريخ غازان خان) أن سفير قوبيلاي خان في بلاط غازان كان يجلس مع رشيد الدين جلوس الشيخ مع المريد فكان هذا السفير يحكي ورشيد الدين يدون. وهذا يعطي لنا فكرة عن المصادر التي نقل منها رشيد الدين.

ولعل من أهم أقسام كتاب جامع التواريخ ذلك القسم الخاص بتاريخ الفرنج (في معرفة ولاية الفرنج وبحارها وجزرها) الذي يبحث في (ولادة المسيح وقصته وذكر البابوات والقياصرة) اذ أنها أول محاولة جادة محايدة من مؤرخ مسلم يبحث في التاريخ الأوروبي الوسيط. ولكي نعرف منهج رشيد الدين في كتابه نقرأ ما قاله هو عن عمله.

رشيد الدين يشهد لنفسه بأنه لم يدخر أي احتياط أو جهد في تحري الحقيقة

والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف أو مشكوك فيه. وقد اقتبس، دون أي تغيير ما انطوت عليه أصدق الوثائق الخاصة بكل شعب، والروايات التي حازت أحسن التقدير، والمعلومات التي استقاها من أعلم الرجال من كل قطر. وفتش كتب المؤرخين ورجال الأنساب، وحقق هجاء اسم كل أمة وكل قبيلة. ثم رتب المواد التي جمعها على نظام منهجي لم يتبعه أحد قبله، وكما يقول رشيد الدين فإن من شأن كل ذلك أن ييسر تناول كتابه على جميع القراء.

● ● ●

ونقلب سجل تاريخ التأريخ لنجد مؤرخاً آخر لا يقل عن رشيد الدين أهمية بل يتفوق عليه، أقصد به العالم والمفكر الكبير / عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ / الموافق ١٤٠٦ م إذ أنه كتب تاريخه بعد أن تنقل في البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب، وخدم في دواوين الحكام والأمراء، وأرسله محمد الخامس سلطان غرناطة الأندلسية في سفارة إلى الملك بيترو ملك قشتالة المسيحية.

لهذا كله تمكن ابن خلدون من مشاهدة أحوال الكثير من الدول وخاصة عوامل التدهور التي بدأ عالمنا الإسلامي يعاني منها، وبالتالي أصبح لكتاب ابن خلدون وبالذات مقدمته الشهيرة أهمية كبيرة وقيمة تاريخية فريدة.

يضاف إلى ذلك أن رائد علم الاجتماع دون منازع شيخنا عبد الرحمن بن خلدون عاش في وقت بدأ فيه عالمنا الإسلامي يفهم مدلول ومفهوم علم التاريخ لذلك عرف ابن خلدون التاريخ تعريفاً هاماً ومفيداً عندما قال:

«في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى. . وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق».

وهكذا أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى العلل والكيفيات والأسباب والنتائج مما يدل على فقهه التام للتاريخ ووعيه به.

ويشير شيخنا ابن خلدون إلى المؤهلات والصفات التي يجب على الباحث في التاريخ أن يتصف بها إذ يقول: إنه:

أ ـ محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة.

ب ـ محتاج إلى حسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن الزلات والمغالط.

ويؤكد ابن خلدون على أن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق..

ومن المعروف أن شيخنا ابن خلدون رحمه الله قدم إلى مصر المحروسة سنة ١٣٨٢ م، ودرس في رحاب الأزهر الشريف وحضر على يديه الكثير من طلاب العلم والمعرفة، كما عمل مدرساً في المدرسة القمحية، وتولى منصب قاضي القضاة المالكية بمصر، واتصل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام.

وقد أدت اتصالات ابن خلدون بعلماء مصر والشام ومؤرخيهما إلى تكوين مدرسة كبيرة للدراسات التاريخية. وكان أول تلاميذ تلك المدرسة المقريزي.

● ● ●

رجلنا في هذه السطور القليلة أحمد بن علي المقريزي المتوفى ٨٤٥ هـ الموافق ١٤٤٢ م والذي كتب كتاباً ضخماً هاماً عن تاريخ قاهرتنا العاصمة المصرية، أو عاصمة المشرق الإسلامي وأكبر مدنه السياسية والعلمية هذا الكتاب سماه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو كتاب اعتنى فيه المقريزي بدراسة الخطط. وكتب المقريزي في أول هذا الكتاب مقدمة جغرافية تاريخية إضافية تناول فيها المدن المصرية والآثار المصرية، كما عني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة. بعد ذلك كتب المقريزي سلسلة من الكتب التاريخية تقص قصة تاريخ مصر منذ فجر الإسلام، فكتب كتاباً سماه (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط). وهو تاريخ لعصر الولاة في مصر، ثم كتب كتاباً عن تاريخ الفاطميين سماه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا). أما كتاب المقريزي عن تاريخ الأيوبيين والمماليك فقد سماه (كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك).

غير أن أهمية كتابات المقريزي التاريخية تصل ذروتها فيما قام به من دراسات في التاريخ الاقتصادي مما جعله أشهر مؤرخ في هذا المجال. فكتب المقريزي كتاب «الأوزان والأكيال الشرعية»، وكتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» وهو الكتاب الـذي تناول فيه المقريزي تاريخ المجاعات والأوبئة التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥ م، وأعطى القارىء سبباً هاماً من أسباب هذه المجاعات والطواعين والأوبئة والغلاء ألا وهو سوء تدبير الزعماء والحكـام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد.

وأعتقد أن هذا منهج جديد وتفسير اقتصادي للتاريخ تعلمه المقريزي من أستاذه ابن خلدون الذي اتصل به وكانت بينهما صداقة حميمة مفيدة.

● ● ●

وشهد ذلك العصر أيضاً المؤرخ الكبير أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني والمتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م صاحب كتاب «أبناء الغمـر في أبناء العمر» الذي يعتبر من أهم المراجع الأصلية لعصره لما احتواه من معلومات هـامة لحوادث الدولة وسياستها العامة. وكذلك عاش في ذلك العصر محمـود بن أحمد العيني المتوفى (٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م) صاحب كتاب «عقد الجمان في تاريـخ أهل الزمان» وهو من أعظم الكتب التي كتبها العيني.

وفي القرن الخامس عشر أيضاً عاش المؤرخ الكبير أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى المتوفى (٨٧٤ هـ) الموافق (١٤٧٠ م)، صاحب كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وهو من أحسن مصادر التاريخ المصري في العصور الوسطى بوجه عام.

ولأبي المحاسن كتاب آخر عنوانه «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» وهو ذيل لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لأستاذه المقريزي، ورتبه أبو المحاسن على السنين والشهور والأيام كترتيب كتاب السلوك للمقريزي، وبـدأ به من حيث انتهى المقريزي غير أن أبا المحاسن خالف شيخه المقريزي فأطال في كلٍ من الحوادث وتراجم الوفيات. وتتلمذ ابن الصيرفي المتوفى (٩٠٠ هـ) على ابن حجر العسقلاني

وكتب ابن الصيرفي كتابه «نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان» وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨١ م، واختتمه عند سنة ١٤٤٦ م.

ولابن الصيرفي كتاب آخر بعنوان «انباء العصر بأبناء العصر» والذي لم يصل إلينا منه حتى الآن سوى الجزء التاسع فقط. الذي نشره الدكتور / حسن حبشي بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م.

أما أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى (٩٠١ هـ) الموافق (١٤٩٧ م) فهو صاحب كتاب (التبر المسبوك في ذيل السلوك» المطبوع في القاهرة ١٨٩٦ م لأول مرة، وهو تكملة لكتاب السلوك الذي كتبه المقريزي.

وللسخاوي أيضاً كتابه الهام «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، وهو في قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين. ويحتوي الكتاب على صفحات كثيرة وهامة في تأريخ التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول.

والي ذلك العصر ينتمي أيضاً المؤرخ الكبير محمد بن أحمد بن إياس المتوفى (٩٣٠ هـ) الموافق (١٥٢٤ م). وقد صنف ابن إياس كتاباً قيِّماً هاماً في التاريخ عنوانه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهو كتاب يبحث في تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العصر العثماني.

وفي أيامنا الحاضرة اتجاه روائي وقصصي يحاول الاستفادة من التراث التاريخي بعمل اسقاطات على عصرنا وبالذات تراث العصر المملوكي إلا أن أصحاب هذا الاتجاه يقعون في منزلقٍ خطير ألا وهو نقل صفحات كاملة من كتب التراث التاريخي دون الإشارة إلى مصدر هذه الصفحات، ولعل أكثر الكتب حظاً في مسألة الأخذ من كتب التراث التاريخي هو كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس المصري فبعض الكتاب ينقل من الرجل في فصل واحد من روايته أكثر من تسع صفحات ولا يكلف نفسه مؤونة أن يكتب هامشاً واحداً يقول لنا فيه أن هذا الكلام الذي نقلته هو كلام ابن إياس أو المقريزي أو ابن ثغري بردى أو حتى السيوطي، واعلم أن التراث ملك لنا جميعاً ومن حقنا توظيفه واستغلاله ولكن إفادة للقارىء وأمانة مع النفس والعلم يجب أن نذكر مصدر هذه الصفحات أو هذا الكلام.

أعـود لابن إياس المصـري بعد هـذا الاستطراد الـذي اعتـذر عنـه للقارىء المفضال لأقول: لابن إياس أيضاً كتاب «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها، وكتاب بدائع الزهور يعتبر المرجع الرئيسي لحوادث فتح العثمانيين لمصر المملوكية، وفيه لم يقتنع ابن إياس بمجرد سرد الحوادث والوقائع والوفيات، بل كان بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف مع شيء من القسوة في الحكم والجرأة في التقدير.

وهذه كتابات بعض مشاهير مؤرخي مصر في القرن الخامس عشر الميلادي. ومن الملاحظ أن كلاً منهم كان يفتتح كتابه بعد البسملة والحمد لله والصلوات الطيبات بذكر بدء الخليقة ويعقبه بقصص الأنبياء والمرسلين، ثم يأخذ في شرح فضائل مصر وما امتازت به من الصفات على سائر البلدان، وينتقل بعد ذلك إلى تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي فيكون مختصراً أولاً، ثم أقل اختصاراً، وهكذا إلى أن يصير الكتاب سجلاً يومياً لما يقع بمصر وولاياتها وحاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى في عصر المؤلف. وقد يتخلل هذا السجل شيء عن أسعار المحاصيل وأحـوالها، أو فيض النيل أو تفصيلات جدل أدبي معين، أو أدوار محنة فقهية، أو تعديل في نظم الحكم والجيش، أو نص رسالة أرسلهـا ملك من ملوك البلاد المجـاورة وجواب السلطان عليها، وذلك فضلاً عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر نظراً لعوامل كثيرة.

وهكذا وصلت الكتابة التاريخية في مصر أواخر عصر سلاطين المماليك إلى درجة كبيرة من النضج والتقدم. ومهما قيل في قصور طريقة مؤرخي تلك الفترة من الناحية العلمية، فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية هامة ونفيسة وما زلنا حتى كتابة السطور في حاجة ماسة إلى تحقيقها ونشرهـا وإخراجهـا من بطون المخطوطات إلى عالم الكتب المطبوعة بإذن الله تعالى.

معجم المؤرخين المسلمين (●)

(حتى القرن الثاني عشر الهجري)

[مرتباً حسب الترتيب الهجائي]

(●) ملحوظة هامة: لم نذكر جهد الذين أرخوا للسيرة النبوية لأن ذلك موضوع قائم بذاته وهم على درجة كبيرة من الشهرة وذيوع الاسم على أمل أن نفرد لهم معجماً خاصاً بهم، بإذن الله تعالى.

(المؤلف)

١

ابن الأثير:
والكامل في التاريخ

ابن الأثير :

هو عز الدين أبو الحسن علي ـ صاحب كتاب «الكامل في التاريخ» وطبعه تورنبرج «Tornberg» في ليدن، في (١٢٠) مجلداً، منها مجلدان للفهارس.

عاش ابن الأثير في الفترة ٥٥٥ هـ ـ ٦٣٠ هـ /١١٦٠ ـ ١٢٣٤ م واستقرت أسرته في مدينة الموصل العراقية. وهو أوسط الأخوة الثلاثة الذين نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية.

كان ابن الأثير حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم، ولذا كان أكثر ما اشتهر به دراسة التاريخ.

ويعتبر كتاب «الكامل في التاريخ» أهم مؤلفات ابن الأثير في هذا المجال ـ إذ تناول فيه دراسة التاريخ العام للعالم الإسلامي، ابتداءً بالخليفة علي عادة جل أهل التاريخ الإسلامي وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨ هـ، ويعتبر من أهم الكتب في التاريخ الإسلامي. والتزم المؤلف في نهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي، ومقارنة ما يقع من الأحداث في كل منها، عاماً بعد عام. واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل أقليم.

وتجلت مواهب ابن الأثير في طريقة عرضه للحقائق، إذ حذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها، وأمعن في فحص المصادر، واختار من النصوص ما يناسب الحقائق، وألف في كل ذلك خلاصة لكل ما وقع من الأحداث في السنة.

ولكتاب ابن الأثير ابتداءً من الجزء العاشر، أهمية خاصة، نظراً لأنه يؤرخ

لأحداث قريبة العهد من زمنه، سمع بها وشارك فيها، وعالج في هذه الفترة الممتدة من سنة ٤٥٠ هـ ما وقع من صدام بين الغرب المسيحي والعالم العربي، فيما يعرف باسم الحروب الصليبية.

وما يلفت النظر في كتابة ابن الأثير، ما كان من اهتمامه البالغ بأخبار الدولة الأتابكية بالموصل حتى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١١ م، وامتداد سلطان الترتكيين إلى حلب ودمشق، ثم انحسار ملكهم حتى أصبح قاصراً على الموصل العراقية.

أما رواياته عن البطل المسلم الناصر صلاح الدين الأيوبي، فهي غريبة، لأنها تنطوي على كراهية له، برغم الإشادة ببطولته، فصوره ابن الأثير على أنه بطل سخر كل مواهبه العسكرية لإشباع أطماع أسرته وإقامة امبراطورية، والواضح أن هذا الحكم تأثر بما كان يربط ابن الأثير من الولاء للترتكيين. ويتابع ابن الأثير أخبار المسلمين في المشرق والمغرب بعد رحيل صلاح الدين، وما آل إليه أمرهم من تفكك، وما ترتب على ذلك من تعرض لأخطار الصليبيين والتتار.

ويعتبر كتاب ابن الأثير من المصادر الأصلية للحروب الصليبية، وقد قام المستشرق دي سلان (De Shane) بنشر كل ما أورده ابن الأثير مع ترجمة فرنسية في مجموعة الحروب الصليبية، الجزآن الأول والثاني من مجموعة المؤرخين الشرقيين.

ومنه طبعة في بولاق، في ١٢ جزءاً، سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٢ م كما نشرته دار الكتب العلمية في بيروت محققاً في عشرة مجلدات سنة ١٩٨٦ م.

وللكتاب طبعات أخرى.

٢

أسامة بن منقذ:
وللتاريخ اعتبار!

المؤرخ، الشاعر، الأديب، السياسي وصاحب كتاب «الاعتبار» الـذي حققه لأول مرة فيليب حتي في برنستون وخرج عن مطبعة جامعة برنستون، سنة ١٩٣٠ م.

اسمه مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري، ينتمي إلى أسرة عربية أصيلة، من بني منقذ من كنانة، أقامت لنفسها إمارة صغيرة شمالي الشام، حول حصن شيزر، غربي حماة السورية، على نهر العاصي.

كان مولد أسامة سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، وتنـاولت دراسته، النحـو والخط والشعر والقرآن، فنشأ راوية كاتباً، وأديباً وشاعراً.

والواضح أن ابن منقذ شاهد قدوم الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، وشاهد ما وقع من حروب بين المسلمين وأدعياء حماية الصليب، إلى ما بعد استيلاء المسلمين على بيت المقدس المشرف سنة ١١٨٧ م، إذ أنه توفي في السنة التالية ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م بعد أن بلغ من العمر ٩٦ سنة، وترك مذكراته المعروفة بكتاب الاعتبار، التي تمثل فيها سيداً من سادات العرب، لم يتأثر بالغزو التركي.

والكتاب يتضمن خلاصة تجارب أسامة، وكل ما صادفه في حياته من أحداث، دون أن يلتزم قاعدة معينة في الأسلوب أو الترتيب، ويعتبر قـانون السيـد أو النبيل الكامل، وعلى الرغم من أنه ألفه أثناء شيخوخته، فإنه ينبض بروح الفتوة والشباب.

ومنذ أن خرج من شيزر، بعد الاضطرابات التي وقعت بين أفراد أسرته، أخذ يطوف بأرجاء الشرق الأدنى، فلم يشهد فحسب القتال في شيزر وحماة، بل مارسه في فلسطين ومصر والشام والجزيرة،واتصل بأمراء وملوك هذه الجهات، أمثال عماد

الـدين زنكي، ونور الـدين، وصلاح الـدين، والخلفاء الفـاطميين. وهـذه الحيـاة المضطربة التي جرت في وقت سادت فيه المنازعات السياسية، وما هيأته من إثارة الفتن والمؤامرات، وما كان يربط أسامة من علاقات الصداقة بالفرنـج، فضلاً عن أخلاقه وصفاته الشخصية من الأخذ بمبادىء الفروسية والشهامة، والصيد، والمغامرة، والنزعة الأدبية واتقان الفن القصصي، كل ذلك جعل من كتابه صورة متجددة حية للمجتمع الإسلامي الـذي عاش فيـه أسامـة، ووصفاً لحيـاة الصليبيين في الشرق الأدنى، ودراسة ما كان من الاختلاف بين المستوطنين منهم الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين، وبين من كان منهم قريب العهد بالبلاد الافرنجية. يضاف إلى ذلك، ما أورده من عادات وتقاليد ونظم قضائية واجتماعية وعسكـرية اختص بهـا الإفرنـج، ومقارنة كل ذلك بما هو معروف عند المسلمين، ولذا كان لهذا الكتاب أهمية بالغة القيمة في تطور العلاقات بين المسلمين والافرنج، لفترة تقرب من مائة عام (القرن الثاني عشر الميلادي).

ويجدر بالذكر أن هذا الكتاب ترجم إلى اللغة الفرنسية وقـام بهذه التـرجمة (ديرينبو يورج) بعنوان:

Antobiographie d'ousama.

وصدرت الترجمة في باريس (١٨٩٥ م).

كما ترجم نفس الكتاب إلى اللغة الألمانية وقام بها (انسبروك) سنة ١٩٠٥ م.

وترجم إلى اللغة الروسية بواسطة (ساليبه) وقدم له البحاثة كراتسكوفسكي في بنزو غراد ١٩٢٢ م.

وترجمه فيليب حتي، في نيويورك بعنوان:

An Arab - syrian gentleman and warriar in the period of the crusades.

كما ترجم إلى الإنجليزية سنة ١٩٣٠ م بواسطة: G. R. potter.
تحت عنوان:

Autobiography of Ousama Ibn mounkidh.

٣

إسماعيل الخشاب: مؤرخا

هو واحد من أصدقاء الجبرتي المقربين إليه(١)، وقد كان أبوه الخشاب يعمل نجاراً، ثم احترف تجارة الأخشاب، غير ان ابنه لم يشأ أن يمتهن مهنة أبيه، وتثقف بثقافة العصر الدينية اللغويـة، وتلقى العلم على يد مشـايخ عصـره، واتصل منهم بالشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر في الفترة ما بين ١١٩٣ ـ ١٢٠٨ هـ وبالعلامة السيد محمد المرتضى الزبيدي صاحب معجم تاج العروس والشيخ محمد الأميـر مفتي المالكية. . إلخ . . . تتلمذ على يد هؤلاء وغيرهم وقال فيهم مدائح نجدها في ديوانه: ص ٣٥٠، ٣٦٤، ٣٦٦.

بعد ذلك أقبل على قراءة ودرس الكتب الأدبية وكتب التاريخ، يقول الجبرتي: «وأولع بذلك . . . حتى صار نادرة عصره في المحاضرات، والمحاورات، واستحضار المناسبات، والماجريات، وقال الشعر الرائق والنثر الغافق . . .»(٢).

واتصل الخشاب برجال الحملة الفرنسية وعلمائها، والغريب أن الجبرتي يروي لنا شعراً قاله الخشاب في رجلين من رجالات الحملة واحد منهم يدعى «ريج» وهو أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع الفرنسي الذي أنشأه بونابرت في مصر(٣).

---

(١) نراجع في ذلك كتاب: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لمؤلفه محمد مصطفى زيادة ـ والصادر في القاهرة، ١٩٤٩ م.

(٢) أنظر: د. توفيق الطويل: الشعراني ـ مجموعة أعلام الإسلام ـ القاهرة، ١٩٤٥ م.

(٣) ترجمة محمد بن أبي السرور البكري نجدهـا في: بيت الصديق ـ محمـد توفيق البكـري، القاهـرة ١٣٢٣ هـ، ص ٧٣ ـ ٧٨.

وعمدة التحقيق في بشائر آل الصديق ـ ابراهيم العبيدي المصري، القاهرة ١٢٨٧ هـ.

أما الثاني فهو من رؤساء كتاب الحملة ومن العارفين ببعض العلوم العربية، يقول الجبرتي:

«ولما وردت الفرنساوية لمصر اتفق أن علق (أي الخشاب) شاباً من رؤساء كتابهم، كان جميل الصورة لطيف الطبع، عالماً ببعض العلوم العربية، مائلاً إلى اكتساب النكات الأدبية، فصيح اللسان بالعربية، يحفظ كثيراً من الشعر، فبتلك المجانسة مال كل منهما للآخر، ووقع بينهما تواد وتصاف حتى لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر، فكان (الخشاب) تارة يذهب لداره، وتارة يزوره هو. . .»(٤).

وقد وردت القصيدة التي قالها الخشاب في هذا الفرنسي من ديوانه الذي جمعه صديقه الشيخ حسن العطار، ص ٣٥٠، ولكن تحت هذا العنوان: «وقال يصف غلاماً في حلة سوداء مرصعة».

ويبدو أن هذه الصداقة بين الخشاب وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة مهدت له السبيل للاتصال الرسمي بقادة الفرنسيين، لذلك عندما أعيد تأسيس الديوان في عهد «مينو» اختير الشيخ إسماعيل الخشاب ليكون أميناً لمحفوظات الديوان، أو على حد تعبير الجبرتي «كاتب سلسلة التاريخ».

ونسأل وما وظيفة كاتب سلسلة التاريخ هذا؟!

يقول الجبرتي «المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر ونهي، أو خطاب أو جواب، أو خطأ أو صواب» وذلك لأن القوم (الحملة الفرنسية) «كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم، ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في الجيش حتى لمن كان منهم في غير مصر من قرى الأرياف، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم»(٢).

---

(١) للمزيد من المعلومات في هذا الموضوع نراجع:

● د جمال الشبال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث / جـ ٢ (مصر والشام) القاهرة ١٩٥٨ م.

(٢) علي بك الكبير للأستاذ محمد رفعت رمضان، القاهرة ١٩٥٠ م، وفيه مراجع قيمة تفيد في معرفة ملامح علي بك الكبير وشخصيته.

ولقد أخطأ كل من جورجي زيدان والأب لويس شيخو فهم هذا النص، فأثبتا في كتابيهما عن تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر أن هذه السجلات أو «رسائل المعلومات» بالتعبير الحديث تعتبر أول صحيفة عربية صدرت في الشرق!!!!

يقول جورجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية».

«أن هذه النشرة التي كان يدونها الخشاب وتطبع ثم توزع على الجنود تشبه أن تكون أول جريدة عربية رسمية، ولكنها عسكرية...»[١]!!

ثم قال زيدان في نفس المرجع. ان الفرنسيين انشأوا في مصر «ديوانا للقضايا كان يصدر صحيفة اسمها «التنبية» ينشرون فيها ما يجري فيه، ويفرقونها على العمال، وكان يحررها السيد إسماعيل الخشاب، فهي كالصحيفة العسكرية القضائية»[٢].

وقال الأب لويس شيخو استنتاجاً من نص الجبرتي: «فهذه كما ترى جريدة يومية، وهي أول جريدة ظهرت في العربية».

أما الذي تذكره المراجع الفرنسية الموثوق بها أن الجنرال مينو أو (عبد الله مينو) أصدر في السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٠٠ م مرسوماً بإنشاء جريدة عربية اسمها التنبية «L'Avertissment» واختار السيد إسماعيل الخشاب ليكون رئيساً لتحريرها وذلك تحت إشراف أعضاء الديوان من العلماء، ويكون من أغراضها:

١ - البحث في أعمال الديوان.

٢ - البحث في أعمال الحكومة الفرنسية.

٣ - نشر الأخبار الداخلية والخارجية.

---

(١) ترجم الجبرتي للزبيدي في عجائب الآثار جـ٢، ص ١٩٦ - ٢١٠ حينما كان يتحدث الجبرتي عن حوادث سنة ١٢٠٥ هـ.

وترجم له الشبلبخي في كتابه: نور الأبصار في مناقب آل البيت المختار، بولاق ١٢٩٠ هـ، وتحدث عنه علي باشمبارك في كتابه الخطط التوفيقية جـ٣، ص ٩٣ - ٩٤، وأظهر دوره د. جمال الدين الشيال في كتابه: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث، جـ٢، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٥ - ٧٩.

(٢) للشيخ الشبراوي ترجمة وافية في «عجائب الآثار» للجبرتي كما ترجم الجبرتي لكل من: الشيخ إسماعيل الخشاب والشيخ حسن الجبرتي والشيخ حسن العطار ترجم لهم ترجمة وافية في «عجائب الآثار».

٤ ـ نشر المقالات المختلفة في العلوم والفنون والأخلاق.

ويقول أستاذنا الدكتور إبراهيم عبده: «إن الآمال التي علقت على ظهور التنية لم تتحقق، إذ أن الظروف السياسية واضطراب الأمن كل ذلك حال دون ظهور الجريدة، وبقي مرسوم إنشائها معطلاً حتى جلا الفرنسيون عن مصر».

وظل الخشاب يلي وظيفته هذه في الديوان «ضحوة يومين في الجمعة» طوال عهد مينو حتى خرجت الحملة من مصر، وذلك مقابل أجر شهري قدره سبعة آلاف نصف فضة.

ولنا على عبارة الجبرتي عدة ملاحظات:

أولاً: أن الخشاب لم يكن إلا كاتب الديوان، أو مسجل مضبطة.

ثانياً: رأى الجبرتي عناية الفرنسيين بكل ما يقال في الديوان وذلك أمر جديد بالنسبة له وقد عللها هو بقوله: «عناية القوم بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم» لأنهم كانوا «يجمعون المتفرق في ملخص» ويوزعونه «في جميع الجيش» ونحن نقول أنه لا يعقل بالمرة أن يوزع هذا الملخص في جميع الجيش الفرنسي طبعاً ـ باللغة العربية!! كيف يكون ذلك؟!

ثالثاً: الملخص الذي كان يتحدث عنه الجبرتي وبالفعل كان يطبع وتوزع نسخ منه في جميع الجيش حتى لمن كان في الأرياف هو الصحيفة الفرنسية الشهيرة في مصر أيام الحملة:

«Le Courier de L'Egypte»

والتي كانت تصدر كل خمسة أيام.

والذي يهمنا في هذا المقام أن الشيخ إسماعيل الخشاب حاول أن يكتب تاريخاً لمصر في هذه الحقبة من الزمن معتمداً على ما تحت يده من محاضر الديوان وسجلاته، فاختار لنفسه بعض ما ورد فيها، ولكن مصير هذا المشروع، وهذه المختارات مجهولة تماماً بالنسبة لنا، فنحن لا نكاد نسمع عنها إلا عندما يقول الجبرتي: «فجمع (أي الخشاب) من ذلك عدة كراريس لا أدري ما فعل بها».

ونحن أيضاً لا نعرف ماذا فعل بها ولا أين هي ؟! .

إلا أنه وبالعقل والمنطق نذهب إلى أن هذا تاريخ ـ أي تاريخ الخشاب ـ لم يولد وما هو إلا مشروع أعدّ له اسماعيل الخشاب بضع كراسات ضمنها الكثير من المادة والوثائق التي نقلها من مضابط الديوان وسجلاته، ولو أنه أتمه، أو لو أن هذه الكراسات الهامة بقيت ووصلت لأيدينا لأمدتنا بمادة غزيرة وثيقة عن تاريخ مصر في عهد الحملة الفرنسية، وعن الديوان الذي أنشأه الفرنسيون، ومدى اختصاصه وأعماله وأثره في حكم مصر والمصريين.

وللشيخ الخشاب كتاب تاريخي آخر أرخ فيه لمصر في القرن الثامن عشر، وتوجد منه نسخة لا تزال مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس تحمل هذا العنوان «تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠ (١٧٠٨ م) إلى دخول الفرنسيين وتوجد في المكتبة التيمورية بالقاهرة صورة شمسية من هذا الكتاب.

٤

ابن أبي اصيبعة والتأريخ للأطباء والطب

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي مؤلف كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء).

كان مولده في دمشق في عام ٦٠٠ هـ في بيت علم وأدب وقد اشتهر أبوه في عاصمة الأمويين بعلاجه للعيون أو ما كانوا يسمونه بالكاحل في ذلك الزمن، لذلك فإن أبي أصيبعة فتح عيونه على علم الطب وعلم تطبيب العيون، وازدحام منزل والده بالمصابين بعيونهم، إذ لا يخفي أن مرض الرمد كان ينتشر انتشاراً فظيعاً في سائر أنحاء البلاد العربية بسبب عدم الاعتناء بالنظافة التامة ومن جهة ثانية لانتشار الذباب الذي كان ينقل مكروب أمراض العيون من المريض إلى السليم لذلك فقد كان لعلم طب العيون شأن عظيم بين السكان.

وبعد أن اتقن العلوم اللسانية على علماء زمانه انصرف إلى تلقي علوم الطب عن والده بالنظر إلى ما شاهده من رواج تلك الصنعة لكنه رأى أن ما يحسنه والده لا يشفي غليلاً لذلك فقد انصرف إلى تلقي العلوم التي تبحث في شتى أمراض العيون على كل من يحسنها وكانت في عهده القاهرة ملتقى السبل وملتقى العلماء والدولة الأيوبية في عز مجدها وسؤددها حيث يعمل على محاربة الإفرنج الصليبيين الذين غزوا البلاد وحاولوا استعمارها فسافر للقاهرة ولقي هناك حسن الوفادة والتحق في المارستان الناصري الذي أنشأه الملك الناصر صلاح الدين في القاهرة وأخذ يعمل ليلاً نهاراً على تحصيل العلم فاشتهر بذكائه وحسن مداواته لأمراض العيون التي كانت منتشرة أيضاً انتشاراً عظيماً في جميع أرجاء مصر واستلفت نبوغه الجالس على كرسي الملك فألحقه بخدمة الدولة. ولكن صيته وصل إلى (عز الدين أيدمر) في صلخد إحدى مدن

جبل حوران فأرسل في طلبه فرحل إليه وأعجبه هواء صلخد فمكث فيها حتى أتته المنية عام ٦٦٨ هـ.

لكنه ترك ذكراً خالداً (عيون الأنباء) الذي ألّفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح وهو أحسن كتاب في التراجم لا يشبهه إلا كتاب (أخبار الحكماء) والذي يمتاز عليه بأنه أوسع وأوفر. جمعه وقاس في جمعه الصعاب وقضى السنين الطوال محققاً ومدققاً حتى تمكن من تأليف كتابه هذا.

ومن كتبه أيضاً: «التجارب والفوائد»، و«حكايات الأطباء في علاجات الأدواء»، و«معالم الأمم»، وله أشعار كثيرة ومن الذين تلقى عليهم ابن أبي أصيبعة العلم (ابن البيطار) وفي كتابه (عيون الأنباء) أرَّخ للطب ولتراجم الأطباء من عهد اليونان إلى عصره، قد طبعه لأول مرة أوجست مولر في القاهرة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م)، ونشرت مقدمة له في كونجزبرج ١٨٨٤ م.

٥

ابن اياس:
رجل ضد الغوري!!

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس زين الدين الناصري الجركسي الحنفي. صاحب كتاب «تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور» المطبوع في بولاق، القاهرة، ١٣١١ ـ ١٣١٢، ٣ أجزاء.

الجزء الرابع والجزء الخامس حققه كاله ومحمد مصطفى وسوبر نهيم، استامبول، ١٩٢١ ـ ١٩٣١.

كان مولده بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م)، ومات بعد أن قارب الثمانين من عمره وانتهى في تاريخه إلى سنة ٩٢٨ هـ. ينتمي إلى أسرة تركية، وجده لأبيه، واسمه إياس الفخري، كان من مماليك السلطان الظاهر برقوق، بينما تقلد جده لأمه وهو ازدمر الخازندار، نيابة صفد وطرابلس وحلب. أما والده، فكان من الفئة المعروفة بأولاد الناس، التي لا يؤدي أربابها الخدمة العسكرية إلا بناء على أمر السلطان، ويظفرون بإقطاعات صغيرة، أو مبالغ معينة من المال تكفي لنفقاتهم. وكانت شهرته ترجع إلى ما ارتبط به من صلات القربة والمصاهرة مع عدد من كبار الموظفين.

والراجح أن ابن إياس عاش على ما ناله من إقطاع من السلطان الغوري. فانصرف إلى الكتابة والتأليف في التاريخ، ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات. وعاش ابن إياس متتبعاً عن كتب حوادث المجتمع الذي تقلب فيه، وكان شديد الإحساس بما يجري في دولة المماليك من عوامل التداعي.

وأهم ما تبقى من مؤلفات ابن إياس، كتابه الشامل عن تاريخ مصر، والمعروف

باسم بدائع الزهور في وقائع الدهور. عالج باختصار تاريخ مصر حتى نهاية العصر الأيـوبي، وما كتبـه عن العصر المملوكي حتى زمن قـايتباي، يغلب عليـه العجلة والسرعة.

على أن ابن إياس أخذ منذ بداية عهد قايتباي، يسهب في وصف الأحداث، ويورد بالتفصيل تراجم كبار الموظفين، وما جرى من الوفيات في كل شهر.

واشتهر في الأجزاء المعاصرة من تاريخه، بدقة الملاحظة واستقصاء الحقائق وقسوته في الحكم على الناس. وكان على جانب كبير من القدرة على النقد، فلم يقتنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على نحو ما جرى عليه المؤرخون السابقون، بل صار يشرح ويفلسف ما يجري من الأحداث، وشجعه على ذلك اتصاله بأعيان البلاط والسلطان، ولا سيما ما يتعلق بالمدفعيـة وما كـان من إهمال أمـرها زمن السلطان الغوري. يضاف إلى ذلك ما أورده عن الإدارة المالية الفاسدة، وقد تجاوز ابن إياس الحد في لوم الغوري على ما تعرضت له البلاد من أزمة مالية حادة. ومما يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة، أنه المصدر العربي الوحيد الذي يعالج مستهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

فتناول الحكم العثماني في مصـر بالنقـد والسخريـة أحيانـاً لإهمال مصـالح المصريين، برغم ما يحاط بالسيادة العثمانية من هيبة ورهبة. والواضح أن كتاب ابن إياس يزخر بألفاظ وتعابير وجمل لا تمتّ للغة العربية الفصحى بصلة، ولعل ذلك يرجع إلى ذيوع اللسان التركي بين طبقات الخاصة، وإلى دخول كثير من الألفاظ الأجنبية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين.

٦

ابن بشكوال
مؤرخا للصلة والعظة!

الأندلس جنتنا المفقودة بتراثها الفكري العظيم ستظل دوماً على جانب كبير من الأهمية في الدراسات العربية الإسلامية بجانبيها الأدبي والتاريخي، فالأندلس المملكة العظيمة التي أعلنت فيها الخلافة على إثر فرار بني أمية من سورية الشامية، وطوال سنوات الخلافة المسلمة في الأندلس ظلل الجلال مع العظمة في ربوعها، حيث العلوم، واستنباط المعارف، ومحاولة بثها في أقطار المعمورة المسلمة، بل في أرجاء الدنيا، ونشر لواء الحضارة على ربوع أوروبا التي كانت ترزح تحت نير العبودية الإنسانية، عبودية الذل ، عبودية الجهل والظلم والاستبداد، فانتقلت بالقارة الأوروبية من براثن الانحطاط والتدهور إلى أوج السعادة والرقي، فكانت نوراً ساطعاً، وكوكباً لامعاً، سلط أشعته على الغرب فحوله من الفوضى والتخلف إلى البشرية المتحضرة، ونحن نرفع أصواتنا ونقول: إنه من اللازم اللازب على كل مفكر مسلم، أن يعمل على إحياء تراث الأندلس العربية، والتي قضى عليها تفرق كلمة حكامها، كذلك التعصب الديني المقيت، وإحياء تراث الأندلس بنشر الكتب التي دونها علماؤها والدالة على علو مكانتهم، وعظيم أخلاقهم، وسعة معارفهم وأفكارهم.

وقد بذلت بعض المحاولات في البلاد العربية والإسلامية لإحياء ذخائر التراث الأندلسي أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب والذي حققه وقدم له الاستاذ محمد عبد الله عنان عن دار المعارف القاهرية.

- نفح الطيب للعلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري ويقع في عشرين جزءاً، مضبوطاً ومشروحاً ومعلقاً عليه من قبل وزارة المعارف العمومية (التعليم

الآن) بمصر سنة ١٩٣٨، وطبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وأعتقد أنها أكمل طبعة لنفح الطيب حتى الآن.

- «جذوة المقتبس» لأبي عبد الله الحميدي، المتوفى ٤٨٨ هـ عني بنشره، وصححه، وراجع أصله عزت العطار الحسيني.

- كتاب «قضاة قرطبة» مع «علماء إفريقية» لمحمد بن حارث الخشني، المتوفى سنة ٣٦١ هـ حققه عزت العطار الحسيني.

- كتاب «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» لأبي الوليد بن الفرض المتوفى سنة ٤٠٣ هـ اعتنى به أيضاً عزت العطار الحسيني.

- والكتاب الذي سيدور حوله وحول مؤلفه حوارنا في هذا المقال هو «كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم» تأليف الشيخ العالم: أبي القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (بفتح الباء والواو) المولود (٤٩٤ هـ) والمتوفى (٥٧٩ هـ) وله نسخة مطبوعة عن أصل مأخوذ عن المصور الشمسي للمخطوط الذي قرىء على المؤلف، والمحفوظ بمكتبة فيض الله باسطنبول التركية وقامت بتصويره جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات العربية) ونشرته مكتبة نشر الثقافة الإسلامية.

ويقول الأستاذ / عزت العطار الحسيني - رحمه الله - ذلك الرجل الذي وهب ماله ووقته من أجل نشر الثقافة الإسلامية وبالذات التراث الأندلسي وقام بنشر ومراجعة كتاب (الصلة) يقول في مذكراته عن هذا الكتاب: (في أثناء اشتغالي بكتاب الصلة وإعداد نشره، منَّ الله سبحانه وتعالى عليّ: بأن أرشدني حضرة الأخ الاديب، والاستاذ الفاضل محمد رشاد عبد المطلب الموظف في إدارة المخطوطات، قسم الثقافة، لجامعة الدول العربية - إلى نسخة صورتها الجامعة العربية لكتاب الصلة فرجوت منه مساعدتي على أخذ صورة منها بعد دفع الرسوم المقررة، وعزز رجائي أخي وصديقي ناشر العلوم والمعارف الأستاذ: محمد نجيب أمين الخانجي فلبي حفظه الله تعالى رجائي، وقام بمعاونتي أحسن قيام، فجزاه الله عن العلم وخدامه أطيب الجزاء».

وهذا النص الذي كتبه السيد عزت العطار الحسيني بشأن كتاب الصلة يحمل أكثر من دلالة نحن أحوج إليها في زمننا هذا، وبالذات في عملية التصدي للتراث وتحقيقه.

أولاً: أن الباحث المحقق عليه أن يحصل على أكبر قدر ممكن من نسخ نصوص المخطوط أو صورة الأصل قبل الصورة والقديم قبل الجديد والواضح قبل المطموس كي يعمق عملية المقارنة.

ثانياً: أن يناقش كل المثقفين المحيطين به في أمر المخطوط الذي يحققه لعله يخرج بنتائج جديدة، أو إرشادات مفيدة أو إحالات دقيقة تساعده.

ثالثاً: أن من الواجب على الباحث الأمين أن يرشد صديقه أو زميله إلى ما يفيده. محمد رشاد عبد المطلب بمجرد أن سمع حديث الحسيني عن كتاب الصلة أرشده إلى الصورة التي تم تصويرها من كتاب الصلة بكل الحب والأمانة.

رابعاً: الخانجي وهو رجل له الباع الأطول في سوق نشر التراث في مصر والعالم العربي يساعد الحسيني مساعدة قيمة من جميع النواحي رغم أن الحسيني نفسه كان صاحب دور نشر تعنى بالتراث.

وما لم يذكره نص الحسيني أن هناك طرفا آخر في الموضوع الا وهو البحاثة العراقي الأستاذ / السيد قاسم رجب ـ رحمة الله على الجميع ـ تولى الرجل تسويق الكتاب في الشرق العربي من خلال مكتبته الشهيرة ببغداد حباً في العلم والتراث.

هكذا كانت صورة الرجال الذين يعملون في تحقيق التراث: العلم هدفهم، والفكر رابطهم، والحب دمهم، كالبنيان المرصوص وأجسادهم شتى والروح واحدة أين نحن الآن منهم!!؟! أعود إلى كتاب الصلة لابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن واحة بن دكه بن نصر بن عبد الكريم بن واقد، الأنصاري، من أهل قرطبة وأصله من «شرين» بشرق الأندلس التابعة لبلنسية.

ويقول ابن الآبار الأندلسي عنه إنه أكمل كتاب «تاريخ العلماء والرواة للعلم

بالأندلس» لأبي الوليد الفرض هذا التاريخ الذي أكمله ابن بشكوال وأكمله ابن الآبار هو الآخر. ويصفه بأنه بقية المسندين بقرطبة، والمسلم له في حفظ أخبارها ومعرفة رجالها، متسع الرواية، شديد العناية بها وكان عارفاً بوجوهها، حجة فيها، مقدماً على أهل وقته في هذا الشأن، معروفاً بذلك، حافظاً حافلاً، ويرى أنه مؤرخ ممتع ومفيد، وذلك لأنه ذكر أخبار الأندلس في القديم والحديث، وبالذات عندما كان في قرطبة، فحشد المعلومات التاريخية وأكثر، وروى عن الكبار والصغار، وسمع العالي والنازل، وسجل بقلمه علماً كثيراً، وأسند عن شيوخه أكثر من ٤٠٠ كتاب بين كبير وصغير.

لقد أخذ ابن بشكوال العلم بقرطبة عن أبيه، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الوليد بن رشد، وأبي بحر الأسدي، وأبي الوليد بن طريق، وأبي القاسم بن بقي، وأخيه أبي الحسن عبد الرحمن وأبي القاسم صواب، وأبي عبد الله بن مكي، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي عبد الله بن الحاج، وأبي الحسن بن عفيف، وأبي عبد الملك الموروذي، وأبي الحسن عباد بن سرحان، وأبي عبدالله ابن أخت غانم.

كما أنه سمع باشبيلية: من أبي بكر بن العربي، وأبي الحسن شريح بن محمد، وأبي محمد بن يربوع وغيرهم.

كما كتب إليه: أبو القاسم بن منظور، وأبو عمران بن أبي تليد، وأبو علي بن سكرة، وأبو جعفر بن يشتغير، وأبو القاسم بن أبي ليلة، وأبو الحسن بن واجب، وأبو بكر بن عطية، وأبو القاسم بن جهور وجماعة سواهم يكثر تعدادهم ومن المشرق كتب إليه: أبو طاهر السلفي، وأبو المظفر الشيباني، وأبو علي ابن العرجاء وغيرهم.

ويقال: إن له مؤلفات تربو على الخمسين مؤلفاً، من أشهرها:

- «الغوامض والمبهمات» في ١٢ جزءاً اختصره أبو الخطاب بن واجب ورتبه.
- «الفوائد المنتخبة، والحكايات المستغربة» ٢٠ جزءاً.
- «المحاسن والفضائل، في معرفة العلماء الأفاضل» ٢١ جزءاً إلى غير ذلك من مؤلفاته ومجموعاته الشاهدة بالحفظ والإكثار.

تولى ابن بشكوال عدة وظائف منها قضاء بعض جهات اشبيلية الأندلسية عن

أبي بكر بن العربي، ويقال: إنه تولى وظائف فقهية أخرى في قرطبة.

من أشهر تلاميذه الذين أخذوا عنه: أبو بكر بن خير، وأبو القاسم القطري، وأبو بكر بن سمحون، وأبو الحسن بن الضحاك وكلهم مات في حياته جميعهم، ولابن بشكوال مريدون كثيرون أخذوا عنه لا يحصون.

ويؤكد ابن الآبار أن ابن بشكوال ولد يوم الاثنين الثالث من ذي الحجة سنة ٤٩٤ هـ، وتوفي في الثالث الأول من ليلة يوم الأربعاء الثامن من رمضان سنة ٥٧٨ هـ، ودفن لصلاة العصر بمقبرة ابن عباس، وعلى مقربة من قبر يحيى بن يحيى وصلى عليه حاكم قرطبة أبو الوليد هشام بن عبد الله بن هشام، وهو ابن ٨٣ سنة و٩ أشهر، و ٥ أيام.

ويقول العلامة الأندلسي محمد بن عباد أن مولد ابن بشكوال سنة ٤٩٠ هـ، ووفاته ٥٧٧ هـ إلا أن ابن الآبار يتهم ابن عباد بأنه لا يضبط كلامه.

ثم يتحدث الحافظ الذهبي صاحب تذكرة الحفاظ (جـ ٤ ص ١٢٨ ١٢٩) واصفاً ابن بشكوال بالرجل المتقن، ثم يذكر جمعاً من تلاميذه ومريديه لم يذكرهم ابن الآبار لنا.

ويترجم لابن بشكوال ابن خلكان في وفيات الأعيان ترجمة مفيدة، ونفس الإفادة نجدها في كتاب (الديباج المذهب) لابن فرجون، وليس كتاب (التاج المذهب) كما أسماه الزركلي في ص ٢٩٤ من الجزء الأول من أعلامه.

من أهم الكتب التي كتبها ابن بشكوال الأندلسي كتاب الصلة: في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم وابن بشكوال يعلل سبب تأليفه لهذا الكتاب أن أصحابه سألوه أن يصل لهم كتاب القاضي الناقد ابي الوليد بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ، المعروف: بابن الفرض، العالم الأندلسي.

ويتضح من كلام ابن بشكوال أنه لم يعاصر ابن الفرض بل أنه سمع كتابه: «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس» من أساتذته:

ـ أساتذة ابن بشكوال ـ وشيوخه مثل: أبي عمر بن عبد البر النمري، وأبي

محمد بن عتاب، وأبي حفص: عمر بن عبيد الله الذهلي رووا سيرة ابن الفرض وكتابه.

وهذا الكلام معقول ومنطقي لأن ابن الفرض توفي سنة ٤٠٣ هـ وابن بشكوال ولد سنة ٤٩٤ هـ بمعنى أن ابن بشكوال ولد بعد وفاة الفرض بحوالي ٩١ عاماً!!!.

المهم أن أصدقاءه سألوه أن يبتدىء من حيث انتهى ابن الفرض، ويتمم ويصل ما توقف عنده إلى وقته، وقت ابن بشكوال. ونفهم من كلام صاحبنا من خلال مدخل الصلة أنه كان قد أعد العدة بالفعل لعمل كتاب مستقل فقد قيد الكثير من أخبار معاصريه أو من سمع بهم ممن سبقوه، جمع آثارهم، وسيرهم، وبلدانهم، وأنسابهم، وموالدهم، ووفياتهم، وعمن أخذوا من العلماء، ومن روى عنهم من أعلام الرواة وكبار الفقهاء.

إلا أنه عدل عن فكرة الكتاب المستقل إلى تأليف (الصلة) عندما سأله اصدقاؤه، فسارع إلى ذلك، وشرع في ابتدائه على ما أحبوا، ورتبه على حروف المعجم: ككتاب ابن الفرض، وعلى رسمه وطريقته.

وقصد صاحبنا إلى ترتيب الرجال ـ في كل باب ـ حسب تقادم وفياتهم كالذي صنع ابن الفرض، ونسب كثيراً من ذلك إلى قائله في أمانة علمية جادة، واختصر ذلك قدر جهده.

وقدم ذكر الأسانيد إليهم مخافة تكرارها في مواضعها.

وسنضرب أمثلة على ذلك على سبيل المثال عندما تكلم عن أبي عمرو المقرىء فكلامه أخذه من القاضي: أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز الأنصاري، وأخذه من أبي عامر محمد بن حبيب الشاطي وكلاهما تلقاه عن أبي داود المقرىء عن أبي عمرو الذي ذكر ذلك في كتابه «طبقات المحدثين» وكلامه عن أبي جعفر بن مطاهر أخبره به أبو الحسن بن عبد الرحمن بن محمد بن بقي الحاكم، وغيره عنه، ذكر ذلك في كتابه: «تاريخ فقهاء طليطلة» من جمعه.

وهكذا نلمح قمة التوثيق العلمي في الإسناد وأرى أن ابن بشكوال يدين مع

غيره من العلماء إلى السنة النبوية السمحاء وفن روايتها وإسنادها تلك التي علمتنا التمحيص والتوثيق لما تقول.

ويؤكد لنا ابن بشكوال حرصه على أن يسأل شيوخه في كل ما يعني له، وفي كل أمر يشك فيه أو يختلط عليه، ويستفتي الثقات من أصحابه، ويذهب لأخذ رأي أهل العناية بهذا الشأن، ومن شهر منهم بالحفظ والاتقان يتأكد منه، ويوثق برأيه وأقواله وكتاباته.

وهذا هو خلق العلماء الحق، أمانة، ولاحياء في العلم والمعرفة، مع التدقيق وأخذ العلم من أعلامه.

ويحرص ابن بشكوال على أن ينسب كل شيء يقوله إلى أصحابه، إلا ما لحقه بسنه، وشاهده بنفسه، وقيده بخطه، فلا يسنده إلى أحد، ويقتصر في ذلك على علمه وتحققه. وقد رأيت الصورة الخاصة بالصلة والمصورة شمسياً للمخطوط المحفوظ في اسطنبول ويتبين منه بالفعل أنه كتب في حياة ابن بشكوال ونرى في هوامشه سماعات لابن دحية الكلبي وابن عمر الأنصاري البلنسي وغيرهما وقبل أن يبدأ ابن بشكوال كتابه يسأل الله الكريم العون والتأييد، والتوفيق والتسديد، والعصمة من الزلل، والسلامة من الخطل، والصواب في القول والعمل.

وإلى الله عز وجهه يتضرع ابن بشكوال أن يجعله ممن تعلم العلم لوجهه، وعني به في ذاته. فإنه على ذلك وعلى كل شيء قدير.

ونحن نردد كلام ابن بشكوال قائلين آمين يا رب العالمين.

٧

البلاذري: وفتوح البلدان

اسمه يحيى بن جابر البغدادي. صاحب كتاب «فتوح البلدان»، الذي قدم له، وحققه (J. de Goeje) بريل، ليدن ١٨٦٦ م، ويقع في حوالي ٥٣٦ ص. وبه صفحة عنوان إضافية باللاتينية:

Liber Expugnationem Regionem.

عاش البلاذري في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وهو ينتمي إلى أسرة من أصل فارسي، وكان جده من كتاب ابن الخصيب في مصر. ولد ببغداد العباسية، وتلقى تعليمه في العراق ودمشق وحمص. وكان من أقرب أصدقاء الخليفة المتوكل على الله العباسي، والخليفة المستعين بالله، كما أنه قام بتربية وتأديب المعتز. ومات سنة ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م بعد أن اختل عقله لتناول حب البلاذر، ولذا قيل له: البلاذري. ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابان هامان، الأول هو كتاب أنساب الأشراف، تناول فيه أنساب الأشراف حسب قرابتهم للنبي ﷺ.

وفتوح البلدان، وهذا الكتاب الآخر، ليس الا موجزاً لكتاب شامل في هذا الموضوع. واستهله بما وقع من الحروب بين النبي وعصابات اليهود، وحروبه مع أهل مكة والطائف.

ثم يتلو ذلك ذكر حركة الردة، وفتوح الشام العربية، والجزيرة العراقية، ومصر وأرمينية، والمغرب والعراق وفارس.

وتخلل الرواية التاريخية ملاحظات بالغة الأهمية عن تاريخ الحضارة والأحوال الاجتماعية، ومثال ذلك ما أورده عن وظائف الدواوين، والشجار مع بيزنطة على

الوثائق، ومسائل الضـرائب، واستخدام الخاتم، والنقود، وتاريخ الكتابة العربية، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ الفتوحات الإسلامية.

وما اشتهر به البلاذري من الصدق وروح النقد، أقر به الجميع، إذ لم يكتف بسماع الروايات من أوثق علماء بغداد، بل كان يتكبد الأسفار بحثاً عن الحقيقة، يضاف إلى ذلك ما اشتهر به من سلامة الذوق في انتقاء ما يستحق الرواية من بين ما اجتمع له من المواد.

وطبع هذا الكتاب في مصر وسوريا والعراق أكثر من مرة.

٨

الثعالبي:
فراء يهوى التاريخ

يقول ابن خلكان راوياً عن ابن بسام أن الثعالبي[1] «كان في وقته راعي تلعَات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم أقرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب، تواليفه أشهر مواضع، وأبهى مطالع، وأكثر ما يستوفيها حدّ أو وصف، أو يوفي حقوقها نثر أو رصف».

وعلى الرغم من أن الثعالبي كان جديراً بهذا الوصف، وعلى الرغم أيضاً من أنه عاش أكثر من ثمانين عاماً، قضى معظمها في مدارسة الأدب والعلوم، ونظم الشعر الرائق، وإنشاء النثر الرائع، فإنه لم يظفر من مؤرخي الفكر العربي والإسلامي وواضعي التراجم بشيء يؤبه له.

كل ما ذكروه عن الرجل أن اسمه أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الثعالبي، ووفاته كانت بها سنة تسع وعشرين ـ أو ثلاثين ـ وأربعمائة، وأن تاريخ ميلاده يرجع إلى سنة خمسين وثلاثمائة.

وترجع نسبته إلى (الثعالب) لأنه كان حائكاً لجلودها، أو قيل له ذلك، لأنه كان فراءً.

ويزيد ابن قاضي شبهه في طبقاته: أن الثعالبي كان يعمل معلماً للصبيان في مكتب[2]. وحتى تلميذه وربيبه علي بن الحسن الباخرزي صاحب كتاب دمية القصر

---

(١) ابن خلكان / وفيات الأعيان / جـ ١ / ٢٩١.

(٢) طبقات ابن قاضي شهبة / ص ٣٨٨ / مخطوطة بالمكتبة الظاهرية منها صورة فوتوغرافية في دار الكتب المصرية.

لم يزد على أن قال في حقه: «جاحظ نيسابور، وزبدة الأحقاب والدهور، لم تَر العيون مثله، ولا أنكرت الأعيان فضله، وكيف ينكر وهو المزن يحمد بكل لسان أو يستر وهو الشمس لا تخفي بكل زمان... !!»[١].

ويتحدث الباخرزي عن معرفته للثعالبي عندما كان الأول فرخاً أزغب، وفي الاستضاءة بنور علمه يرغب، وكان الثعالبي جاراً ملاصقاً لوالد الباخرزي، وتبادلا الرسائل في الإخوانيات، وقصائد يتقارضان بها في المجاوبات، وما زال الثعالبي بالتلميذ الباخرزي رؤوفاً حانياً عليه، حتى ظنه أباً ثانياً له، ويدعو التلميذ لأستاذه بالرحمة كل صباح تخفق رايات أنواره، وكل مساء تتلاطم أمواج قاره[٢].

وقريب من هذا ما قاله الحصري في زهر الآداب[٣] ويتضح من كلام الحصري أنه عاصر الثعالبي لأنه قال: إنه يعيش إلى وقتنا هذا، ويصفه بأنه فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده، وله مصنفات في العلم والأدب، تشهد له بأعلى الرتب، ويقول: إنه فرق في كتابه زهر الآداب ما اختاره منها. وعن تاريخ حياته ونشأته، وروافد معارفه وآدابه، وما تقلب عليه في أطوار عمره من أحداث، وما عسى أن يكون قد شغله من وظائف وأعمال، وذكر شيوخه وتلاميذه، وصلاته بالحكام، ومعاصريه من الكتاب والشعراء والعلماء فإن هذا ومثله، مما لم يذكره مؤرخ أو باحث.

ويؤخذ مما كتب وصنف أن الرجل كان بدر الأدباء الزاهر، وكوكبهم اللامع وعى ما زخر به عصره من آداب وفنون، كما أنه اطلع على ما ترجم إلى العربية من ثقافات، وأنه أحاط بجميع ما صنف من كتب، وحفظ ما تناقلته الرواة من جيد الشعر ومصطفى الكلام في مختلف الأصقاع.

وعى الأدب الإبداعي من الأندلس غرباً إلى خراسان والتركستان شرقاً.

ووعى الفنون والآداب المزدهرة في بلاط الدولة البويهية في العراق وفارس

---

(١) دمية القصر / ص ١٨٣ للباخرزي.

(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ١٢٧ للحصري.

(٣) عن مقدمة الأستاذ أبو الفضل ابراهيم لكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي وقد أشرنا إلى هذا التحقيق.

والسامانية في التركستان وما وراء النهر، والحمدانية بحلب السورية، والفاطمية بمصر، والمروانية بالأندلس ـ أحاط الرجل بكل صنوف الفكر ووعاها، وحفظ ما جادت به قرائح الشعراء في بغداد ونيسابور، ودمشق وحلب والقاهرة والقيروان وقرطبة وأشبيلة ولم يترك كتاباً صنف إلا واطلع عليه وأودعه بطون كتبه وأسفاره.

ونأخذ من كتبه أنه كان على علاقة طيبة بحكام عصره، وكان كريم المنزلة عندهم، تفيأ ظلالهم، وعاش في كنفهم، وألف الكتب برسمهم، وأهداها إلى خزائنهم، ونال عندهم سني الجوائز ووافر الأعطيات، فألف:

لطائف المعارف وأهداه للصاحب.

والتمثيل والمحاضرة أهداه لقابوس.

واللطائف والظرائف، والكناية والتعريض للمأمون صاحب خوارزم.

وفقه اللغة، وسحر البلاغة وثمار القلوب للأمير أبو الفضل الميكالي.

والأمير الميكالي، كان مشغوفاً بحب الثعالبي، محني الأضالع على مودته. فأورد من أخباره وشعره ورسائله في كتبه ما لم يورده لأحد من الرؤساء، وكان الميكالي بذلك جديراً.

وكان الميكالي شاعراً، ناظماً، صاحب عقل صائب، وظرف محبب، وفضل وكرم، ومجد، فكر عالٍ، بحر علم ومعرفة، كريم، متمكن من اللغة. وكان يضع بين يدي الثعالبي خزائن كتبه، ويرعى فيه حرمة الأدب الأصيل، والطبع المصفى الجميل، والنفس الكريمة، والشمائل العذاب.

كان الثعالبي شاعراً صافي الديباجة، لطيف التخيل، خفيف الروح، شائق اللفظ، رشيق المعنى، بعيداً عن التكلف والتعقيد، كما كان كاتباً متخير اللفظ، سهل الأسلوب، مليح التصرف، رائق الفكر، صادق الوجدان، وأحسن أشعاره ما قاله في مدح الأمير الميكالي والتحدث بما جمله الله به من أدب وظرف، وأخلاق سرية كريمة، وقد ذكر لنا ابن خلكان قصيدة من هذه القصائد في الجزء الأول من وفياته (ص ٢٩١).

أما نثره فيمتاز أيضاً بالعذوبة والرقة الممزوجة بجمال اللفظ ودقة المعاني وقد ذكر لنا الحصري صاحب زهر الآداب في الجزء الأول من كتابه قطعة مسجوعة من النثر يتحدث فيها عن دراية الميكالي بفنون الأدب وتفرده في ذلك ونلاحظ أن الرجل يذكر بطريقة ابن العميد وتلميذه بديع الزمان(١).

كما بارك الله للثعالبي في عمره، فقد بارك له أيضاً في تصانيفه وكتبه، فألف ما يربو عن الثمانين كتاباً تدور كلها حول اللغة والأدب والتاريخ، دون فيها الرجل علمه ومعارف عصره، ورسم صورة واضحة المعالم لأعلامه وشعرائه وكتابه، ونقل لنا أروع ما نضجت به قرائح الشعراء والأدباء. وأقلام المنشئين والبلغاء مثل كتابه الشهير: (يتيمة الدهر في شعراء العصر)، وسحر البلاغة، وفقه اللغة وسر العربية، والتعريض والكتابة، والمبهج، والتمثيل والمحاضرة، وخاص الخاص... وغيرها، وفي تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، والأعلام للزركلي، ومقدمة الأستاذ أحمد عبيد لتحقيق كتاب سحر البلاغة، ومقدمة الأستاذ المحقق إبراهيم الإبياري والأستاذ الصيرفي لكتاب لطائف المعارف، ومقدمة تحقيق التمثيل والمحاضرة للدكتور عبد الفتاح الحلو، في كل ذلك بيان عن كل كتبه وسنحاول هنا أن نذكر بعض هذه الكتب المطبوع منها فقط والذي وصل علمه إلينا وشاهدناه:(٢).

١ ـ تحفة الوزراء تحقيق المستشرقة ريجينا هاينكه ـ بيروت ـ دار القلم ١٩٧٥ م ـ مطبوع بالعربية والألمانية.

٢ ـ اللطائف والظرائف مع اليواقيت في بعض المواقيت جمع «أبو النصر» أحمد بن عبد الرازق المقدسي / طبع بالقاهرة / مطبعة صبيح ١٣٣٤ هـ.

٣ ـ أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه ـ طبع بالقاهرة المطبعة الجمالية ١٩١٥ م (الكتاب ١١١ صحيفة).

٤ ـ أحاسن كلم النبي ﷺ والصحابة والتابعين / طبع في ايطاليا سنة ١٨٤٤ م /

---

(١) مذكرات في تاريخ الأدب العباسي د. فتوح أحمد (١٩٧٣ م / مكتبة دار العلوم / القاهرة.

(٢) فهارس دار الكتب المصرية من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٨٣ م

الكتاب ١١٧ ص / ومعه ترجمة باللغة اللاتينية.

ثم أعاد يوسف حنا فيليب في ليدن نشر هذا الكتاب ثانية تحت عنوان (أحاسن كلم النبي ﷺ) والصحابة، والتابعين، وملوك الجاهلية، وملوك الإسلام، والوزراء، والكتاب، والبلغاء، والحكماء، والعلماء.

٥ ـ أحسن ما سمعت / صححه وشرحه الأستاذ محمد صادق عنبر / طبع في القاهرة عن مطبعة الجمهور / ١٣٢٤ هـ / والكتاب ١٩٠ صحيفة.

٦ ـ برد الأكباد في الإعداد / القسطنطينية، مطبعة الجوائب ١٣٠١ هـ / وهذا الكتاب ضمن مجموعة مكونة من خمس رسائل وقع فيها في الصفحات من ١٠٤ إلى ١٤١ وهي الرسالة الثانية.

٧ ـ يتيمة الدهر (تتمة اليتيمة) قام بإكمالها الأستاذ عباس إقبال حققها وشرحها وطبعت في دمشق السورية سنة ١٣٥٣ هـ، جزآن في مجلدين، الجزء الأول متمم للأقسام الثلاثة الأولى من يتيمة الثعالبي والجزء الثاني متمم للقسم الرابع منها.

٨ ـ الإعجاز والإيجاز / شرحه الأستاذ اسكندر آصاف في القاهرة وطبع بالمطبعة العمومية سنة ١٨٩٧ م ويقع في ٣٠٤ صحائف نفس الكتاب طبع بالقسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠١ هـ ضمنه مجموعة رسائل في اللغة والأدب للثعالبي وهذا الكتاب الرسالة الأولى منها.

٩ ـ طبعة أخرى لـ (تتمة يتيمة الدهر للثعالبي) طبعة ايران مطبعة نردين ١٣٥٣ هـ الجزء الأول والثاني في مجلدين، والجزء الأول متمم الأقسام الثلاثة الأولى من اليتيمة، والثاني متمم للقسم الرابع من يتيمة الثعالبي.

١٠ ـ التمثيل والمحاضرة / طبع بالقاهرة / عن دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦١ م في ستمائة صحيفة.

١١ ـ (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) طبع في مجلد واحد في مطبعة الظاهر بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ.

وقد قام أستاذنا محمد أبو الفضل إبراهيم بتحقيق عظيم لهذا السفر وخرج عن

دار نهضة مصر بالقاهرة في ٨٢٠ صفحة سنة ١٩٦٥ م.

١٢ ـ غرر أخبار ملوك فارس وسيرهم ـ هناك طبعة أخرى لهذا الكتاب قام بها «زوتنبرج» في باريس وقدم له بالفرنسية ثم قام بترجمته إلى نفس اللغة ويقع الكتاب في ٧٥٨ ص وقد خرج نفس الكتاب في إيران / طهـران / مكتبة ميـدان بهارستان / سنة ١٩٦٣ ضمن منشورات مكتبة الأسدي العدد الرابع، ومعه ترجمة بالفرنسية ومقدمة باللغتين الفرنسية والفارسية. وتقع في حوالي خمسين صفحة.

١٣ ـ (فقه اللغة) هذا الكتاب طبع عشرات المرات، وحقق أكثر من تحقيق منها الطبعة الباريسية، التي قام بها رشيد الدحاح وأخرجه في ١٧٢ صحيفة.

وطبعة الآباء اليسوعيين ١٨٨٥ م، بيروت، أخرجوه في ٤٣٢ ص وطبعة أخرى عن المطبعة العمومية بالقاهرة ١٣١٨ هـ.

١٤ ـ (خاص الخاص) يقع هذا الكتاب ضمن مجموعة كتب صغيرة جمعت في مجلد واحد وطبعت في مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٦ م وهو الكتاب الأول، ثم عادت المطبعة نفسها لتخرج نفس المجلد في طبعة ثانية سنة ١٩٠٨ م.

١٥ ـ (رسائل منتخبة) مجموعة رسائل للثعالبي صدرت في القسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ وهي عبارة عن ٤ رسائل أخذت من كتب التمثيل والمحاضرة ـ المبهج ـ سحر البلاغة ـ النهاية في الكتاب على الترتيب.

١٦ ـ سحر البلاغة وسر البراعة / دمشق / مطبعة الترقي ٣٥٠ هـ / ٢١٦ ص

.... الخ .... الخ[١].

إن الثعالبي ذلك الرجل الموسوعي يحتاج منا إلى وقفة أكثر دقة وأكثر منهجية لتقدمه إلى الناس ونضعه في المرتبة المناسبة والتي لا نشك في سموها وعلوها بين رجالات عصره.

---

(١) هناك كتب كثيرة أخرى للثعالبي تم طبعها طبعات غير دقيقة وبعضها حقق خارج مصر، وقد رأينا عدم الإسهاب في ذكر هذه الكتب خشية التطويل، ونأمل في ذكرها وتتبعها في دراسة مستفيضة عن الثعالبي بعون الله تعالى.

٩

الجبرتي:
مصر موعدنا!!

هو عبد الرحمن بن حسن الحنفي. صاحب كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» المطبوع في بولاق، ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ - ١٨٨٠ م)، في أربع مجلدات.

كان مولده بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م، لأسرة حبشية، موطنها جبرت، واستقرت بالقاهرة منذ أجيال عديدة، واشتهر أفرادها بالعلم، وتولى جماعة منهم رواق جبرت بالأزهر، وأشهرهم والد الجبرتي المؤرخ، الذي كان يقوم بتدريس علم الفلك بالأزهر وكان بيته مركز التقاء العلماء ورجال الدين، يضاف إلى ذلك أنه كان على صلة وثيقة بالدوائر المملوكية العثمانية الحاكمة. وفي هذه البيئة نشأ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، فحافظ على تقاليد أسرته في العلم، إذ كان من أشهر العلماء، واتصل بالبكوات المماليك، وشهد ما وقع بمصر من أحداث زمن العثمانيين والحملة الفرنسية ومحمد علي.

إمتاز الجبرتي عن سائر مؤرخي مصر العثمانية بأنه يعطي صورة كاملة للمجتمع المصري وقتذاك، وحرص على استقصاء الحوادث والموضوعية، ويشير إلى أنه لم يقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم يداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، لميل نفسي أو غرض جسماني.

وعلى الرغم مما توافر في كتاب الجبرتي من مادة عن الطوائف كالتجار وأرباب الحرف وأهل الذمة، إلا أن تصويره تركز في تاريخه وتراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي.

وكان الجبرتي شديد النقد لما حدث بمصر في زمن محمد علي، ولا سيما

السنوات الأولى من حكمه. وعين نابليون الجبرتي في الديوان الذي يتألف من أعيان البلاد، وفي السنوات الأخيرة من حياته كان موقتاً للصلاة وشهر رمضان.

ولقي الجبرتي مصرعه سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢٢ م، في طريق شبرا أثناء رجوعه إلى القاهرة، وذلك فيما يقال بتدبير محمد علي.

ويؤلف كتاب الجبرتي، تاريخاً للأحداث والوفيات، واستهله المؤلف بمقدمة موجزة حتى العصر العثماني، وينتهي الجزء الأول بنهاية مشيخة محمد بك أبي الذهب. واستهلت حوليات سنة ١٠٩٩، فظل المؤلف حتى ١١٧٠ هـ يركن في كتابته إلي ذاكرة الشيوخ والسجلات الرسمية والنفوس الواردة على المقابر.

ومنذ ١١٩٠ شرع في أن يورد بإسهاب وصف ما يقع من أحداث، ولذا كان لكتابته قيمة وأهمية: مذكرة الرجل المعاصر. ولا نشك مطلقاً فيما اتصف به الجبرتي من استقلال في الرأي وسلامة الحكم والتقدير فضلاً عن إدراكه ما للدقة والأمانة من مكانة، وما للمصدر الأصلي من أهمية.

ويعالج الجبرتي في الجزء الثالث أحوال مصر زمن الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، وألف معه كتابه المعروف باسم «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» وقد ظهر بالقاهرة في الستينيات بدون تحقيق[1].

وللجبرتي الفضل فيما كان من ترجمة عربية لكتاب المرادي المعروف بـ «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» والمطبوع في القاهرة، ١٢٩١ هـ، الذي أوحى له بما أورده في كتاب «عجائب الآثار» من تراجم. ولما لهذا الكتاب من أهمية في تصوير الحياة الاجتماعية، أفاد منه البحاثة / إدوارد لين في حواشيه على كتاب ألف ليلة وليلة.

وقد جرت ترجمة كتاب الجبرتي إلى اللغة الفرنسية (بالقاهرة ١٨٨٨ م) تحت عنوان:

Merveilles Biographiques et Historique du Shaikhel - Djabarti.

---

(١) هذا الكتاب حقق بشكل مختصر في طبعة وزعت على مدارس وزارة التربية والتعليم المصرية.

١٠

ابن الجوزي:
والتاريخ منتظما!

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد، صاحب كتاب «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» - طبع في حيدر آباد الهندية، ١٣٥٧ هـ - ١٣٥٧ هـ.

وابن الجوزي من أشهر علماء عصره في الفقه والحديث والتاريخ. ولد ببغداد سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م، واستقر بها بعد أن طاف ببلاد عديدة في طلب العلم.

ومات في بغداد سنة ٩٥٧ هـ / ١٢٠٠ م. وما اشتهر به من التعلق الشديد بمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، أدى إلى ما جرى من جدلٍ ومناظرة بين الحنابلة وأصحاب مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وبين أهل السنة والشيعة.

وما صنفه من كتب ورسائل عديدة، شملت الفقه والحديث والتاريخ. ومن أشهر مؤلفاته التاريخية، كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الذي لم يطبع منه إلا ستة أجزاء حسب علمي.

واتخذ ابن الجوزي نهج الطبري في الكتابة التاريخية، إذ كان كتابه عبارة عن سجل لما جرى في كل سنة من الأحداث، وما حدث من وفيات الأكابر والأعيان.

وما هو جدير بالملاحظة أن ابن الجوزي أسهب إسهاباً كبيراً في ترجمته للأكابر من الفقهاء والمحدثين والصوفية ولعل ذلك يناسب اهتماماته بعلمي الفقه والحديث.

١١

حسن الطولوني: بين الهندسة والتاريخ!!

في سنة ١٤٣٢ م، كان مولد حسن بن حسين الطولوني من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً، واشتغل كثير من أبناء هذه الأسرة بالهندسة والمعمار، فكان منهم غالباً «معلم المعلمين» أو «معلم المعمارية» كما ذكر صاحب النجوم الزاهرة، وهو كبير المهندسين في مصطلح الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، وعليه المعول في العمائر السلطانية. واستقام الخط المادي تماماً لهذه الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، حين تزوج السلطان برقوق من أخت كبير المهندسين أحمد ابن الطولوني، ثم من ابنته بعد طلاق عمتها. وأحمد هذا جدّ حسن بن الطولوني، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشيرة، تزيا بزي الأتراك وصار بذلك رجل أعمال ناجحاً، وظل على إمرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م، وهي السنة التي مات برقوق فيها.

لقد نشأ حسن بن الطولوني على مهنة آبائه، ودرج في عزهم وجاههم وإن كانت المراجع التي اعتمدت عليها لا تصرح البتة بصدد حسين أبي حسن بن الطولوني صاحب هذه الترجمة هنا، وربما كان كذلك من رجال المعمار، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية، وهو ممن عدهم السخاوي من تلاميذه في التاريخ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة في أول أمره، ثم وقعت الفتنة التي أدت إلى اعتلاء سيف الدين اينال (١٤٥٣ م - ١٤٦٠ م) عرش الدولة المملوكية بعد الإطاحة بعثمان بن جقمق الذي لم يكمل العام في الحكم بعد وفاة أبيه، وواضح من أحداث هذا الانقلاب أن حسن بن الطولوني أشرف بنفسه على حصار قلعة الجبل حتى أسلمت، فجزاه إيناك بأن عينه على وظيفتي معلم المعلمين وإمارة المحمل.

وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاماً، تخللتها عهود السلاطين (أحمد بن إينال ـ خشقدم ـ بلباي ـ تيمور بغا ـ خيربك (سلطان الليلة الواحدة ـ فايتجاي) حتى سنة ١٤٦٩ م، وعزل عنها فجأة لسبب لم تذكره المراجع، ثم أعاده قايتباي إلى تلك الوظيفة بواسطة من الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، فقام على عمائر السلطان خير قيام، ومنها جامع الروضة المعروف بـ (المقسي) على شاطىء النيل، وهو الجامع الذي تم بناؤه سنة ١٤٩٠ م، وأفتى السيوطي يومها نكاية في قايتباي بأن الإجماع منعقد على منع الميناء على شطوط الأنهار الجارية.

وظل ابن الطولوني متمتعاً برضي قايتباي، وحظي عنده بالدرجة الرفيعة، والمنزلة العالية، بل أصبح وسيلة الناس لديه، وسكن الروضة حيث الجامع السلطاني، وأقام به الوقدات الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر، وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنيها ووعاظها، وحج ابن الطولوني سنة ١٤٩٢ م موسمياً، ورافقه السخاوي في ركب هذا العام، فرأى من خير معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاج تلك السنة. ثم توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٥ م، فظل ابن الطولوني على وظيفته، بل ولاه السلطان محمد بن قايتباي نيابة القلعة كذلك، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصين القلعة تحصيناً عظيماً أثناء فتنة الأمير قانصوه خمسمائة الذي عزل ابن قايتباي وتولى بدله مدة ثلاثة أيام فقط!!

ولابن الطولوني كتاب (النزهة السنية في ذكر الخلفاء والملوك المصرية) وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام، وينتهي بحوادث السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، والراجح أن له كتاباً ثانياً في التاريخ على صورة المذكرات أو اليوميات، غير أنه لا يوجد ما يدل عليه حتى الآن سوى قول ابن إياس في ترجمة ابن الطولوني «أنشأ تاريخاً لضبط الوقائع» (بدائع الزهور: ١٠٧/٣)، وأكبر الظن أنه مدفون في مجموعة من المخطوطات الموسوعية التي تملأ مكتبات العالم؛ ولابن الطولوني عدا ذلك شرح مقدمة أبي الليث، وشرح الأجرومية.

لقد عاش ابن الطولوني حتى سنة ١٥١٧ م، أي أنه أدرك الفتح العثماني لمصر والشام غير أنه عمي قبل ذلك بمدة طويلة، وعزل عن وظيفته المعمارية، واستقر

فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد، ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين) والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثماني من القاهرة إلى استامبول التركية، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من المباني والعمائر، ثم رجع مع الراجعين من المصريين حنيناً إلى القاهرة بإذن السلطان العثماني.

ولابن إياس في بدائع الزهور: (٥/٢٢٤ ـ ٢٢٨) ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى اسطنبول ثم عادوا إلى القاهرة الأم بعد قليل، وفيه أسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى، وأولهم الخليفة المتوكل العباسي.

١٢

الخالدي:
والتاريخ الحكومي

إلى جانب ابن حجر العسقلاني، والعيني، وابن عرب شاه هؤلاء الذين عاصروا المقريزي، كان اثنان ممن عاصروهم وإن لم يشتغلا بكتابة التاريخ فكل منهما خلف مؤلفاً له قيمة واضحة في فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام في العصور الوسطى، وأولهما خليل بن شاهين، وثانيهما الخالدي الذي ألف في ديوان الإنشاء بالقاهرة كتاباً لا يعرفه إلا الأقلّون حتى الآن.

سنتحدث الآن عن (الخالدي) واسمه بهاء الدين محمد العمري الخالدي، فلا يعرف عنه حتى الآن سوى أنه مؤلف لكتاب اسمه (المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشا) وهو كتاب مشابه في موضوعه لكتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، لشهاب الدين بن فضل الله العمري المتوفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، ولكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للمؤلف نفسه، ولكتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي المتوفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، ومن الجلي لكل من يطلع على هذا الكتاب المخطوط أن مؤلفه تقلب كالعمري والقلقشندي في وظائف ديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة، بدليل معرفته أسماء الدول والأقطار التي انقطعت رسائلها عن مصر في عصره، وبدليل إلمامه التام بأساليب الكتابة والدبلوماسية إلى مختلف الملوك في المشرق والمغرب.

وقد وضح لي أثناء قراءة هذا المخطوط أن مؤلفه كتبه في منتصف عهد السلطان برسباي تقريباً أو بعده سنة ١٤٣٢ م على التحقيق، فهو حلقة ظلت حتى الآن مفقودة عند المشتغلين بتاريخ النظم المصرية في العصور الوسطى، وبه معلومات انفرد بها عمن سبقه من المؤلفين في هذه الناحية من التاريخ المصري.

١٣

ابن الخطيب: التاريخ يكتبه الوزير!

الشاعر، الكاتب، المؤرخ، السياسي، الوزير المقتول: لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني ـ صاحب كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» والمطبوع في القاهرة، ١٣١٩ هـ في مجلدين.

كان مولده في سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م في لوشا جنوب غرناطة الأندلسية، غير أنه أقام منذ صباه في غرناطة التي انتقل إليها أبوه باعتباره من موظفي بلاط بني نصر، وتلقى تعليمه على أشهر علماء عصره، فصار من أشهر المؤلفين، والشعراء ورجال السياسة، لا في غرناطة الأندلسية فحسب، بل في الأندلس ككل. وتقلد الوزارة مرات عديدة، وتعرض للعزل والإعتقال، حتى لقي مصرعه مقتولاً في سجنه خارج غرناطة سنة ٧٧٦ هـ / ١٧٧٤ م وللأسف الشديد فإنه لم يبق إلا نحو الثلث مما خلفه لنا ابن الخطيب من المؤلفات العديدة في التاريخ والجغرافية والشعر والتصوف والفلسفة والطب.

ويعتبر كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة من أهم مؤلفاته التاريخية، ترجم فيه لمن نشأ في غرناطة، إحدى عواصم الأندلس وحاضرة ملك بني نصر، لعهده من رجال السيف والقلم. منذ قامت في الأندلس دولة إسلامية إلى عصر المؤلف.

وأسهب لسان الدين الخطيب في كل ما أورده عن رجال بني نصر، وأشار إلى مَنْ كان يعاصر ملوكهم، من الملوك في المغرب وتونس وأسبانيا.

وقام أستاذنا المرحوم / محمد عبد الله عنان بإعادة طبع كتاب الإحاطة، بعد

تحقيقه بشكل علمي مفيد، نظراً لأن النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة ١٣١٩ ليست كاملة، وقد حفلت بالعديـد من الأخطاء، فضـلاً عن افتقارهـا إلى تحقيق الأعلام الاسبانية والأندلسية.

وقد اقتنيت الجزء الأول منه، مطبوعاً بدار المعارف القـاهريـة بدون تـاريخ للطبع.

١٤

ابن خلدون:
والتأريخ للعمران والحضارة.

ربما دل البحث المقارن في عصور التاريخ ـ وهو ميدان بكر لاستجلاء الأسس العامة في الحضارة الإنسانية ـ على أن القرن الخامس عشر الميلادي عند الإطلاق، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول، والجماعات والأفراد، بالغرب والشرق سواء.

وكفى دليلاً هنا على صحة هذا الفرض التاريخي أن الأوروبيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى الهند وتجارتها طوال هذا القرن، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطىء الهندية صار مصير الشرق كله في كفة المقادير العاجلة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد البعيد، بل عثر الأوروبيون حوالي ذلك الوقت على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند، وسموا أهلها الهنود الحمر، ثم استقروا على تسمية تلك الأرض وسكانها أمريكا والأمريكيين، وولوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقة في عنف لا هوادة فيه ونهم شديد، مما يرجع كله في الأصل إلى القرن الخامس عشر وحوادثه.

وللمؤرخين في مصر ولكتاب الموسوعات بوجه عام في ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات، وهي في الواقع برهان على بدء العالم الإسلامي في شيء من الإفاقة لفهم كيانه، ولعل أكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، لا سيما الجزء الأول منه، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة، إذ يرى القارىء بصفحاته الافتتاحية تعريفاً أخاذاً للتاريخ بأنه «في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون

الأول. . . . ، وفي بـاطنه نـظر وتحقيق، وتعليل للكـائنات ومبـاديهـا دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»[1].

لقد كان ابن خلدون من ألمع الشخصيات العربية الإسلامية التي احتلت مكاناً مرموقاً لدى المفكرين الغربيين والشرقيين على حد سواء، بل لعل اهتمام الأوروبيين به وبآرائه وأفكاره. . . ترجح اهتمام المشارقة به، فهم الذين توفروا على تحقيق آثاره ونشرها في لغتها العربية، وعلى ترجمتها إلى لغاتهم الأوروبية وبخاصة الفرنسية.

ومن الطريف أنه قلَّما ظهر مستشرق أوروبي أو أمريكي إلا وقد نصب عينيه أن يكون له حول «ابن خلدون» دراسة أو كتاب، حتى كأن دراسته وفهم نظرياته والكتابة عنه أصبحت تحدياً لا بد لكل مستشرق من مواجهته، كي تثبت أقدامه على طريق الاستشراق، وترسخ خطاه على أبواب الدراسات العربية.

والحق أن شخصية «ابن خلدون» وآراءه ونظرياته جديرة بأن تجعل منه ذلك المفكر الذي تستهوي أفكاره كل باحث عن الجديد في دائرة المعرفة، وكل طارق لأرض بكـر في نطاق عـطاء العقل البشـري، فلقد عـاش على مساحـة من العالم الإسلامي، تمتد من المغرب والأندلس إلى القاهرة ودمشق، وفي فتـرة بلغت نحو نصف القرن حيث وافته المنية في القاهرة. وفي هذه الفترة كان يمـارس السياسـة والسفارة والشعر والقضاء والتأليف، ويخالط الناس بكل طبقاتهم من السلطان إلى الوزير إلى العالم إلى رجل الشارع، فأكسبه ذلك كله قدراً من التجارب الإنسانية ربما لم يتح لمفكر عربي آخر، فكان حصاده فكراً جديداً جعل منه منشىء علم العمران ورائد علم الاجتماع.

والواقع أن ابن خلدون في مقدمته يشير دائماً إلى العلل والكيفيات، والأسباب والنتائج، وفيها إشارات كثيرة، مما يدل على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث، كما أنه يشير إلى ما يجب أن يتذرّع به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول: «إن المؤرخ الصالح محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبت

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ طبعة بولاق ـ ج١، ص ٣.

يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة، وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصواب. . . . »(١).

لقد كتب ابن خلدون تاريخه بعد أن تنقل في البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب، وعاش في بلاط سلاطينها المسلمين، وتقلب في خدمة دواوينهم، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، كما سافر لأحد أولئك السلاطين، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة، عند (بيترو) ملك قشتالة المسيحية، وبذا شهد بنفسه أحوال الكثير من الدول عن كثب، ولمس بيده عوامل التدهور الناشبة أظفارها بين المسلمين والمسلمين، مما جعل لكتابه على وجه التعميم، والمقدمة على وجه التخصيص، قيمة تاريخية فريدة. ثم وفد ابن خلدون لمصر سنة ١٣٨٢ م، وكان انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة، وحج أكثر من مرة، ودرس بالجامع الأزهر، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو، بل تولى منصب قاضي القضاة المالكية بمصر، كما رافق الحملة المملوكية التي قادها السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠١ م لدفع تيمورلنك عن دمشق، كما شارك في وفد المفاوضة للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية.

أما منبع الأهمية في هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون، فهو أنها تنبىء بأصناف التجارب التي تمرس بها وأودع منها في كتابه، كما أنه تدل على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين في مصر والشام وغيرهما من البلاد، بل تدل المراجع على أن اتصالاته بعلماء مصر بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتتلمذين على طريقته، كما أدت إلى قيام فئة من الغامطين لمقامه والمنددين بقدرته ومقدرته.

وإذا لم يتسع المقام هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة، فإن في أخبار تلاميذه،

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - طبعة بولاق - ج ١، ص ٧.

والتابعين له بإحسان وغير إحسان، برهاناً على أن قصة المؤرخين في عالمنا الإسلامي في القرن الخامس عشر الميلادي لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله كمؤرخ حضاري، ولم يتسع الأمر لشيء سوى كلمات معدودة(١).

لقد كان ابن خلدون بحق هو مؤسس علم الاجتماع دون منازع، وأنه أستاذ لكل من جاء بعده من العلماء الأفذاذ في هذا الفرع من فروع المعرفة، من أمثال: «أوجست كونت» الفرنسي، و «فيكو» الإيطالي، و «كتلنه» البلجيكي، وقد اعترف بذلك الدارسون المستشرقون انفسهم حين عرضوا لنظريات ابن خلدون دراسة وتحليلاً.

---

(١) من كتب ابن خلدون: كتابه في التاريخ، ومقدمة، وشرح البردة، وكتاب في الحساب، وتعليقات في المنطق، وتلخيصات من كتب ابن رشد، غير أنه لم يصل إلى أيدينا من هذه المؤلفات إلا كتاب التاريخ ومقدمته، وهما كتاب واحد وان عمد الدارسون إلى جعلهما كتابين لما تتميز به المقدمة من فكر جديد، ونظريات مستحدثة، فرضت نفسها على الدراسات الإنسانية على المستوى الفكري العالمي.

١٥

ابن خلكان:
رجل يعرف أبناء الزمان!!

أحمد بن محمد بن إبراهيم، شمس الدين أبو العباس، البرمكي، الإربلي، الشافعي، مؤرخ مسلم فذ، يرجع ميلاده إلى ١١ ربيع الثاني ٦٠٨ هـ. بدأ دراسته عام ٦٢٦ هـ على يد أساتذة أكفاء مثل الجواليقي وابن شداد. وكانت بداية تعليمه في حلب السورية، ثم درس في دمشق، ورحل إلى القاهرة عام ٦٣٦ هـ وعين في وظيفة نائب قاضي القضاة وهو لم يبلغ بعد ٢٩ عاماً، وكان نائباً للقاضي يوسف بن الحسن البخاري ثم عين ابن خلكان قاضياً للقضاة في دمشق عام ٦٥٩ هـ، ولكنه صرف عن منصبه الذي كان في أول الأمر وقفاً على الشافعية السنية مدة خمس سنوات ثم ألغي هذا المنصب بعد ذلك بعشر سنوات.

بعد أن اشتغل ابن خلكان بالتدريس سبعة أعوام في المدرسة الفخرية بالقاهرة رد مرة أخرى إلى قضاء الشام، ثم عزل عنه للمرة الثانية في المحرم عام ٦٨٠ هـ بعد ذلك بعام واحد قابل ابن خلكان وجه باريه وكان وقتها يعمل بإلقاء الدروس في حلقات المدرسة الأمينية.

بدأ ابن خلكان كتابة مؤلفه الهام «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» بالقاهرة عام ٦٥٤ هـ، وكان عمره ٤٦ عاماً ولكنه اضطر إلى الانقطاع عن المضي فيه أثناء ولايته لقضاء دمشق، وعاد ليتمه في ١٢ جمادى الآخرة عام ٦٧٢ هـ. وللكتاب نسخة هامة جيدة ما زالت محفوظة للآن في المتحف البريطاني.

لقد شاءت الأقدار أن نفقد معظم المؤلفات التي تحدثت عن رجال مشاهير كان لهم الباع الأجل في الفكر والتصنيف قبل عصر ابن خلكان ومن هنا اكتسب «وفيات

الأعيان» لابن خلكان شهرة لأنه يعد من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي، وقام بنشره فستنفلد في مدينة جوتنجن بين عامي ١٨٣٥ م و١٨٤٣ م. كما نشره ده سلين في باريس. وللكتاب طبعة مصرية أخرجتها مطابع بولاق فيما بين ١٢٧٥ م و ١٢٩٩ م، وأعيد طبعه بالقاهرة مرة ثالثة ١٣١٠ هـ، كما أنه طبع طبعة حجرية في طهران بإيران ١٢٨٤ هـ، وترجم إلى اللغة التركية في استامبول عام ١٢٨٠ هـ - كما ترجمه للفرنسية دي سلين في مجلدات أربعة صدرت في كل من باريس ولندن من عام ١٨٤٣ م إلى عام ١٨٧١ م.

وينسب لابن خلكان كتاب (التاريخ الأكبر في طبقات العلماء وأخبارهم) ولكن نرجح أن يكون الكتاب لأخيه محمد بهاء الدين قاضي بعلبك اللبنانية

السبكي الشافعي يحدثنا في طبقاته عن ابن خلكان حديثاً مطولاً كله ثناء، والسيوطي يعرفنا به في (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) ويقول أن مولده يرجع إلى سنة ٦٠٠ هـ!! ويبدو لنا أن السيوطي جعل ابن خلكان يولد قبل مولده بـ ٨ أعوام!! والسيوطي يؤكد لنا أن المؤيد الطوسي أجاز له، وأنه تفقه بابن يونس وابن شداد والتقى بكبار علماء عصره، وسكن مصر مدة، وناب في القضاء بها، ثم ولي قضاء الشام.

وابن خلدون يؤكد لنا أنه كان ثرياً، سرياً، ذكياً، إخبارياً، عارفاً بأيام الناس.

تولى ابن خلكان قضاء الشام، ثم عزل عنها وولي بدلاً منه ابن الصائغ، بعدها عزل ابن الصائغ بعد ٧ سنوات ليتولى ابن خلكان ثانية، وكان يوم توليته يوماً مشهوراً مشهوداً، جلس ابن خلكان في منصة القضاء، وتكلم الشعراء عنه مادحين إياه مقرزين أفضاله، واصفين إياه بأن أيامه في الشام مثل أيام يوسف الصدّيق عليه السلام في مصر، ولكل سبع شداد، وبعد السبع الشداد جاء عام يغاث فيه الناس، ولعلنا نلاحظ أن ذلك تعريض بقضاء ابن الصائغ وإشادة بابن خلكان، ومن جملة الشعراء الذين مدحوا مؤرخنا في هذا اليوم: نور الدين بن مصعب، والشيخ رشيد الدين الفاروقي.

ويقال: إن ابن خلكان كان ذا ميلٍ إلى بعض أولاد الملوك، وله فيه أشعار رائقة، رائعة لا داعي لذكرها في هذا المقام.

ويقال إن هذا المتيم به ابن خلكان زاره ذات يوم فبسط له الطرحة، وقال له: ما عندي أعز من هذه طأ عليها، ولما فشا أمرهما، وعلم به أهله منعوه الركوب، فقال ابن خلكان قصيدة بائية مطولة يشكو فيها ويتذلل، ويطلب منهم أن لا يمنعوا عينه القريحة أن ترى (يوم الخميس) جمالهم في الموكب، والمحبوب بدر طالع، له مبسم سهى بارد عذب نمير. . الخ . . . . الخ وبدون ذكر كل ما قاله ابن خلكان فنحن أمام غزل صريح بالمذكر يعلنه ابن خلكان، ويقول لنا التبريزي: أن الذي يهواه ابن خلكان هو الملك الشاب المسعود بن الزاهر صاحب حماة، ويقال: انه ابن المظفر صاحب حماة، وكان قد تيمه حباً.

على كل حال نحن نقول لماذا لا يكون غرض الرجل شريفاً، وإنه يمدح في مبالغة لعل العطاء يجزل، وإذا رفض القارىء هذا المذهب، نرد قائلين بأن الحياة الشخصية ملك لصاحبها، ولا يصح للناقد أو المؤرخ أن يخوض فيها، كل ما يهم نتاج العالم وإسهاماته العلمية ـ ونرى أن ابن خلكان أسهم إسهاماً رائعاً، مفيداً بما كتب وسجل، ويكفيه أنه صاحب «وفيات الأعيان».

وفي تهمة أخرى لأهل دمشق يزعمون أن الرجل كان يكذب في نسبه، ويأكل الحشيشة، ويحب الصبيان، وقد دافع الرجل عن تهمة الكذب في النسب بأنه من لم يواكب الناس جهلهم، وقال ان ثمن الخمر يملكه فلماذا يأكل الحشيشة؟ ولكنه رفض أن يدافع عن نفسه في التهمة المنسوبة إليه أنه يحب الغلمان.

إلى جانب مؤلفات ابن خلكان نرى مجموعة ضخمة من أشعار نظمها منها على قافية الباء، والسين، والفاء، والياء، والهاء، والميم، واللام وكلها أشعار تقليدية كلاسيكية لا جديد فيها مستقاة من الأغراض التي كانت شائعة على أيامه وذلك لا يمنع من ضرورة جمعها لأمرين.

الأول: لأنها تعكس شخصية ابن خلكان، وأسلوبه وثقافته ونزوعه واتجاهاته الفكرية بجلاء ووضوح.

الثاني: لأنها تعكس العصر بكل أبعاده الاجتماعية، والسياسية، والثقافية والاقتصادية.

كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما يثبت بالنقل أو السمـاع أو أثبته العيان» لابن خلكان ـ كتاب موسوعي ضخم يقع في جزأين ويضيف لنا الكثير من المعلومات حول رجال وأعلام، أدباء، وشعراء، ساسة وفقهـاء. اسهموا في شتى فروع الحياة الفكرية، بـل إنه يعـرفنا بشخـوص بعدت عنهم دائـرة الضوء فبـدت ملامحهم مجهلة لنا.

ويقول صلاح الدين الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) وأثناء حديثه عن ابن خلكان، يذهب إلى أن صاحب (وفيات الأعيان) مات أثناء عمله كقاضي في بعلبك اللبنانية (٦٨٣ هـ)، ولم ينل من جميع ما كان باسمه من الجراية والحامكية الا قوته لا غير ويسأل عما عدا ذلك.

مات ابن خلكان فقيراً معدماً، فما خلف ديناراً ولا درهماً، وعليه جملة من الدين فبيعـت كتبه لوفائه، ويقال انه دفن في تربة الزاهد عبد الله البويني[1].

(١) نحن نتحدث عن ابن خلكان المؤرخ وما ترك من تراث خالد، وقد يرى البعض أن ما ذكرناه عن حبه للغلمان أمر يسيء للرجل وإلى موضع القدوة فيه ولكن ما ذنبنا وهذا ما يقوله معظم من كتبوا عن حياته وتاريخه ـ غفر الله له ولنا.

١٦

خليل بن شاهين الظاهري: رجل يؤرخ للإدارة!

إلى جـانب ابن حجر العسقـلاني، والعيني، وابن عربشـاه الذين عـاصـروا المقريزي، نتعرف على كاتب لم يشتغل بكتابة التاريخ لكنه خلف لنا مؤلفاً له قيمة واضحة في فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام في العصور الوسطى.

رجلنا هو خليل بن شاهين كان مولده سنة ١٣٧٢ م ببيت المقدس الشريف، حيث عاش أبـوه أميراً من أمراء المماليك في تلك النيابة الشامية.

وفي شبـابـه جـاء ابن شـاهين، ليـدرس الحـديث الشـريف على يـد ابن حجر العسقلاني، غير أنه ترك ممارسة العلم، والتحق بالفـرقة المملوكيـة المسماة باسم فرقة أولاد الناس، وهي الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك.

وسرعان ما مضى ابن شاهين قدماً في طريق الوظائف، حتى إنه جمع في يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالإسكندرية، ويرجع بعض الفضل في ذلك التعدد إلى أنه كان حماً للسلطان الأشرف برسباي المملوكي. تقلب ابن شاهين بعد ذلك في كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف، وهي أكبر الرتب الحربية في دولة المماليك الأولى والثانية.

أما مؤلفاته فأهمها كتابه المسمى (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، كتبه ابن شاهين في مجلدين يضمان بين دفتيهما أربعين فصلاً، ثم عاد ليختصره في مجلد

واحد إلى اثني عشر فصلاً، وذلك في عصر السلطان جقمق وهذا المختصر هو الذي بقي حتى الآن، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكي، وبين الوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك الثانية التي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٤٦٨ م[1].

(١) قام البحاثة P. Rovaisse بنشر كتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» في باريس سنة ١٨٩٤ م.

١٧

ابن زنبـل: مؤرخ يوزع الصدقات بعد شنق طومان باي!!

في الجزء الخامس (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨) من كتابه (بدائع الزهور) يذكر لنا ابن إياس أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى استامبول التركية بأمر من السلطان سليم الأول ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من العمائر والمباني، ثم رجع معظم هؤلاء حنيناً إلى القاهرة الأم، بإذن السلطان العثماني.

قائمة ابن إياس الهامة فيها أسماء الكثير من الشخصيات الكبرى والصغرى، وأولهم الخليفة المتوكـل العباسي، وليت ابن إيـاس ذكر من ضمن هؤلاء وأولئـك المؤرخ (ابن زنبـل المحلي الرمـال) ذلك الـرجل الـذي عاصـر ابن إيـاس وعبـد الباسط بن خليل الحنفي، وحسن بن الطولوني.

ابن إياس لم يذكر عن ابن زنبل خبراً واحداً، والـمـراجـع المتاحة لدينا لا تكاد هي الأخرى تنبىء بشيء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أنهت دولة المماليك في مصر والشام، وأنه حضر جنازة طومان باي بعد شنقه كي يوزع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثماني!!!

ولابن زنبل كتاب (تاريخ أخذ مصر من الجراكسة) وهو سجل وافٍ لحوادث الفتح العثماني، من يوم خروج السلطان قنصوه الغوري المملوكي من القاهرة إلى شمال حلب السورية لملاقاة العثمانيين في مرج دابق، إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى استامبول. ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه، ومنذ كتبت نسخة ـ

أو نسخ - شعبية ما برحت تسلية المقاهي بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادي، وترجمة السهيلي (وبالطبع هو غير السهيلي صاحب الروض الأنف والمتوفى ١١٨٥ م) إلى التركية في القرن السابع، ضمن كتاب له اسمه (الدرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة)؛ واعتمد عليه (مارسيل)، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر، في كتابه الذي ألفه في تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال هذا الكتاب مرجعاً من مراجع الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً رديئاً، وربما عني به المعنيون بالتاريخ المصري قريباً، لتكون نسخة منشورة نشراً نهائياً مقارناً يطمئن إليها المؤرخون اطمئناناً علمياً.

ولابن زنبل مؤرخنا عدا ذلك من المؤلفات كتاب في التاريخ باللغة التركية التي كان يتضمنها، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين على أيامه، وكتاب (تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب والغرائب)، وهو في علم الجغرافية، وكتاب (المقالات في حل المشكلات)، وهو في علم الخط والرمل والتنجيم، وكلها مخطوط مهمل إهمالاً تاماً، والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبل أنه بقي حياً يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثماني سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذلك ببلدة أبي قير الحالية قرب مدينة الاسكندرية، وأنه توفي بعد سنة ١٥٥٢ م.

ونحن نعتذر للقارىء فكل ما لدينا من أخبار ابن زنبل الرمال لا يكفي لكتابة ترجمة شافية متصلة بحقائق حياته، تلك الحياة التي كتب لها أن تكون في فترة خطرة وهامة يريد البحث العلمي الجاد فيها المزيد من الوثائق والمصادر التي توضح أحداثها وتجليها.

١٨

ساويرس بن المقفع:
قبطي يؤرخ للخلفاء

لأنه أرخ للإسلام وللحكام المسلمين من خلال حديثه عن الآباء البطاركة اعتبرناه ضمن المؤرخين المسلمين.

ساويرس بن المقفع، صاحب كتاب «سير الآباء البطاركة» أو تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ـ نشره Evetts، في باريس، ١٩٠٧، ١٩١٠، ١٩١٥، ضمن مجموعة Patralogia Orient aus I - V - X.

كان ساويرس أسقفاً للأشمونيين، بين المينا وأسيوط، زمن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (القرن العاشر الميلادي)، مارس مهنة الكتابة لإجادته اللغة العربية، وألف كتباً عديدة تتعلق بالعقيدة الأرثوذكسية، ومنها كتاب السير.

وجمع ساويرس معلوماته وأخباره مما وجده من المخلفات والوثائق القبطية واليونانية إلى العربية، وإنه استعان ببعض المسيحيين ممن لهم دراية باللغتين القبطية واليونانية ـ وقد أتم هذا الكتاب من جاء بعده من الكُتاب والأساقفة وقام Evetts بنشر الكتاب مع ترجمة انجليزية فضلاً عن الحواشي والتعليقات.

والواضح أن الكتاب يتناول تراجم البطاركة في مصر منذ ظهور المسيحية حتى زمن الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٤٩٦ هـ.

واختلطت فيه الحقائق بالأساطير والكرامات والمعجزات. ومع ذلك تظهر أهمية الكتاب التاريخية، فيما أورده من حقائق عن الولاة والأمراء الذين حكموا مصر، حتى زمن الدولة الفاطمية، وما كانت من علاقة البطاركة بهم، وبالنوبة والحبشة وشمال أفريقيا والشام. ويشير أيضاً إلى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين

في مصر، وإلى ما تجدد من الكنائس بمصر، والى التسامح الديني والى ما كان من نظم مالية واقتصادية، والى وضع الأقباط الاجتماعي، والى اعتناق المسيحيين الدين الإسلامي، ويورد أيضاً ما جرى من مساجلات دينية في عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

وعني ساويرس بالتأريخ للاسكندرية، وشرح ما كان لها من أهمية تجارية. وما يجعل لهذا الكتاب أهمية خاصة، ما كان من موقف المسيحيين المصريين من الحركة الصليبية، إذ اعتبروا الصليبيين غزاة للشرق، وأنهم سوف يجدون العناء في الحج إلى بيت المقدس لاختلافهم والصليبيين في المذهب الديني.

وقامت جمعية الآثار القبطية بنشر ما تلى من الأجزاء التي لم ينشرها Evetts فظهر الجزء الأول من المجلد الثاني ١٩٤٣، ثم ظهر المجلد الثاني، الجزء الثاني بالقاهرة ١٩٤٨، ونشر المجلد الثاني، الجزء الثالث ١٩٥٩. ونشرت ترجمة انجليزية مستقلة لكل من هذه الأجزاء.

١٩

سبط ابن الجوزي:
بين الزمان والاعيان

هو يوسف بن قز اوغلي، صاحب كتاب «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» الصادر في حيدر أباد الهندية، ١٣٧٠ ـ ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ م، ويقع في مجلدين.

وهو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز اوغلي، حفيد ابن الجوزي من جهة الأم.

كان أبوه قز اوغلي مملوكاً للوزير ابن هبيرة، الذي أعتقه.

ولد ببغداد سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م، وقام جده على تربيته وتعليمه. ثم أخذ منذ سنة ٦٠٠ هـ يطوف بالبلاد، حتى استقر به المقام في دمشق السورية، فصار يمارس بها مهنة التدريس والخطابة، حتى مات سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٥٧ م.

ومن أشهر مؤلفاته العديدة، كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان الذي يقع في أجزاء، تناول الجزء الأخير منه، الذي طبع في الهند في قسمين، ما وقع من الأحداث بين سنة ٤٩٥، ٦٥٤ هـ. فشمل القسم الأول السنوات من ٤٩٥ هـ حتى ٥٨٩ هـ، وعالج القسم الثاني السنوات من ٥٩٠ هـ حتى ٦٥٤ هـ. ولم يختلف في نهجه عن الطريق الذي سلكه جده. على أن هذه الفترة التي يعالجها هذا الكتاب تعتبر من الفترات الحاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، اذ شهدت نشوب الحروب الصليبية، ولذا ورد في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخين الشرقيين، في الجزء الثالث، كل ما وقع من أحداث في الفترة بين ٤٥٢ هـ ـ ٥٣٢ هـ. واتفق في كثير من الروايات مع ابن الأثير والمؤرخين البيزنطيين.

٢٠

السخاوي:
مؤرخ هوايته المشاكسة!!

عاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصري، وألفوا فيه مؤلفات قيمة، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي والسخاوي، وكلٌّ منهما صاحب ترجمة طويلة لأبي المحاسن تنمّ عن كثير مما قام بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيرة، وحسد أحياناً وسوء دخيلة.

أما السخاوي واسمه أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد. . . السخاوي، نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية، فمولده سنة ١٤٢٧ م، بحارة بهاء الدين لِصْق باب الفتوح القديم بالقاهرة. وعاش جده محمد شيخاً فقيراً صالحاً يتكسب بتجارة يسيرة في سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة، ويكثر من الاختلاف إلى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للإفادة والاعتبار. وكان أبوه عبد الرحمن كذلك في معيشته وتكسبه وغشيانه مجالس رجال الدين، وطابت صلته ببعضهم لعلمهم بتقواه وتصوفه [ترجمة السخاوي في الضوء اللامع (٤/ ١٣٤ ـ ١٣٥)]. ولذا كان معظم شيوخ السخاوي ومعلميه من رجال الدين أصحاب أبيه، ومنهم ابن حجر الذي اختصّ به وأخيه، لسبق الصلة بين والده وابن حجر، وقرب منزله من منزله. ولزم السخاوي ابن حجر أشد الملازمة، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره، وأخذ عنه أكثر تصانيفه في الحديث والتاريخ والتراجم، وهذا فضلاً عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ. وحلا للسخاوي أن يعد هذه المقروءات والمسموعات وأصحابها، عداً دقيقاً في ترجمته لنفسه في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، وهي ترجمة إضافية في ثلاثين صفحة كاملة، وليس

في كتابه كله ترجمة تشبهها أو تقرب منها في السعة والإفاضة «والتمدح» بأقوال المعجبين به من المعاصرين.

وعرف السخاوي عند بعض «أناس مخصوصين» باسم ابن البارد، وهي تسمية اشتهر بها جده وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماماً، لعله فيما يخص السخاوي على الأقل أنه كان عظيماً عند نفسه إلى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد، ورماهم في غير واحد من مؤلفاته بالقصور وضعف الرواية والبيان. ومع هذا فالسخاوي نشأ وعاش متمتعاً برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته، وبادل الشيخُ تلميذه حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص، فصار يرسل إليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره في بيته ليقرأ عليه، بل قال فيه، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره: «إنه مع صغر سنه، وقرب أخذه، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده، وتحريه وانتقاده». (السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٣٠).

وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه في حفل عرس السخاوي سنة ١٤٤٤ م، وجهد في توظيفه بوظائف تدريس الحديث التي أهله لها أحسن تأهيل.

ثم توفي ابن حجر سنة ١٤٤٩ م، فعزم السخاوي على الرحيل عن مصر إلى الشام، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هناك. غير أن أبويه ثنياه عن عزمه هذا، فظلَّ بمصر مواصلاً دراسة الحديث، وطفق يتنقل في سبيل ذلك بين المدن الكبرى كدمياط ومنوف والمحلة الكبرى وسمنود والإسكندرية وغيرها. واجتهد السخاوي أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث بالقاهرة، مستعيناً بأصدقاء أستاذه الراحل. ثم انتهى به الأمر إلى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢ هـ. فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها، وزار المدينة. وتنقل السخاوي ١٤٥٣ م بعد ذلك بين مصر والشام والحجاز، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م، وحرص على الإقامة بمكة مدة إثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحياناً لتدريس الحديث بمدارس القاهرة، ودأب أثناء ذلك كله على التأليف في الحديث والتاريخ.

واتصل السخاوي بالأمير يشبك بن مهدي كاشف الوجه القبلي على عهد السلطان خشقدم، ويشبك هذا هو صاحب الدوادارية الكبرى زمن السلطان قايتباي.

وكان يشبك أعظم شخصية في الدولة المملوكية مدَّة حكم قايتباي، وبيده فوق وظيفته الكبرى خمس وظائف أخرى، مع ما يتعلق بها من أوقاف وأملاك ومدارس ومحسوبية، ومن ذلك تعيينه السخاوي على إحدى وظائف تدريس الحديث التي تعب قبلاً في الحصول على مثلها أيما تعب، وسعيه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون مقرئاً للحديث بعد إمام السلطان. ومع هذا شاء السخاوي أن يذكر صلته بذلك الأمير الكبير في عبارة كلها كبرياء وترفع، وأن يقرر أن يشبك سأله في المبيت عند السلطان خشقدم ليلتين في الأسبوع، ليقرأ له نخباً من التاريخ، كما فعل العيني مع السلطان برسباي، فتنصل وأبى، وأن يشبك التمس منه أن يحضر إليه ليقرأ له تصانيفه، فامتنع كذلك السخاوي: الضوء اللامع، ٨/٣١. وهذا نص عبارة السخاوي في ترجمته لهذا الأمير البذول المحسن: «وقد تكرر اجتماعي به، وكان حريصاً على ذلك، بحيث رغب في تحصيل أشياء من تصانيفي، وأسمع بعض أولاده مني بحضرته [كتاب] المسلسل [في الحديث]، ولو وافقته على مزيد الاجتماع به لتزايد إقباله، ولكن الخيرة فيما قدِّر (السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤).

وعُني السخاوي بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى في أربع صفحات من ترجمته لنفسه (راجع السخاوي في الضوء اللامع ٨/ ١٥ ـ ١٩ حيث توجد قائمة طويلة بأسماء كتب السخاوي ومقالاته ورسائله، وهي جديرة ببحث الباحثين والعمل على اعمال الاستقصاء في طياتها من أهل الرغبة في إحياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم، ومنها في التاريخ كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك، في أربعة أجزاء (هذا الكتاب طبع في القاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبدأ من سنة ٨٤٥ هـ، وتنتهي سنة ٨٥٧ هـ، مع أنه كان يشتمل على أحداث حتى أواخر القرن التاسع الهجري على حد قول السخاوي نفسه، هذا فضلاً عن إشارات المعاصرين بصدده، وهو كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقريزي المشهور، وكان تأليفه إياه إجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدوادارية الكبرى، أي أن السخاوي كتبه زمن السلطان قايتباي. ويظهر أن السخاوي شُغِف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها، إذ ألّف كتاباً وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام تكملة لكتاب الذهبي المؤرخ، وكَتَب الذيل المتناهي تكملة لتأليف ابن حجر في قضاة مصر، كما

ألّف الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزري، أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ مكة للفاسي، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكره، ولعله الفاسي كذلك.

وللسخاوي في التاريخ كذلك كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ، وهو مقالة طويلة في قواعد الجرح والتعديل (historiography) عند المؤرخين، وبه صفحات ضافية في تاريخ التاريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول. وله في التراجم كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، والجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر، والقول المنبي في ترجمة ابن عربي، وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والفروع، ولا سيما الحديث.

على أنه لا بد هنا من التعريف بكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، إذ هو معجم زاخر في اثني عشر جزءاً مطبوعة، للنساء المسلمات منها جزء بتمامه. وهذا الكتاب فخر مؤلفات السخاوي ولا ريب، برغم ما ابتلي به مؤلفه من تصغير الكبير وتحقير الصغير ممن ترجم لهم، حتى أبسل نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين، ومن ذلك قول ابن إياس فيه بأنه «ألف تاريخاً فيه كثير من المساوىء في حق الناس(ابن إياس: بدائع الزهور - ٢/٣٢٢) وقول قرينه السيوطي مستفهماً مستنكراً: «ما ترون في رجل ألّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً، ونصب لأكل لحومهم خواناً، ملأه بذكر المساوىء وثلب الأعراض، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه، ولم يفرّق بين جليل وحقير...» (راجع السيوطي في كتابه: الكاوي على السخاوي. (مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم ١٥١٠ أدب) واشتدَّت الخصومة بين السيوطي والسخاوي مدة، واضطرم الجدل بينهما حيناً، فرشق كل منهما صاحبه بأنواع التهم، حتى حال بينهما الموت، إذ توفي السخاوي بالمدينة سنة ١٤٩٧ م، وبقي السيوطي بعده تسع سنين.(*)

(*) راجع: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القرن التاسع الهجري / للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٤ الصفحات ٤١ إلى ٤٥.

٢١

سعيد بن بطريق:
طبيب يكتب التاريخ

هو طبيب بارع ومؤرخ من أهل مصر، كان مولده بالفسطاط سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م وصار بطريركاً للاسكندرية سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م، واتخذ لقب Outoquious وهو تحريف للفظة Euty chius، وهو الذي أطلق اسم اليعاقبة على السريان الذين اتبعوا تعاليم يعقوب البرادعي المتوفى سنة ٥٧٨ م. واستمر في بطريركية الاسكندرية سبع سنوات، ومات سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م.

وبرع سعيد بن البطريق في كل ما أتقنه النصارى من العلوم، وكان عالماً بأمور دينهم، وألف كتاباً في الطب، غير أن شهرته ترجع إلى مؤلفاته في التاريخ، ومنها نظم الجوهر في التاريخ، والجدل بين المخالف والنصراني.

وتناول في كتابه الذي أهداه إلى أخيه عيسى، وعالج فيه تواريخ المسيحيين وأعيادهم منذ الخليقة إلى سني الهجرة الإسلامية، وجمعه من التوراة والإنجيل وباقي الكتب القديمة والمحدثة، كيما يفيد منه شباب المسيحيين.

وأورد فيه قصص أنبياء اليهود، وملوك الفرس واليونان والرومان، وتناول ظهور المسيحية، وما تفرع عنها من مذاهب دينية مختلفة، والمجامع الدينية وقراراتها، وشرح ما كان من الاختلاف بين المسيحيين في المسيح، والطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية في المسيح.

وواضح أن سعيد بن البطريق صاحب كتاب «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» يتمتع بثقافة إسلامية عالية ويتمتع بحيدة نادرة.

ويسمى البعض «سعيد»، البطريرك: افتيشيوس، وقد نشر كتابه لويس شيخو، في بيروت، سنة ١٩٠٥ م، في مجلدين.

وهو من منشورات:

Carpus Scriptareum Chistian - arum Ouentrlium Scriptares Arabici Textus Series Tertia.

- Tomus VI.

وعنوان الكتاب في هذه السلسلة ما يأتي:

Eutychu patriarcgal Alexandrini Annales Edidit L. cheikho, Beryti 1906.

٢٢

السيوطي:
موسوعي ظلموه حيا وميتا!!

السيوطي صاحب الأخبار الطوال من أشتات العلوم في عصره، فإنه لم يترك ميدانا من ميادين المعرفة دون أن يجري فيه قلمه، وهذا فضلاً عن تدخله في بعض المسائل العامة في عصره.

كان مولد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطي، سنة ١٤٤٥ م بالقاهرة، من أسرة ينتهي أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيري ـ نسبة إلى محلة الخضيرية ببغداد ويظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك، على الرغم من أن السيوطي نفسه في كتابه حسن المحاضرة (١/١٥٥) هو الذي رجحها. ذلك أنه كان بأسيوط وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطي، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن، لا سيما أنه جهد في أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك إنه أنصاري جعفري الأرومة، وإن جده من أم شريفة النسب.

على كل جاء هذا الشيخ إلى أسيوط من بغداد، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً، وأقامت أسرته بها جيلاً بعد جيل، وأخرجت رجالاً نابهين في المجتمع الأسيوطي في العصور الوسطى؛ فمنهم نائب الحكم (القاضي)، والمحتسب، والتاجر، والمتمول الخير؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصري إبان قيامه على إخماد ثورة الأحدب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م، في عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين باسمه بسويقه (منعم) فيما بين الصليبة والرميلة بالقاهرة الحالية كما نقرأ عند المقريزي في المواعظ والاعتبار (١/٣١٣)، وفي حسن المحاضرة للسيوطي (١/١٥٥).

أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطي فهو آخر من أقام من تلك الأسرة بأسيوط، انقطع من دون رجالها جميعاً لطلب العلم والتعليم، ورحل من أجل ذلك في حداثته إلى القاهرة، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمير شيخو، فتولى درس الفقه بالجامع الشيخوني، وخطب بجامع ابن طولون، وألف كثيراً في الفقه والنحو، وتوفي في عشر الخمسين، سنة ١٤٥١ م، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين.

لقد ترجم السيوطي لأبيه في حسن المحاضرة (١/١٥٥، ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، وفي بغية الوعاة (٢٠٦ ـ ٢٠٧). والسيوطي نفسه غني بمترجميه المعاصرين والمتأخرين والمحدثين، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية في حسن المحاضرة (١/١٥٥ ـ ١٦١)، ترجمة كل من السخاوي والشعراني والغزي، والبوريني وابن العماد الحنبلي وابن إياس، وعلي (باشا) مبارك، ودائرة المعارف الإسلامية وفيليب حتي. ويوجد في ابن طولون الدمشقي (الفلك المشحون، ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطي في كتابه بغية الوعاة، غير أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له البتة. وذكر اليمني (السنا الباهر، ص ٧٧) أن للسيوطي كذلك ترجمة ذاتية ثالثة في كتاب له اسمه (التحدث بنعمة الله تعالى)، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى بقلم تلميذيه الشاذلي والداودي.

وكانت والدة عبد الرحمن أم ولد تركية، أنجبته وأبوه بالغ في السن مبلغ النضج، فجاء عبد الرحمن ناضجاً من يومه، على قول علماء الأجناس. وكأنما توسم فيه والده شيئاً من ذلك، إذ قرت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على الخمسين، فعني بتعليمه أشد عناية، وحفظه جزءاً كبيراً من القرآن، واستصحبه أكثر من مرة إلى مجلس ابن حجر في الحديث. وغدا عبد الرحمن محظوظاً كذلك في أوصيائه، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم، ونجحوا في تقريره على وظيفة الجامع الشيخوني بعد وفاة أبيه، ولذا نشأ يتيماً ناعم البال. واستطاع السيوطي أن يختم القرآن، وهو دون الثامنة من عمره فدل بذلك على ذاكرة قوية واعية حافظة.

ويقال: إنه وصل في حفظ القرآن آنذاك إلى سورة التحريم وأكمله في سن الثامنة من عمره، ويبدأ السيوطي رحلة الدرس العلمي لفقه الشافعي على يد علم الدين البلقيني الذي لازمه حتى توفي فلزم بعده ولده ولازم الشيخ شرف الدين

المناوي ودرس عليه علوم الدين واللغة العربية. كما لازم محيي الدين الكافيجي (ت ٨٨٩ هـ) وقرأ على الشيخ شمس الدين محمد بن موسى صحيح مسلم إلا قليلاً والشفاء وغيرهما ولازم تقي الدين الشُمني الحنفي (ت ٨٧٢ هـ) أربع سنوات فدرس عليه الحديث واللغة العربية.

ورحل السيوطي في طلب المزيد من العلم بعد أن أخذ عن أهل بلده كعادة المحدثين في طلب الرواية وعلو الإسناد للمزيد من العلم والمعرفة فرحل إلى الشام واليمن والهند والمغرب وغيرها من أقطار العالم الإسلامي وبلاد التكرور أما الحجاز فقد تكررت رحلته إليه مرات للحج وطلب العلم والمزيد من الالتقاء بالمشايخ. ولم يقتصر على أخذ معلم من الكتب بل أخذ عن علماء عصره بالقراءة والإجازة والمكاتبة وغيرها وعلل قلة شيوخه بانصرافه إلى الدراية.

لقد بلغ السيوطي منزلة رفيعة وجمعت لديه أنواع من الكتب والمؤلفات فكان واسع الاطلاع حتى لقب بابن الكتب كما يقول صاحب شذرات الذهب (٨/٥٣). ويقال: إنه ورث عن أبيه مكتبة زاخرة بالمصنفات وتردد على المكتبة المحمودية التي كانت أضخم مكتبة في القاهرة المملوكية آنذاك والتي تضم أنفس الكتب.

وبدأ مرحلة التدريس والتأليف في سن باكرة سنة (٨٦٦ هـ) وسنه سبع عشرة سنة. وشهد له منافسوه بالسبق والتقدم فقد حرر الكتب والمسائل في مختلف العلوم وقل أن تجد فناً وإلا وله فيه كتاب ضخم أو رسالة أو جزء وقد قال السيوطي عن نفسه في حسن المحاضرة (١/٣٣٩): لو شئت أن أكتب في كل مسألة ما قيل فيها من الخلاف وذكر الأدلة والقياس وغير ذلك لقدرت من فضل الله.

ومن تلاميذه: محمد بن علي الداودي (ت ٩٤٥ هـ) صاحب طبقات المفسرين، وزين الدين أبو حفص عمر بن أحمد الشماع محدث حلب المتوفى (٩٣٦ هـ) صاحب الكواكب النيرات في الأربعين البلدانيات، ومحمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠ هـ)، صاحب بدائع الزهور، ومحمد بن يوسف الشامي الصالحي المصري، وابن طولون محمد بن علي بن أحمد (٩٥٣ هـ)، والشعراني عبد الوهاب ابن أحمد (٩٧٣ هـ).

لقد عني السيوطي عناية كبيرة بعلم الحديث دراية ورواية في مختلف مجالاته،

واحتل منزلة عالية في علم الحديث. وكان من أعلم أهل زمانه بالحديث رجالاً ومتوناً ولغة وفقهاً واستنباطاً للأحكام. كما أملى الحديث في مجالس شتى فأحيا هذه المجالس بعد أن تهيب منها محدثو عصره وأحجموا عنها فكان حافظاً وإماماً في الحديث بعد ابن حجر العسقلاني.

ولو لم يكن له إلا كتابه (جمع الجوامع) لكفاه شرفاً وفخراً لما فيه من جمع للسنة وتنسيقها لم يعهد لأحد قبله من نظمه وشكله وإن كان مسبوقاً بمجالات بذلت في جمع السنة.

ومن مؤلفاته: الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة (ط)، وألفية الحديث (ط)، والبحر الذي زخر في شرح نظم الدرر في علم الأثر (خ)، بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد (لم يتمه)، تدريب الراوي شرح تقريب النووي (ط)، التعقبات على الموضوع (ط)، التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح (ط)، تنوير الحوالك على موطأ مالك (ط)، الجامع الصغير (ط)، الجامع الكبير وهو جمع الجوامع (جار طبعه)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (ط)، الحاوي في الفتاوي (ط)، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ط)، الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير (ط)، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (ط)، ذيل طبقات الحفاظ للذهبي (ط)، ذيل اللآلىء (ط)، زهر الربى على المجتبى (ط)، زيادة الجامع الصغير (ط)، سهام الإصابة في الدعوات المستجابة (ط)، طبقات الحفاظ (ط)، عقود الزبرجد على مسند أحمد (ط)، عمل اليوم والليلة (ط)، عين الإصابة في معرفة الصحابة (خ)، فض الوعاء في أحاديث رفع اليدين في الدعاء (خ)، فصل الشتاء (خ)، قطف الثمر في مواصفات عمر رضي الله عنه (ط)، قوت المغتذي على جامع الترمذي (ط)، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (ط)، اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (ط)، لب اللباب في تحرير الأنساب (ط)، اللمع في أسباب ورود الحديث (ط)، اللمعة في خصائص الجمعة (ط)، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون (خ)، مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة (ط)، مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة (ط)، مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (ط)، المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي (ط)، نظم العقيان في أعيان الأعيان (ط).

ومن مؤلفاته أيضاً: شرح الاستعانة والبسملة تكملة تفسير القرآن ـ المهتدين من نصرة المجتهدين ـ الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ـ التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ـ الكشف على مجاوزة هذه الأمة الألف ـ تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك ـ قمع المعارض في نصرة ابن الفارض ـ الشماريخ في علم التاريخ ـ تأخير الظلامة إلى يوم القيامة ـ بغية الوعاة في طبقات النحاة. . . إلى آخر ما لا يتسع المقام لذكره في هذه الترجمة الموجزة.

إن السيوطي ظاهرة علمية فكرية أدبية متميزة بين أقرانه من أعلام القرنين التاسع والعاشر الهجريين من حيث تنوع ثقافته وسخاء عطائه ووفرة كتبه ونفاسة محتواها.

لم يكن طموح السيوطي دعوى بلا برهان، فقد ألف وأجاد وهو صغير السن إذ ألف كتابه «التحبير في علوم التفسير» وسنه ثلاثة وعشرون عاماً.

ولقد عد السيوطي في مقدمة كتابه «حسن المحاضرة» مؤلفاته فبلغ بها ثلاثمائة كتاب في التفسير والحديث والقراءات، والفقه، والتراجم، والنحو، والآداب، والأجزاء المفردة ـ وقد بلغ «بروكلمان» بكتبه أربعمائة وخمسة عشر كتاباً، وسجل له جميل العظم عدداً ضخماً من الكتب، ولكن ابن إياس أبلغ كتبه إلى ستمائة كتاب.

والمعروف أن عدداً من علماء عصر السيوطي هاجموه ومنهم: السخاوي وابن الكركي، وابن الغليف، والقسطلاني، ورماه هؤلاء بالسطو على كتب المكتبة المحمودية ونسبتها إلى نفسه بعد التصرف فيها بالتقديم والتأخير.

وقد رد السيوطي على هؤلاء رداً عنيفاً، فكتب في ذلك كتباً منها: «الكاوي على تاريخ السخاوي»، و«الجواب الزكي على قمامة ابن الكركي»، و«القول المجمل في الرد على المهمل». ولئن صح جدلاً أنه سطا على كتب غيره ونقل منها، فقد أحيا لنا تراثاً مفقوداً تماماً بما أوقفنا عليه من نقول هائلة من تلك الكتب، فله الفضل على أي حال.

ولقد أثنى العلماء على السيوطي ومنهم الشيخ عبد القادر الشاذلي الذي وصفه

بأنه كان مجبولا على الخصال الحميدة في العلم والعمل، لا يتردد إلى أحد من الأمراء والملوك ولا غيرهم مدة حياته، وأنه كان يظهر كل ما أنعم الله عليه به من العلوم والأخلاق، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه... وامتحن الشيخ المحسن الكثيرة، وما سمع يوماً يدعو على من آذاه من الحسدة، ولا يقابله بسوء.

ويقول الداودي أنه رآه وقد كتب في يوم واحد ثلاث كراريس تأليفاً وتحريراً، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة من غير تكلف. ويصفه الشعراني بأن له مناقب كثيرة ومشهورة، ولو لم يكن له من الكرامات الا إقبال الناس عليه في سائر الأقطار، وعلى كتبه ومؤلفاته ومطالعتها لكان ذلك كفاية لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف.

ويقول الشوكاني: إن مؤلفات السيوطي انتشرت في الأقطار، وسارت بها الركبان، ورفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، والعاقبة للمتقين. وقال ابن العماد: هو المسند المحقق المدقق صاحب المؤلفات الفائقة النافعة، وشهرتها تغني عن ذكره، وقد اشتهر أكثر مؤلفاته في حياته في أقطار الأرض شرقاً وغرباً، وكان آية كبرى في سرعة التأليف.

ولنا بعد ذلك أن نضع الرجل في الميزان، لنجد قمة من شوامخ العلم والحفظ، وتنوع الثقافة، والإجادة في الكثير جداً من الكتب، فنحن أمام قمة كـ «الدر المنثور» و «المزهر في اللغة» و «تاريخ الخلفاء» ومؤلفاته الجامعة «البدور السافرة في أحوال الآخرة» و «الجامع الكبير»، وعشرات من أمثالها، إننا أمام رجل إذا وزعت كتبه ـ التي لا زال العديد منها مخطوطاً ـ على سني عمره، ثم أيامها، لضاقتها رجل أغرق حياته كلها في التصنيف على صورة تعد من أعاجيب الزمان التي كان في عصره نماذج منها كابن حجر العسقلاني والعيني، وقبل عصره أمثلة لها كابن الجوزي، وابن القيم.

وأخيراً فمهما كان الأمر ـ سلباً أو إيجاباً ـ فإن السيوطي يفيض علمه، ووفرة فضله، وعميق تقواه، وتنوع ثقافته، ونفاسة تآليفه إذا لم يكن الإمام الذي ارتجاه لنفسه على رأس المائة التاسعة، فهو بغير شك إمام كبير من أئمة المسلمين، وعالم مرموق من علمائهم على مر الزمان وتعاقب السنين.

خاتمة

والسيوطي كما أشرنا يعتبر من أغزر المؤلفين المصريين كتابة في العصر المملوكي وفي الآداب العربية ـ وهو ينحدر كما قلنا من أسرة فارسية استقرت بأسيوط في صعيد مصر منذ زمن بعيد، وولي السيوطي وظائف عديدة.

وما كان للسيوطي من نشاط أدبي، بدأه في سن باكرة في السابعة عشرة من عمره، وامتاز بالوفرة والتنوع، إذ أن مؤلفاته بلغت نحو ٥٦١، غير أنها شملت إلى جانب الكتب الهامة، رسائل قصيرة. وما صنفه من كتب تعتبر في الوقت الحاضر بالغة الأهمية، لما زخرت به من المادة، ولما انطوت عليه من اقتباسات من كتب كثيرة مفقودة. ومن أشهر ما كتبه في التاريخ، كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. تناول في الجزء الأول منه ما ورد عن مصر في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وعند المؤلفين القدامى، وتاريخ مصر منذ الخليفة، وما بها من عجائب، ثم ما كان من فتوح مصر، وما أقامه المسلمون من منشآت. ثم أشار إلى ما كان بمصر من طبقات الفقهاء والمحدثين والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة والحكماء والأطباء والمنجمين والقصاص والمؤرخين والأدباء.

وعالج في الجزء الثاني أخبار أمراء مصر حتى زمن الفاطميين، ثم أورد باختصار تاريخ الدولتين الفاطمية والأيوبية، وأشار إلى انتقال الخلافة العباسية إلى مصر المملوكية، والى ما كان للسلاطين المماليك من نظم ورسوم وتقاليد، ووصف معالم مصر في زمنه، كالجوامع والمدارس، وفيضان النيل، وما كان بمصر من أشجار ونباتات وخضروات. يضاف إلى ذلك اهتمامه بفئات القضاة على اختلاف مذاهبهم.

ولهذا الكتاب طبعة بالحجر صدرت في القاهرة ١٨٦٠ م، وعن هذه الطبعة جرى نشره ١٢٩٩، ١٣٢١ هـ بالقاهرة.

٢٣

أبو شامة:
صلاح الدين ما قبل وما بعد

اسمه شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي.

وهو صاحب «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» - والمطبوع في القاهرة في مجلدين ١٢٨٧ هـ - ١٢٨٨ هـ كان مولد أبي شامة في دمشق السورية ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م، ونشأ بها وتربى فيها، ولم يبرحها إلا للحج وزيارة بيت المقدس المشرف والاستماع إلى علماء مصر المحروسة في دمياط والقاهرة والاسكندرية. وبعد أن فرغ من دراسته الدينية التي شملت، القرآن والفقه والحديث واللغة العربية، ثم انصرف إلى دراسة التاريخ.

وقد عاش مؤرخنا في الفترة التي تلت وفاة الناصر صلاح الدين، والتي سادت فيها الاضطرابات والفتن، التي كادت تقضي على الوحدة الشاملة لعالمنا الإسلامي، عزم أبو شامة على أن يفرد، ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين، بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك المسلك.

تناول أبو شامة الفترة التي تستغرق حكم أبطال الوحدة الإسلامية، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين. وتحدث المؤلف عن تنقلات الجيوش ووصف الأسلحة، والعدالة بين الناس، والمدارس، فضلاً على القرارات والمنشورات والرسائل التي يعزز بها كتاباته.

وجرى الكتاب على نظام الحوليات في الفترة الممتدة من سنة ٥٤٢ هـ إلى سنة ٥٨٩ هـ، أي مدة حكم نور الدين والناصر صلاح الدين الأيوبي.

ويعتبر الكتاب سجلاً حافلاً لتاريخ الدولتين من الجانب الحكومي، حرباً

وسياسة وإدارة، فضلاً عن الجانب الشعبي، الذي يتمثل في تأييد العلماء ورجال الأدب والشعر.

ونظراً لما كان من اتصال سياسي وحربي أثناء تلك الفترة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، لقي الكتاب اهتماماً كبيراً من العلماء الأجانب، فظهر سنة ١٨٧٩ م ترجمة ألمانية لبعض أجزاء الجزء الثاني من الكتاب، قام بها (Georgens) ولم يهتم فيها إلا بما يتصل بالحروب الصليبية مع ترجمة باللغة الفرنسية، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخين الشرقيين الجزء الرابع.

وقد قام أستاذي المرحوم محمد حلمي أحمد بنشر الجزء الأول من كتاب أبي شامة وصدر في القاهرة، ١٩٥٦.

ثم قام بتحقيق الجزء الثاني والذي انتهى فيه إلى أحداث ٥٥٧ هـ.

وكل ما نتمناه في هذا المقام أن يعاد طبع هذا الجهد العلمي الرائع الذي قام به أستاذنا الدكتور حلمي لتعم به الفائدة جل أهل البحث التاريخي.

٢٤

ابن شداد: والنوادر السلطانية

اسمه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع.

وهو صاحب كتاب «سيرة صلاح الدين الأيوبي» والذي يعرفه أهل البحث التاريخي باسم «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

وطبعة الكتاب التي أمامي الآن مذيلة بمنتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة، لتاج الدين شاهنشاه بن أيوب. وهذه الطبعة التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٣١٧ هـ بالقاهرة هي أول طبعات الكتاب العربية.

وابن شداد من مؤرخي التراجم. كان مولده بالموصل العراقية ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م، وتعلم بها وببغداد، وتولى التدريس في الموصل سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب، وذاع صيته.

ولما اشتهر به من رجاحة العقل وسداد الحكم، عهد إليه أتابك الموصل بالسفارة في أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية، لما وقع من نزاع حاد بين صلاح الدين وأمير الموصل، أثناء قيام صلاح الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية، أدى إلى التهديد بالاستيلاء على الموصل، فكان لزاماً على أمير الموصل التماس الوسطاء لتسوية هذا النزاع، وكان ابن شداد من بين هؤلاء الوسطاء، فعرف صلاح الدين عن كثب.

ويشير ابن شداد إلى أن ثبت في نفس صلاح الدين، في تلك الدفعة (٥٧٩ هـ / ١١٨٤ م) من أمر أمره، ما لم أعرفه إلى بعد خدمتي معه.

ودخل في خدمة صلاح الدين ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ومنذئذ لم يفارق ابن شداد

صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار، حتى حضر وفاته سنة ١١٩٣ م.

وواضح أن ابن شداد بذل محاولات عديدة للتوفيق بين الأمراء الأيوبيين في مصر والشام.

وتولى قضاء حلب السورية، وما حدث في حلب من اضطراب الأمور اضطر ابن شداد على أن يلزم داره، وأن يسمع الحديث لمن يقصده من المريدين، ونشطت في زمنه حركة الدراسة والعلم بفضل ما أنشأه من مدارس، وبفضل مركزه الديني والسياسي. ومات سنة ٦٣٢ هـ بحلب ودفن بها.

وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد فيما وقع من أحداث، وملازمة صلاح الدين وأولاده، واتصاله بالعلماء والفقهاء، وقيامه بالسفارة بين الأمراء، وتوليه مناصب رئيسة في الدولة، وكل ذلك يؤلف مادة تاريخية وفيرة، فإن ابن شداد لم يؤلف لنا في التاريخ الا كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الذي يعتبر ترجمة لصلاح الدين، التزم فيه الأسلوب السهل والعبارة المحددة، ولم يلجأ إلى التعقيد والاسترسال مثلما فعل العماد الأصفهاني.

اعتمد ابن شداد فيما أورده عن الأحداث السابقة على دخوله في خدمة صلاح الدين، على ما توافر لديه بعد ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م من أخبار ومؤلفات تاريخية.

أما القسم الثاني من الكتاب فيعتبر أعظم شأناً من الناحية التاريخية، لأنه يتضمن مشاهدات المؤلف ومعاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث.

ولم يكتف ابن شداد في الفترة بين ١١٨٨ و١١٩٣ م بأن يعرض سجلاً أمنياً لما شهده من أحداث، بل إنه بفضل مكانته باعتباره صديقاً للناصر صلاح الدين الأيوبي وملازماً له في كل تحركاته حتى يوم رحيله الى العالم الآخر، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في إدراك الحوافز، التي اثارت صلاح الدين في كثير من القرارات الخطيرة.

على أن ما اورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين ١١٦٩ و١١٨٨م يعتبر مصدراً ثانوياً للغاية، ولم يكن بنجوة من الخطأ في تفاصيل الحقيقة والتاريخ.

ونشر هذا الكتاب لأول مرة Schultens في ليدن الهولندية ١٧٣٢ ـ ١٧٥٥ م، كما ترجمه إلى الانجليزية الأستاذ كوندر Conder سنة ١٨٩٧ م، في مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين تحت عنوان «The life saladin».

ونشر أيضاً في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخين الشرقيين، الجزء الثالث.

هذا، وقد ظهرت طبعة جديدة لكتاب النوادر السلطانية، قام على تحقيقها ونشرها أستاذنا الدكتور جمال الدين الشيال. وصدرت في القاهرة، ١٩٦٥ م.

٢٥

الشيزري: قاض يؤرخ للاحتساب!

عبد الرحمن بن نصر الشيزري. صاحب كتاب: «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» والذي نشره السيد الباز العريني. القاهرة، ١٩٤٦ م.

نشأ الشيزري بالشام، وتربى بها، وتولى وظيفة القضاء في طبرية، ولعله كان يجمع إلى جانب عمله بالقضاء، مباشرته لوظيفة المحتسب، ومات الشيزري حوالي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م، وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين.

والواضح أن الشيزري كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي، إذ أهدى إليه كتابه «النهج المسلوك في سياسة الملوك»، ولعله وضع كتابه في الحسبة بناء على طلب صلاح الدين، لمساعدة الحكومة الأيوبية في مراقبة أرباب الحرف والصنائع، لما كان معروفاً من ميولهم للدولة الفاطمية، والاهتمام بملاحظة أهل الذمة وحركات الباطنية.

وربما كانت علة هذا الاهتمام أن عصر المؤلف، وهو القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كان عصر إحياء السنة، وقد تخللته المنازعات بين أهل السنة والشيعة في كثير من جهات العالم الإسلامي، يضاف إلى ذلك أن ما جرى أثناءه من نشوب الحروب الصليبية، أثار الارتياب في موقف الذميين في البلاد الإسلامية، والخوف من ممالأتهم للصليبيين، ولا سيما أن أرباب الحرف والصنائع، كان أكثرهم من أهل الذمة.

وتستند أهمية الكتاب أيضاً إلى إسهاب مؤلفه في بيان ما ينبغي للمحتسب أن يتحلى به من صفات، ويقوم عليه من مراقبة السوق والسوقة، وكشف ما يلجأون إليه من أنواع الغشوش، والتعرف إلى ما كان مستخدماً في مصر والشام من أنواع النقود

والموازين والمكاييل. وإذ حرص المؤلف على أن يكون كتابه دليلاً لمن يتولى وظيفة المحتسب، تناول في دراسته، شرح ما يتصل بحياة المجتمع العربي وقتذاك من الحرف الأساسية، والوسائل التي يتخذها لضبط أرباب هذه الحرف، يضاف إلى ذلك ما كان لهذه الوظيفة من أهمية، اذ استطاع متوليها أن يسيطر في اليوم الواحد بمساعدة عيونه وغلمانه وأعوانه، على ما تقوم به عدة إدارات وزارية في العصر الحاضر.

وليس خافياً أن هذه الوظيفة، انتقلت، باسمها أيضاً، إلى الإمارات الصليبية، وصار متوليها يباشر جميع اختصاصات المحتسب في الدولة الإسلامية.

٢٦

الصفدي:
مؤرخ صناعته الأدب

صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعي الإمام الأديب الناظم الناثر أديب العصر. قرأ يسيراً من الفقه والأصلين وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً وعني بالحديث ولازم ابن سيد الناس وبه تمهر في الأدب وصنف الكثير في التاريخ والأدب. قال لي: إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً. وكانت بيني وبينه صداقة منذ كنت صغيراً فإنه كان يتردد إلى والدي فصحبته ولم يزل مصباحاً إلى أن قضى نحبه وكنت قد ساعدته في آخر عمره فولي كتابة الدست بدمشق. ثم ساعدته فولي كتابة السر بحلب. ثم ساعدته فحضر إلى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست إلى أن مات بالطاعون ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ وكان له همة عالية في التحصيل (تاج الدين السبكي) وفي طبقات الأسدي: وقفت على ترجمة كتبها لنفسه نحو كراسين ذكر فيها مشايخه وأسماء مصنفاته وهي نحو الخمسين منها ما أكمل ومنها ما لم يكمله. وقال وكتبت بخطي ما يقارب خمسمائة مجلد. قال ولعل الذي كتبته في ديوان الإنشا ضعفا ذلك. ا هـ.

ومن مصنفات صلاح الدين الصفدي غير المطبوعة الوافي بالوفيات وهو من أكبر المعاجم في تراجم الأعيان منه قسم في دار الكتب السلطانية وآخر في الخزانة التيمورية وأكثر أجزائه في مكاتب أوروبا والقسطنطينية وكتاب التذكرة الصلاحية وهو مطول في الأدب والشعر ونصرة السائر على المثل السائر وتشنيف السمع في انسكاب الدمع وأعيان العصر وأعوان النصر وألحان السواجع بين البوادي والمراجع والتنبيه على التنبيه وكشف الحال في وصف الخال وفض الختام عن التورية والاستخدام وخلو المذاكرة والروض الباسم وغير ذلك وكانت وفاته بدمشق الشام.

ومن مؤلفاته :

١ ـ الأرب من غيث الأدب .

٢ ـ تشنيف السمع بانسكاب الدمع .

٣ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون .

٤ ـ جنان الجناس ـ في علم البديع .

٥ ـ دمعة الباكي ولوعة الشاكي .

٦ ـ الغيث المنسجم في شرح لامية العجم .

٧ ـ قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة .

٨ ـ لوعة الشاكي ودمعة الباكي .

٩ ـ مقدمة الوافي بالوفيات .

١٠ ـ نكت الهميان في نكت العميان .

٢٧

ابن الصيرفي:
التاجر الذي أصبح مؤرخا

عاصر أبا المحاسن (ابن تغري بردى) اثنان ممن اشتغلوا بالتاريخ المصري والكتابة، وألفوا فيه مؤلفات قيمة، وهما بحسب الترتيب الزمني ابن الصيرفي والسخاوي، كلٌّ منهما صاحب ترجمة طويلة لأبي المحاسن تنم عن كثير مما قام بين مؤرخي ذلك القرن كله من تنافس وغيرة، وحسد أحياناً وسوء دخيلة.

وكان ابن الصيرفي أكبر الرجلين عُمْراً، وإن بدا أقلهما شهرة وتراثاً في التأليف، واسمه نور الدين علي بن داود الصيرفي الخطيب الجوهري الإسرائيلي الحنفي. وعُرف بين معاصريه باسم ابن الصيرفي ـ وابن داود كذلك. وكان مولده بالقاهرة سنة ١٤١٦ م، أي اثنتي عشرة سنة قبل ميلاد السخاوي، وأبوه داود صيرفيّ بدواوين الدولة المملوكية في عهد سلطان لم تعينه المراجع التي بأيدينا حتى الآن، وتوفي داود هذا السنة ١٤٤٩ م.

نشأ ابن الصيرفي في كنف والده، وتعلم تعلماً يسيراً، كما يفهم من ترجمة السخاوي الذي ترجم للرجل ولأبيه وجده ترجمة، وهي العمدة الوحيدة لنا في هذه السطور (الضوء اللامع للسخاوي)، مع أنه تتلمذ لابن حجر العسقلاني، ولازم مجلسه في الإملاء وغيره، وتحرّص الركوب في خدمته، حتى استثقله لذلك جماعة من تلاميذه. ويظهر أن السخاوي ـ وهو كذلك تلميذ لاحق لابن حجر ـ كان ممن ضاق بتلك العلاقة بين ابن الصيرفي وشيخه، كما عظم عليه توليته خطابة جامع السلطان برقوق، وذهاب ابن حجر للصلاة خلفه هناك، لذا جاءت ترجمته لابن الصيرفي مملوءة غمطاً وسخرية.

مارس ابن الصيرفي التجارة بعد وفاة أبيه، مع بقائه على الاشتغال بـالعلم، وقيامه على وظيفة الخطابة بجامع السلطان برقوق وغيرها من الوظـائف الصغرى؛ فتكسب بسوق الجواهريين ـ ومن هنا جاء تلقيبه بالجوهري ـ ،وابتنى بعض الدور بحكر الشامي بالقاهرة وأسكنها بالأجرة. ثم آل أمره يوماً إلى أن نفذ غالب ما عنده واحتاج، فولاه قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي نائباً للحاكم (قاضياً)، واشتغل بنسخ الكتب وارتفق بـذلك، فنسـخ كثيراً من كتب شيخـه ابن حجر وأبي المحاسن والسخاوي في التاريخ وغيره. ومن ثم كان اشتغاله بالتأليف في التاريخ بعد أن تقدمت به السن، وفسدت علاقته بالسخاوي وأبي المحاسن من حين ذاك، فمشى السخاوي بسيرته عند الناس، وامتنع أبو المحاسن من إعارته كتباً من مكتبته، بـل أخفى عنه تصانيفه مخافة أن ينقل منها. على أن ذلك لم يفلَّ من عزم ابن الصيرفي، أو يصرفه عن الكتابة، فألف كتاب نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، وافتتحه بسلطنة برقوق سنة ١٣٨٢ م، واختتمه عند ١٤٤٦ م، وهي السنة الثامنـة من عهد السلطان جقمق؛ ثم كتاب أنباء الحصر في أبناء العصر، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء التاسع فقط؛ ثم كتاب سيرة الأشرف قايتباي، وهو غير مقطوع بوجود، ولعله المخطوط الكائن بالمتحف البريطاني بلندن لغيـر مؤلف معروف. ولابن الصيـرفي كذلك كتاب في السيرة النبوية سماه الجوهرية، ورآه أبو المحاسن وأنهـاه مطالعـة وقرّظه وهو راغم بخطه، إلى جانب خـطوط الكثير من المقـرظين، على قول ابن الصيرفي نفسه.

غير أن السخاوي لم يشأ إلا أن يحطَّ من قدر ابن الصيرفي ومؤلفاته، وربما قصد بذلك أن ينتقم لنفسه منه، لمزاحمته إياه في صحبة ابن حجر وملازمته، فقال: «إنه نصب نفسه لكتابة التاريخ، فكان تاريخاً، لكونه لا تمييز له عن كثير من العوام إلا بالهيئة، مع سلوكه لما يستقبح، بحيث. . . . صار الفقهاء والقضاة به مثلة. . . . ؛ وبالجملة فهو من سيئات الزمان، غني بشهرة سيرته عن مزيد البيان، وجهله واضح الظهور. . . . » (راجع السخاوي في الضوء اللامع، ٥/٢١٨ ـ ٢١٩) ولابن إياس في ترجمته القصيرة لابن الصيرفي نقدٌ مشابه، على الرغم مما فيه من اعتدال في اللفظ، ونصه أن ابن الصيرفي «كان يكتب التاريخ مجازفة، لا عن قائل ولا عن راوٍ، وله في

تاريخه خبطات كثيرة، وجمع من ذلك عدة كتب من تآليفه. . . وكان لا يخلو من فضيلة»[1].

على أن ابن الصيرفي لا يستحق هذه العبارات المريرة من معاصريه، يشهد بذلك السخاوي نفسه في ثنايا ترجمته له حين يعجب من كثرة مقرظيه ومريديه من أعلام عصره، ويشهد به كذلك كاتب هذه السطور بعد أن قرأ ما استطاع قراءته من المؤلفات المذكورة، إذ وجد بها كثيراً من تفاصيل الحقائق التي توجد مقتضبة مختصرة في كتب الآخرين، كأبي المحاسن والسخاوي وابن إياس. وكانت وفاة ابن الصيرفي في يونيو سنة ١٤٩٤ م.

وأخيراً نقول: إن السخاوي رغم كل ما قاله فقد انفرد في الضوء اللامع (٥/٢١٧ ـ ٢١٩) بترجمة وافية لابن الصيرفي، وليس في غيره من المراجع التي أعلمها، مثل ابن إياس في بدائع الزهور (٢/٢٨٨) ومؤلفات ابن الصيرفي التي لم يصل إلينا منها سوى النزر القليل، ما يضيف كثيراً إلى ما كتبه السخاوي.

نعود لنقول إن ابن الصيرفي: هو أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان. من أشهر كتبه التاريخية كتاب «قانون ديوان الرسائل» الذي نشره وعلق عليه الأستاذ / علي بهجت، ونشر في القاهرة، ١٩٠٥ م. بحثت عن ترجمة مطولة له في كتب التراجم والتواريخ ولكني لم أجد ذلك، غير أنه كان من كتاب الدولة الفاطمية زمن الخليفتين الآمر والحافظ، وأنه كان من وجوه الدولة وأعيانها سنة ٤٧٨ هـ، وأنه ظل يعمل بديوان الرسائل نحواً من أربعين سنة، اذ أن من السجلات التي أوردها ما كان مؤرخاً سنة ٥٣٦ هـ بينما يرجع أول سجل له الى سنة ٤٩٧ هـ. وله كتاب آخر بعنوان (الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة، زمن الفاطميين).

وقصد المؤلف بكتابه أن يكون دستوراً في اختيار من يؤهل للتوظف في ديوان الرسائل، رئيساً كان أو مرؤوساً، وأن يخلد كتابه في الديوان ليقتدي به الموظفون ويأخذوا بالقراءة فيه وتدبره. وكتبه للوزير الأفضل ابن بدر الجمالي.

---

(١) راجع كتاب المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي القرن التاسع الهجري / د. محمد مصطفى زيادة، ص ٣٦ وما بعدها.

ويشمل الكتاب سجلات عن تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية، حتى توافق مواعيد استخراج الضرائب وجباية الأموال إبان إدراك الغلات والثمار، وعن البشارة بركوب الخليفة في موسم أول السنة وأول شهر رمضان المعظم وأيام الجمع الثلاث منه، وسجل عيد الفطر المبارك، وعيد النحر، ويوم قطع الخليج ـ وتناول في فصول الكتاب، ما ينبغي لرئيس الديوان (الرسائل) من صفات، وما يؤديه من أعمال، والمستخدمين في الديوان، وما ينبغي أن يستخدم من المكاتبة عن الملك إلى الملوك المماثلين له، والمخالفين للغته وملته.

ووصف مَنْ يؤهل لمكاتبة رجال الدولة وكبرائها أو لكتابة المناشير، ومساعدي متولي الديوان.

يضاف إلى ذلك أنه أشار إلى ما يوضع في الديوان من الدفاتر والتذاكر، وإلى خازن الديوان ووظيفته، وما يختص بالتوقيعات.

٢٨

الطبري:
مؤرخ فوق العادة!

الطبري، هو أبو جعفر محمد بن جرير. صاحب كتاب «تاريخ الأمم والملوك». الذي نشره وقدم له، وحققه دي جويه وجماعة من المستشرقين، في ليدن، ١٨٧٦ - ١٩٠١ م، في (١٣) مجلداً، منها (٢) مجلد للفهارس والتعليقات.

عاش الطبري في الفترة (٢٢٤ - ١٣٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣ م) ولد بأمل بطبرستان، بدأ شغفه بالعلم في سنٍّ باكرة، واشتهر بمتانة الخلق والإباء وعزة النفس. وتلقى دراسته في التاريخ والفقه وتفسير القرآن واللغة والنحو والأخلاق والرياضيات والطب، على شيوخه بمصر والشام وبغداد والكوفة والبصرة والري.

لم تصل إلينا كل مؤلفات الطبري، وأشهر ما بلغنا منها، تفسيره المشهور للقرآن المعروف باسم «جامع البيان في تفسير القرآن» والمتداول بيننا باسم تفسير الطبري.

وكتابه الهام في التاريخ العام المعروف باسم «تاريخ الأمم والملوك - أو أخبار الرسل والملوك». والكتاب في صورته الحالية ليس الا مختصراً لمؤلف يبلغ في الضخامة عشرة أمثال هذا الكتاب.

واستهل الطبري تاريخه بعد المقدمة، بتاريخ الخليقة والأنبياء وملوك العصور الغابرة، ثم تلا ذلك تاريخ الساسانيين، ثم السيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين، ثم تاريخ الأمويين، واختص العباسيين بالقسم الأخير من كتابه الذي يبلغ أربعة أجزاء في طبعة ليدن.

ومنذ بداية التاريخ الإسلامي، جرى ترتيب المادة على حسب السنوات، وانتهى هذا الكتاب عند سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٥ م.

ثم ذيل عليه مؤرخون آخرون، منهم تلميذه أبو محمد القرعاني، وأبو الحسن الهمداني الذي ألف تكملة تاريخ الطبري حتى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م.

غير أن الجزء المعروف منه ينتهي عند ٣٧٤ هـ / ٩٨٧ م. وفي طبعة ليدن يتلو أجزاء تاريخ الطبري، كتاب صلة تاريخ الطبري لغريب بن سعد الكاتب الذي يعالج الفترة الممتدة من (٢٩٠ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٣ ـ ٩٣٢ م).

والواقع أن تاريخ الطبري يعتبر أول كتاب في التاريخ العام، أكمل به الطبري، ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو الطبقات، كابن سعد، واليعقوبي، والدينوري، والواقدي، والبلاذري، وابن إسحاق.

وإذ ضاع أكثر ما دون سابقوه، احتفظ بما سجله عن هؤلاء، ويعتبر أيضاً تمهيداً لمن جاء بعده، ومصدراً أصيلاً من مصادرهم.

وما أورده الطبري من الروايات أسندها إلى أصحابها، فحفظها بذلك من الضياع، وصارت بالغة الأهمية للمؤرخين الذين يدرسون تاريخ صدر الإسلام.

ولذا قال المؤرخ الإنجليزي تريفليان: Trevelyan: إن محافظته على الروايات المختلفة هي أعظم ما أهداه إلى الباحث في العصر الحديث.

وجرى طبعه بالقاهرة، المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٦، في (١٣) جزءاً، وطبع أيضاً في دار المعارف المصرية منذ ١٩٦٠ م ـ بتحقيق أستاذنا الكبير المرحوم / محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢٩

عبد الباسط بن خليل: جوالة أصبح مؤرخا!!

عبد الباسط بن خليل الحنفي، سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي على الأقل، وأبوه الأمير المحدِّث خليل بن شاهين وقد تناولناه بالتعريف من قبل فهو ضمن معاصري المقريزي ومن المؤرخين البارزين، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان الأشرف برسباي. ولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م، بملطية بأطراف آسيا الصغرى، حيث كان متنقلاً بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مرضياً عنه، أو طرخاناً منسياً أو مغضوباً عليه، مثل حلب السورية والخليل والقدس الفلسطينية، ودمشق السورية، وبغداد العراقية، والقاهرة المصرية، ومكة المكرمة، وطرابلس اللبنانية، فتلقى علوم عصره على يد شيوخ مختلفين مشهود لهم بالعلم والكفاءة، ومنهم أبوه الذي أقرأه الكثير من الكتب في شتى العلوم، كما علمه اللغة التركية حتى أتقنها جيداً.

وشغف عبد الباسط كأبيه بالعلم والتحصيل الواسع، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من المغرب العربي لم تعينها المراجع، وتلقى هناك دروساً مفيدة في النحو والصرف والطب وعلم الكلام حتى أتقنها جميعاً، ثم استقر به المقام أخيراً في القاهرة، بعد وفاة أبيه سنة ١٤٦٨ م، فنزل في الخانقاه الشيخونية وتصوف، وتعرف على السيوطي متولي مشيختها، وإلى يونس الرومي نزيلها، وسمع كذلك على غيرهما من علماء القاهرة واعتبره السخاوي من تلاميذه في علم التاريخ.

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك في التأليف، فألف في مختلف العلوم والفنون، وكتب النظم والنثر؛ غير أن المراجع لا تنبىء بشيء يدل على غير ذلك من عمل رسمي وظف عليه في الدولة المملوكية.

ومن مؤلفاته المعروفة كتاب «نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين»، وكتاب «نيل الأمل» وهو تكملة هامة لتاريخ الذهبي، وكتاب «الروض الباسم في حوادث الغمر والتراجم» وهو ذيل لكتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن بن تغري بردى، وكتاب «تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولي العزم منهم». وله عدا ذلك كتاب «الوصلة في مسألة القبلة»، وكتاب «الحكمة والسر في كون الضوء» وكتاب «القول المأنوس»، وكتاب «شرح القانوشة في الطب»، وكتاب «عمدة الطالبين ورغبة الراغبين في الفقه». وهذه المؤلفات كلها لا تزال في ظلمات المخطوطات، بمختلف مكتبات المشرق والمغرب، ما عدا كتابه الأخير فإنه مطبوع طبعاً سقيماً.

ولعبد الباسط فوق هذا نظم مبعثر في كتب معاصريه، ولا سيما كتب ابن إياس الذي يصفه بلفظ «شيخنا» في تاريخه أكثر من مرة، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوي منه كثيراً، ومن ذلك النظم أبيات في مناسبات شتى: مثل وفاء النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م، ومرثية حزينة في وفاة جلال الدين السيوطي سنة ١٥٠٥ م، وفي هذين المثلين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس وابن تغري بردى بين رجال الأدب المتقلبين على هامش البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة في دولة المماليك.

وأعتقد أن عبد الباسط مشابه لابن إياس في كثير من الوجوه، فكلاهما ابن أمير مملوكي ومن أولاد الناس على حد تعبير مصطلح العصر، وكلاهما شاعر ومؤرخ. على أن عبد الباسط امتاز ـ كما نستنتج ـ عن صنوه المؤرخ بأنه ألف في غير التاريخ من علوم زمنه، كما امتاز على سائر أترابه ومعاصريه من محترفي القلم بأن ما لدينا من نماذج (نظمية) خالية تماماً من المديح والتهاني، بل يدل على أنه عاش منعزلاً مترفعاً، وجاء ما كتبه فيه كل من السخاوي وابن إياس مصداقاً لذلك تماماً، إذ قال أولهما بأنه: «إنسان ساكن أصيل منجمع عن الناس»[1]، ووصفه ابن إياس وصفاً دقيقاً تناول هيئته وبزته وأخلاقه، حين قال إنه «كان صفته طويل القامة، نحيف

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٢٧.

الجسد، وكان يربي ذؤابة شعر في رأسه على طريقة الصوفية، وكان له أنف وافر جداً. . . وكان. . . . . ضنيناً بنفسه، وعنده يبس طباع مع شحم زايد، وكان معظماً عند الأتراك والأمراء، وكان عارفاً باللغة التركية، وفيه جملة محاسن، وكان بقية السلف وعمدة الخلف»[١].

وإلى رحمة الله تعالى انتقل عبد الباسط سنة ١٥١٤ م، بعد مرضه بالسل الرئوي التزم إثره الفراش والدار أكثر من عام، ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة العاشرة للهجرة كرت من أعوامها عشرين، أي أنه كان من رجال القرن العاشر الميلادي بقدر ما كان هو من أهل القرن التاسع الميلادي.

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ـ طبعة استانبول التركية ـ ج ٤، ص ٣٧٤.

٣٠

ابن عبد الظاهر: وحياة الظاهر

كان مولده بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م، وعلى الرغم من أنه لم يتوافر في المصادر ما يوقفنا على ترجمة وافية له، فالمعروف أنـه كان من أجـل الكتاب في عصره، وأنه خدم السلاطين الثلاثة الأوائل في الدولـة المملوكية بمصـر، الظاهـر بيبرس، المنصور قلاوون، خليل بن قلاوون.

وتولى ابن عبد الظاهر وظيفة الكتابة لهؤلاء السلاطين، وصارت له رياسة ديوان الإنشاء، حتى توفي ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م. وهو الذي سطر عدداً كبيراً من الوثـائق الرسمية الهامة، وقام بكتابة أهم ما جرى من اتفاقات وعهود سياسية ودبلوماسية بين مصر من جهة، وبين أدعياء حماية الصليب والمغول من جهـة أخرى، في القـرن الثالث عشر الميلادي.

واسم عبد الظاهر، عبد الله بن عبـد الظاهـر بن نشوان الجـذامي السعدي، الملقب بمحيي الدين.

ومن كتبه الهامة: «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور» وحققه الأستاذ / مراد كامل. في القاهرة، ١٩٦١ م.

ويعالج ما تبقى من هذا الكتاب، الأحداث الواقعة في السنوات، من ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م، حتى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م وهي السنة التي مـات فيها المنصـور قلاوون. وجرى ابن عبد الظاهر على النهج الشائع في كتابة التاريخ على عصره بأن أورد ما وقع كل سنة من الأحداث في داخل الدولة المملوكية، وما كان من علاقات مع الدول المجاورة، مثل التتار والتونة، والكرج، والأرمن، والقفجاق، والصليبيين،

والبيزنطيين، وحرص ابن عبد الظاهر على أن يعزز رواياته بالوثائق كالرسائل والمعاهدات وعقود الصلح، ونصوص الإيمان.

وأفاد المؤرخون المتأخرون من هذه الوثائق ومن هذا الكتاب، بما نقلوه واقتبسوه، مع الإشارة إلى المصدر الذي نقلوا عنه، ولعل أكثر ما يتضح ذلك في كتاب «تاريخ ابن الفرات» المعروف بـ: «تاريخ الدول والملوك».

ومن كتب ابن عبد الظاهر «سيرة الظاهر بيبرس» المعروفة باسم «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» والذي قامت الأستاذة الدكتور / فاطمة صادق بنشره سنة ١٩٥٦ م.

Oxford university Press, Pakistan 1956.

وبفضل ما احتفظ به ابن عبد الظاهر من ذكريات، وشارك فيه من أعمال، وما توافر في محفوظات الحكومة من سجلات ووثائق، ألف ثلاثة كتب عن السلاطين، بيبرس، المنصور قلاوون، وخليل بن قلاوون، ومع أن لهذه الكتب من القيمة التاريخية ما لا يخفى، فإنه لم يبق منها الا شذرات، وما ورد في كتب المؤرخين المتأخرين من اقتباسات منها.

على أن ما نشرته الدكتورة/ فاطمة صادق من كتاب سيرة الظاهر بيبرس، ليس الا شطراً صغيراً، يتناول خمس السنوات الأولى من عهد السلطان بيبرس، فأشار إلى بلاء بيبرس في قتال الصليبيين، في حملة لويس التاسع ٦٤٧ هـ، والى موقف توران شاه من المماليك الصالحية، ومصرع توران شاه الذي كان يكره المماليك كراهية معلنة، وإلى جهود بيبرس حتى ارتقائه عرش السلطنة.

وأورد ابن عبد الظاهر ما كان لبيبرس من صفات تؤهله للسلطنة، وما بذله من جهود في إنشاء العمائر المدنية والعسكرية، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر، وهو في كل ذلك يورد الوثائق الرسمية من خطب ومراسلات. ثم شرح حروب بيبرس مع أدعياء الصليب بالشام، وما كان من العلاقات بين مصر والدول الإسلامية، كدولة الروم السلاجقة، واليمن، وبين مصر والتتار في الشرق والشمال، ووصف حملات السلطان لتأديب العربان، ورحلاته للصيد.

٣١

ابن عذاري: أخبار المغرب

مؤرخ أندلسي الأصل، من أهل مراكش، لم ترد له ترجمة في المراجع المتداولة، وكل ما هو معروف عن ترجمته أنه كان يعيش أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وهو القرن الذي اختتم به كتابه الهام: «البيان المغرب في أخبار المغرب»، والذي نشره دوزي، في ليدن الهولندية، سنة ١٤٨٩ م، في مجلدين وعنوانه بالفرنسية:

Histoire de L'Afrique et de L'Espagne leyde 1849 - 1851.

ولمؤرخنا ابن عذاري كتاب آخر بعنوان «تاريخ المشرق» أشار فيه إلى كتابه «أخبار المغرب».

أبو عبد الله محمد المراكشي أو ابن عذاري كتابه البيان المغرب يقع في أجزاء ثلاثة، وصل في الثالث منه إلى سنة ٦٦٧ هـ، ولم ينشر العلامة دوزي إلا الجزأين الأول والثاني، فانتهى إلى سنة ٤٦٠ هـ.

شرح في الجزء الأول، ما كان من فتح العرب لأفريقية والمغرب، ومن وليهما من الأمراء، وقيام دولة الأغالبة، وظهور الفاطميين، وقيام الدولة الصنهاجية بأفريقيا، والعداء بين الخلفاء الفاطميين والصنهاجيين، وزوال حكم الفاطميين بشمال أفريقيا، والأمراء الذين حكموا الأندلس.

وفي الجزء الثاني يشير ابن عذاري إلى دخول المسلمين إلى الأندلس وانتزاعها من أيدي الكفار، ويصف الفتوح الإسلامية في الأندلس، وعهد الولاية ثم يذكر

استقلال عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس، وينتهي عند سنة ٣٨٧ هـ. واشتهر ابن عذاري المراكشي بدأبه على التصنيف، وعلى الرغم من أنه يفتقر إلى ما يشتهر به المؤرخ من الحكم السليم والحاسة التاريخية، فإن ما زخر به كتابه من اقتباسات قيمة، استمدها من مصادر لم تصل إلينا، يجعل لهذا المؤلف أهمية تاريخية كبرى.

وحرص دوزي على أن يشرح المواضع والفقرات التي نقلها ابن عذاري من المؤرخين السابقين.

وترجم فاجنان Fagnan الكتاب كاملاً في جزأين نشرهما ١٩٠١ م - ١٩١٤ م.

٣٢

ابن العديم:
مؤرخ يعشق حلب

هو كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هيبة الله، بـن أبي جرادة العقيلي.

من مؤلفاته التاريخية بل من أهمها كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» وقام بتحقيقه الأستاذ/ سامي الدهان. وصدر في دمشق السورية عن المعهد الفرنسي، الجزء الأول منه ١٩٥١ م، والجزء الثاني ١٩٥٤ م.

ينتمي ابن العديم إلى أسرة بني جرادة، التي هاجر رئيسها مع سائر أفراد قبيلة عقيل في القرن التاسع الميلادي الموافق القرن الثالث الهجري، بعد وقوع الوباء في البصرة العراقية، فنزلوا بحلب السورية. ومارس جده التجارة بها.

ولد ابن العديم سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م، وكان أبوه القاضي الحنفي بهـا. وبعد أن درس في حلب وبيت المقدس الشريف ودمشق والحجاز والعـراق، تولى التدريس بحلب سنة ٥١٦ هـ / ١٢١٩ م، ثم ولي وظيفة القضاء بهـا، ودخل في خدمة أميـرين أيوبيين فيها، هما العـزيز والنـاصر، وتـولى لهما السفـارة في بغداد والقاهرة.

ثم هرب إلى القاهرة بعد استيلاء التتار على حلب السورية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م، ومات بها ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م وأهم مؤلفاته التاريخية، كتابه المعـروف باسم «بغية الطلب في تاريخ حلب»، الذي يتضمن أخبار ملوكها وابتداء عمارتها، ومَنْ كان بها من العلماء، ومَنْ دخلها من أهل الحديث والرواية والـدراية والملوك والأمراء والكتاب. رتبه على حروف المعجم ووفقاً لمعلوماتي فهو يقع في أربعين جزءاً كاملة أو عشرة مجلدات.

ومن هذا الكتاب الضخم ألف ابن العديم موجزاً، جرى فيه على حسب السنوات، وهذا الكتاب هو المعروف باسم، «زبدة الحلب من تاريخ حلب» مضى به إلى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م، ومات ابن العديم قبل أن ينجز هذا المؤلف.

صور ابن العديم أهمية مدينة حلب السورية منذ عصورها الإسلامية الأولى، تتنازعها الدول المختلفة، والتزم الإنصاف فيما أورده من حقائق عن المسلمين بفضائلهم وعيوبهم، وعن الروم والافرنج في كل ما قاموا به من أعمال، وأشار بعض المؤرخين إلى ما كان من مطابقة بين نصوصه ورواياته، وبين ما أورده المنصفون من المؤرخين المسلمين، بل أخذ عن بعض المؤرخين المسيحيين، أمثال يحيى بن سعيد الأنطاكي والينجي. وعمد مؤرخنا إلى الأوراق القديمة والسجلات العتيقة والنقود الأثرية والأبواب والقناطر والأسوار والجدران، فقرأ نقوشها وكتاباتها ونقلها في أمانة.

وتناول الجزء الأول الأحداث من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٤٥٧ هـ.

أما الجزء الثاني فاستهله بسنة ٤٥٧ هـ وانتهى فيه إلى سنة ٥٦٩ هـ.

وما تعلق بالحروب الصليبية، نشره دي سيلان مع ترجمة فرنسية في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، المؤرخين الشرقيين. الجزء الثالث.

٣٣

ابن عرب شاه:
ومن الحزن ما قتل!

يقال: إن السلطان المملوكي [جقمق] أعجب بلباقة ابن عرب شاه وإن هذا الإعجاب هو الذي جعله يطيح بالعيني المؤرخ الشهير من جميع مناصبه!!، ذلك المؤرخ الذي كان مولده بدمشق السورية سنة ١٣٩٢ م، ثم غادرها وأسرته سنة ١٤٠١ م إلى سمرقند، حين غزا تيمورلنك القائد التتري دمشق السورية، وأخذ كثيراً من أهلها وناسها إلى عاصمته في بلاد ما وراء النهر. وهناك تعلم ابن عرب شاه الفارسية والتركية والمغولية، وتمكن منها جميعاً، حتى أضحى قادراً على إجادة النظم في كل منها، بالإضافة إلى إجادته النظم في العربية أيضاً.

لقد عاش ابن عرب شاه أخا سفر طوال حياته، فزار بلاد المغول وتركيا والشام وبلاد الحجاز، حيث حج إلى مكة سنة ١٤٢٨ م. وجاء ابن عرب شاه الى القاهرة المملوكية سنة ١٤٣٩ م، فأكرم وفادته ابن حجر العسقلاني والسخاوي المشاكس، وأبو المحاسن، وأمضى المدة التي قضاها بالقاهرة في البلاد السلطاني بدعوة من السلطان جقمق. ونقرأ أن ابن عرب شاه كتب رسالة في مدح السلطان سماها باسم [التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر، القائم بنصرة الحق، أبي سعيد جقمق]. وعلى الرغم من المبالغة الشديدة في هذا الكتاب الذي صوّر فيه ابن عرب شاه مولاه كأنه صورة مجسدة للفضيلة، بل رفعه فيه إلى مرتبة الأولياء والقديسين، فإنّ الكتاب إلى جانب ذلك يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة، ونقد للحوادث الماضية. أضف إلى ذلك أن ابن عرب شاه كتب هذا الكتاب ـ على حد قوله ـ ليكون ترياقاً ضد السموم والخبائث التي أولع بها قلمه في كتاب سابق ألفه في مساوىء السلطان التتري

(تيمورلنك)، وسمَّاه (عجائب المقدور في أخبار تيمور) ، ـ يريد بذلك أنه إذا صوَّر في الكتاب الأول حياة عملاق أعرج مغرى بالتخريب والهدم، فإنه يرسم في الكتاب الثاني صورة سلطان عادل كامل!!!

ويعود ابن عرب شاه إلى القاهرة المملوكية عدة مرات غير أنه لم يلق من السلطان جقمق [الطاهر / القائم / ناصر الحق / العادل / الكامل. . .!!!] أي ترحيب أو شيئاً من حسن المعاملة، على غير انتظار، وهو الذي أطنب في مديحه، إذ أوحى إلى جقمق أنه يعمل ضد مصالح الدولة المملوكية، وضخم الوشاة والنمامون بالوقيعة الأمر أمام جقمق مدعين بالباطل أن ابن عرب شاه يعمل ضد مصالح جقمق نفسه!!!

وبقرار مملوكي سريع تم القبض على ابن عرب شاه وعذب كثيراً، وامتهن على يد جقمق ومساعديه، وأرسل إلى سجن المقشرة سنة ١٤٥٠ م، وهو في شدة المرض والوهن. وبعد التحقيق معه صدر قرار يبرئه من جميع التهم التي نسبت إليه ظلماً، حتى أنه لم يمكث معتقلاً أكثر من خمسة أيام.

ولم يلبث أن قضى نحبه مهموماً حزيناً في شهر أغسطس من تلك السنة!!

٣٤

العسقلاني:
وفن التاريخ للرجال

أحمد بن حجر كان مولده بمصر القديمة سنة ١٣٧٣ م، وتوفي أبوه - وهو محدث نابه في زمنه - ولما يبلغ أحمد من العمر سنتين فنشأ يتيماً في كنف أحد أوصيائه، ودخل الكتاب بعد إكمال خمس سنين، واستظهر القرآن وهو ابن تسع، ويقال إنه حفظ سورة مريم في يوم واحد، بل قيل إنه بلغ من قوة الاستذكار أنه كان يحفظ الصحيفة من الكتاب بعد مرتين، الأولى تصحيحاً والثانية قراءة في نفسه، ثم يعرضها عن ظهر قلب في الثالثة.

سافر ابن حجر إلى مكة وجاور بها وهو في سن الحادية عشر، فسمع بها وتفقه ثم حبِّب إليه الحديث وانصرف إلى دراسته انصرافاً كلياً بالحجاز والشام ومصر واليمن، حتى صار حجة عارفاً بالعوالي والنوازل. واشتهر ابن حجر في عالم التدريس والفتيا، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم، وأشهرها كتابه المسمى (فتح الباري في شرح البخاري) وهو في ثلاثة عشر مجلداً، ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو كعبه، على قول معاصريه[1] والمنتفعين به من المحدثين حتى وقتنا الحاضر. وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد الإسلامية بعثوا في طلبه بسؤال علمائهم، وأن نسخاً منه بيعت بثلاثمائة دينار.

بدأ ابن حجر هذا الكتاب سنة ١٤١٠ م، فلما فرغ منه أقيمت لختمه وليمة كبيرة بمنظرة التاج والسبع وجوه بأرض منية السيرج الحالية، ألقيت فيها المدائح نظماً

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٤٩٥.

ونثراً، وحضرها ابن السلطان جقمق[1] ورجال الفكر والأدب والعلم، ومن بينهم المقريزي الذي كانت صداقة ابن حجر له وإعجابه بتأليفه جد عظيمين، حتى إن ابن حجر نفسه لم يكتف بالإطناب في مدح المقريزي حين ترجم له في كتابه [المجمع المؤسس والمعجم المفهرس] (قرأت نسخة هذا الكتاب بدار الكتب المصرية بالقاهرة) بل عرض ما كتبه قبل أن يأذن للناسخ بنسخه.

لقد عاش ابن حجر شخصية بارزة في مجالس الدولة المملوكية الثانية، وذلك منذ سنة ١٤٢٤ م، حيث ولي منصب قاضي القضاة الشافعية، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك، ولصاحبه الأولية على سائر قضاة المذاهب، لكون مذهب الشافعي هو المذهب الرسمي للدولة. وظل ابن حجر متقلداً هذا المنصب الخطير مدة احدى وعشرين سنة، على أنه عُزِل عنه وأعيد إليه مراراً في أثناء تلك الفترة الطويلة، لاستقلاله في الرأي واستمساكه بكلمة الحق، مع لين الجانب والاحتياط والتواضع، والميل إلى النكت اللطيفة والنوادر الظريفة. ولذا جاءت حولياته ـ أو مذكراته بعبارة أدق ـ وهي المسماة بـ (أنباء الغمر في أبناء العمر) مرآة لشخصيته الفذة، وصفاته المحمودة، فضلاً عن أنها من أهم المراجع الأصلية لعصره، إذ كثيراً ما يمضي فيها المؤلف بالقارىء إلى ما وراء الستار، فينير ما استغلق فهمه من حوادث الدولة وسياستها العامة بالمراجع الأخرى.

وبدأ ابن حجر هذه المذكرات بسنة ميلاده، وهي لذلك قاصرة على تاريخ الدولة المملوكية في حياته، وتشبه في ذلك ـ إلى حد صغير ـ كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الشيزري، وربما كان ادلّ ما فيها على صفاته وأحاسيسه الرقيقة أنه حرص مثلاً على ذكر حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع والأزهار في حولياته، حتى وفاته سنة ١٤٤٩ م.

ومن أعمال ابن حجر الشهيرة (الإصابة في تمييز الصحابة) ويذكر فيه مجموعة ضخمة من الصحابة رضوان الله عليهم مترجما لهم تفصيلاً، والكتاب مرتب على

(١) جقمق [تشقمق] رقمه (١١) في قائمة سلاطين المماليك البرجية تولى الحكم من ١٤٣٨ م إلى ١٤٥٣ م وبعده تولى ابنه عثمان والذي لم يكمل العام في الحكم.

حروف المعجم العربي، سهل التناول يسهل على الباحث الاستفادة منه.

ومنها (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)[1] الذي يضم أكثر من ألف ترجمة من القرن الثامن الهجري لرجاله الأعلام ونسائه أيضاً وهو أول كتاب عربي كامل ألف على عنوان القرون عاكساً أحوال الملوك والسلاطين والحروب بحاسة نقدية متميزة.

ومنها (رفع الإصر عن قضاة مصر) الذي ذيله السخاوي، و (تهذيب التهذيب) وهو عبارة عن اختصار لتهذيب الكمال للمزي مع زيادات كثيرة ومفيدة، و (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة) و (القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد بن حنبل) و (بلوغ المرام في أدلة الأحكام) وهو في الحديث، و (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ونزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) و (طوالع التأسيس في معالي ابن ادريس) وهو تأريخ شخصي للأسرة الإدريسية، و (غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر)... الخ... إلخ.. من المؤلفات التي تزيد عن مائة وخمسين كتاباً.

---

(١) هذا الكتاب حققه وقدم له وترجم لمؤلفه ووضع فهارسه الأستاذ / محمد سيد جاد الحق ولديّ الطبعة الثانية من هذا التحقيق ١٩٦٦ م (١٣٨٥ هـ) - وفي رأينا أن ابن حجر أول من ألف على عنوان القرون وليس أول من ترجم لمشاهير القرون فالذي فعل ذلك صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) في كتابه (أعيان القصر وأعوان النصر) وفيه ترجم لأعيان (٦٠ سنة) من القرن الثامن على الأقل.

٣٥

عماد الدين الأصفهاني: وتاريخ الأيوبيين!

هو أبو عبد الله محمد بن حامد بن عبد الله، صاحب كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» والمنشور لأول مرة في ليدن بواسطة لندبرج سنة ١٨٨٨ م.

كان مولد العماد الأصفهاني في أصفهان سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م. وينتمي إلى أسرة ولي كثير من أفرادها وظائف هامة في الدولة السلجوقية، وفي حكومة الخلافة العباسية.

درس العماد الفقه الإسلامي وعلوم الحديث على أساتذة المدرسة النظامية ببغداد، وبرع في نظم الشعر وصناعة الكتابة وتقلب في بعض الوظائف في حكومة الخلافة العباسية.

ثم انتقل إلى دمشق السورية بعد اضطراب الأمور في بغداد، فدرس بالمدرسة النورية الدمشقية، فذاع صيته ودخل في خدمة نور الدين ثم ابنه الصالح.

ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي بإشارة من وزيره وكاتبه القاضي الفاضل ٧٥٠ هـ / ١١٧٥ م. فلم ينقطع عن مصاحبة صلاح الدين، حتى إذا مات سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م اختلفت أحوال العماد، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف، حتى مات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م خص العماد الكاتب، صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته التي يبلغ عددها أحد عشر كتاباً، وهما كتاب: البرق الشامي، وكتاب الفتح القسي. وأشهرهما، كتاب الفتح القسي، الذي استهله العماد بوصف الاستعدادات لمعركة حطين التي دارت سنة ١١٨٧ م، وانتهى فيه إلى وفاة الناصر صلاح الدين، وتقسيم دولته سنة ١١٩٣، فتناول بذلك

نفس الفترة التي عالجها ابن شداد في كتابه: «سيرة صلاح الدين الأيوبي»، المسماة «بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

ويمثل كتاب الفتح القسي للعماد الأصفهاني في كل خصائصه الاسلوب السائد وقتذاك في كتابة الرسائل، بما تضمنه من نماذج البيان والبلاغة من الوقائع والأحداث، وبما انطوى عليه من استهلالات ومقدمات حافلة بالسجع في رواية الأحداث، وبما اتصفت به عباراته من الحلية والزخرفة، التي اعتبرها القراء في الغرب الأوروبي، مجردة من المضمون، وكل ذلك يعلل إلى حدٍّ كبير ما أصاب هذا الكتاب من الإهمال النسبي، على الرغم من أهميته كمصدر تاريخي له قيمته.

وعلى الرّغم من عيوب العماد في الكتابة، فإن ما ساقه من فقرات كان يزينها ويزيد من إتقانها وإحكامها بين براعته في اللغة ومهارته اللفظية.

ومن الخطأ بمكان الاعتقاد أن كتاب عماد الدين ليس الا تمجيداً لأعمال صلاح الدين.

فمن العسير أن تصادف فيه فقرة واحدة، أفردها لمدح الناصر صلاح الدين على النحو المعروف في المبالغة في المدح.

فالأحداث وتحركات الجيوش وسائر الناس، كل ذلك اهتم به عماد الدين. فما حازه صلاح الدين من مكانة، يرجع في الواقع إلى أنه الروح المحركة لكل هذه الأحداث.

يضاف إلى ذلك أن العماد الأصفهاني كان يعجب بصلاح الدين عن إيمان، فصوره على أنه رجل بالغ الإنسانية، مفطور على السخاء، تجاوز سائر الأمراء في إنسانيته، واشتهر بالتواضع، على الرغم من أنه لم يكن معصوماً من الخطأ، فإنه تغلغل في نفسه من الاعتقاد الراسخ ما سانده في حروبه، وما صادفه من فشل، ولم يكن في هذا شيء من المبالغة إذ أن صلاح الدين ليس سوى ذلك.

طبع هذا الكتاب أيضاً مرتين بالقاهرة، ١٣٢١، ١٣٢٢ هـ.

٣٦

عمر بن ابراهيم الأوسي الأنصاري: مؤرخ عسكري!

صاحب كتاب «تفريج الكروب في تدبير الحروب» حققه وترجمه د. جورج سكانلون. وهو من منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٦١ م، نشره وترجمه إلى اللغة الانجليزية مع مقدمة طويلة بعنوان:

«A Muslim Manual of War»

كل ما هو معروف عن حياة المؤلف ما أشار إليه الناشر من أنه عاش زمن السلطان فرج بن برقوق، وأنه ينتمي إلى أسرة عريقة من حلب السورية، وأنه ولي وظيفة قاضي العسكر في حلب، ثم صار قاضي قضاة الحنفية بمصر. ومات بالقاهرة سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م.

ونظراً لأن مؤرخنا عمر الأنصاري شغل وظيفة قاضي العسكر المماليك، عرف نظام الجيش المملوكي جيداً، ولما وقع في أسر تيمورلنك بالشام، وقف على ما عند المغول من نظام حربي وخطط وفنون عسكرية، وأشار إلى ما كان معروفاً عندهم من طرائق لتعبئة الجيش للقتال.

ويشير الى أنه ألف هذا الكتاب ليفيد منه الطلاب الذين يتلقون الفن العسكرية في القلعة.

وتناول المؤلف في الفصل الأول ما ينبغي اتخاذه من الحذر والتحرز من العدو.

وشرح في الفصل الثاني الاستحكامات وأساليب الدفاع، بينما عالج في

الفصل الثالث، استطلاع أخبار العدو، بإيقاد النيران على رؤوس الجبال، واستخدام الحمام الزاجل، والجواسيس.

وما هو ملحوظ في هذا الكتاب، أن المؤلف لم يشر الى كبار المؤلفين في الفنون الحربية، أمثال: نجم الدين الأحدب، ولاجين الحسامي، أو طبيغا أو محمد بن منكلي، أو محمد بن عيسى الحنفي مؤلف كتاب «السؤال والأمنية».

هذا، وقام لويس مرسييه L. Mercier سنة ١٩٢٢ م في باريس بنشر كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسي، وألحق به ثبتاً يضم ما جرى تصنيفه في البيطرة والبيزرة والفروسية، وأضاف ريتر إلى هذه المؤلفات ما فات مرسييه من المصنفات، وذلك في المقال الذي نقد فيه كتاب مرسييه، والمنشور في:

(Der Islam XVIII 1929).

٣٧

العيني:
مؤرخ للزمان!

في سنة ١٣٦٠ كان مولد العيني وهو من المؤرخين المشهورين في عصره؛ كان مولده قبيل المقريزي بحوالي سنوات أربع في بلدة عينتاب، وهي بلدة صغيرة بين حلب السورية وانطاكية. وجاء العيني الى القاهرة المملوكية في أواخر القرن الثامن الهجري، واختير كي يتولى وظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحري سنة ١٣٩٩ م، وكان عمره (٣٩ عاماً) بدلاً من المقريزي، فظل هذا مغاضباً لذاك من أجل ذلك ـ كما نعتقد ـ طوال أيام حياته. وولي العيني تلك الوظيفة عدة مرات بين عامي ١٣٩٩ م و١٤٤٢ م، وهذا فضلاً عن توليته في الوقت نفسه لكثير من المناصب الرفيعة، ولا سيما زمن السلطان برسباي (تولى من ١٤٢٢ م إلى ١٤٣٨ م) الـذي جعله قاضي القضاة الحنفية سنة ١٤٢٥ م.

وظل العيني شاغلاً لتلك الوظيفة الكبيرة مع منصب المحتسب مدة اثنتي عشرة سنة متوالية، وأضيف إليه في أثنائها نظر الأحباس بالقاهرة، ولم يكن لذلك التعدد الغريب في الوظائف شبيه أو سابقة في تاريخ الإدارة في مصر الإسلامية بوجه عام، على حد قول السخاوي وغيره من المعاصرين للعيني.

وكان لتمكن العيني من اللغة التركية أكبر العون له على ما تهيأله من حظوة لدى سلاطين العصر المملوكي، وعلى الأخص برسباي الـذي تعرف أنـه لا يعرف من العربية إلا القليل، فكان العيني يجلس إلى حضرته ساعات الليل، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة ويقرأ عليه من حولياته التي كتبها بالعربية، وهي كتاب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)، ثم يترجمها فورياً إلى التركية.

وفي اعتقادنا أن هذا الكتاب من أعظم ما كتب العيني في التاريخ، وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية وإحيائها حتى الآن. فالكتاب في حاجة ماسة إلى تحقيقه التحقيق العلمي المنهجي وليس مجرد طبعه تجارياً ولا يتأتى ذلك إلا من مخلص لتاريخنا يتوافر على هذا الكتاب تحقيقاً ودرساً.

ومما خلفه العيني من المؤلفات كذلك، (وبعضها بالتركية التي كان يجيدها) شرح مطول في الحديث النبوي الشريف، سماه باسم (عمدة القاري في شرح البخاري)، وفيه انتقى من كتاب ابن حجر العسقلاني (فتح الباري في شرح البخاري) صفحات كاملة متتابعة، ولم يتحرج من معارضته كلما استطاع إلى ذلك من وسيلة أو مناسبة.

أن القارىء للعيني وحياته يرى مشاهد رائعة، ومعلومات قيمة، بصدد علاقة الصفوة من الأدباء والعلماء بسلاطين المماليك في ذلك العصر. ولكن يتضح لنا على الفور أن العيني لم يشأ أن تكون علاقاته بمعاصريه من أهل العلم على شيء من الوفاق والتقدير المتبادل، وربما كانت حظوته عند السلاطين من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين المقريزي وابن حجر العسقلاني، وهذا فضلاً عن أنه خلف الأول في منصبه (منصب الحسبة) ولأنه خلق بينه وبين الثاني جدلاً عنيفاً حول أهم كتب العسقلاني وأقيمها (فتح الباري).

وكانت وفاة العيني سنة ١٤٥١ م، وهو في الحادية والتسعين من عمره، وذلك بعد سنتين من عزله عن القضاء، بأمر سلطاني من السلطان جقمق او (تشقمق) الذي تولى حكم مصر في الفترة ما بين (من ١٤٣٨ م إلى ١٤٥٣ م) بعد أن أطاح بيوسف بن بارسباي الذي حكم ٩٤ يوماً فقط لا غير.

٣٨

ابو الفداء:
التاريخ ملكا!

إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، عماد الدين الأيوبي مهنته التجارة والإمارة، وكتابة التاريخ والجغرافية!! كان مولده نوفمبر ١٢٧٣ م في دمشق السورية حيث فر إليها والده الملك الأفضل الأيوبي شقيق الملك المنصور الأيوبي، وهو سليل أحد الفروع من الدولة الأموية بمصر، وأمير حماة السورية في تلك الأثناء، فر الأفضل من وجه الهجمة المغولية على دمشق.

رجلنا (أبو الفداء) رجل عسكري من الطراز الممتاز، والى عسكريته يضيف ثقافة شاملة موسوعية، لقد بدأ عسكريته مبكراً عندما التحق بخدمة عمه أثناء الحروب الطاحنة ضد الفرنجة.

مات ابن عمه محمود الثاني ولم يوجد من يخلفه، وكان المتوقع أن يخلفه (أبو الفدا) ليحقق حلمه، إلا أن الأمير سنقر وقع عليه الاختيار السلطاني الأيوبي ليشغل إمارة حماة.

التحق رجلنا بخدمة السلطان الملك الناصر دون أن يسند إليه أي منصب مرموق إلا بعد أن أخلص وتفانى في خدمته ما يقرب من مدة اثني عشر عاماً، وجاء الحلم الكبير بعد حوالي ٢٢ عاماً من بداية حلمه الكبير بولاية حماة، كان ذلك في اليوم الرابع عشر من أكتوبر ١٣١٠ م.

وزار القاهرة ليحصل على لقب أمير، والملك الصالح، وبعد ذلك بـ ٨ أعوام لقب بالملك المؤيد في حفل رسمي شاهدته قاهرتنا في أول مارس ١٣٢٠ م.

بعد ذلك وبحكم العرف المتبع أصبحت السلطنة وراثية في بيته اعترافاً بإخلاصه المتميز لبني أيوب. كانت وفاته في ٢٧ اكتوبر ١٣٣١ م في حماة.

التاريخ المعماري يعلن لنا تخليد ذكراه في المباني الكثيرة والنافعة التي شيدها لأهل حماة حول قصره الفخم. وترجع شهرته العلمية إلى مؤلفاته التي وضعها، وأهمها تاريخه المشهور للعالم وكتابه الجغرافي الموسوعي الموسوم بـ(تقويم البلدان) كتابه الأول والأهم (مختصر تاريخ البشر) يتناول فترة ما قبل البعثة المحمدية، ثم تاريخ العالم الإسلامي إلى حدود ٧٢٩ هـ، وقد تم طبع تاريخ أبي الفداء بتمامه وكماله في مجلدين بالقسطنطينية التركية ما بين ١٨٦٩ م - ١٨٧٠م.

كما أن هناك طبعات جزئية لهذا الكتاب ففي ليبيسك عام١٨٣١ م خرج النص العربي لمختصر تاريخ البشر مع الترجمة اللاتينية لمحتوياته. وفي مطابع جامعة اكسفورد الانجليزية سنة ١٨٢٢ م طبع النص العربي لكتاب أبي الفداء مع ترجمته اللاتينية والتي نجدها تمتاز بالدقة لتعكس بجلاء مضمون الكتاب.

وفي ١٨٣٧ م طبع نص تاريخ البشر العربي مع ترجمة فرنسية أنيقة لنصوصه وذيل بعدة تعليقات طريفة ومفيدة، وكان ذلك بالعاصمة الفرنسية.

وبدون تاريخ محدد على الطبعة خرجت دراسة أو أجزاء من كتاب تاريخ البشر دار فيها الحديث عن حياة الرسول ﷺ، وعن المسلمين والعرب من خلال كتاب أبي الفداء وعنوان هذه الطبعة (حياة محمد من مؤلفات أبي الفداء العربية) أو (صفحات من تاريخ أبي الفداء) كما ترجمت العنوان عن الانجليزية.

وفي الفترة ما بين ١٧٨٩ م إلى ١٧٩٤ م طبع النص العربي لكتاب (أبي الفداء) مع ترجمته اللاتينية وتعليقات هامشية مفيدة دبجها بقلمه وفكره المستشرق (ريسك) وكان ذلك في كوبنهاجن الدنماركية.

ونطير إلى مكتبة ليدن لنتصفح بطاقات وقوائم المخطوطات بها وتحت رقم ٧٢٧ نجد النسخة المخطوطة التي قام مؤرخنا بتصحيحها لكتابه بنفسه كتاب «تقويم البلدان».

انتهى أبو الفداء من كتابة تاريخه ومراجعة صحائفه عام ٧٢١ هـ أي وعمره حوالي ٥٧ عاماً، نعرف بعد ذلك أن أجزاء متفرقة من هذا الكتاب تم طبعها في أوروبا عام ١٦٥٠ م.

ومن أشهر المراجع المعتمدة التي حدثتنا عن أبي الفداء «فوات الوفيات» لصاحبه الكتبي المتوفى ٧٦٤هـ، عما حدثنا عنه بطرس البستاني في قاموسه المحيط (٢ / ٢٩٨).

٣٩

ابن الفرات:
والوثائق اساس التاريخ!

اسمه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري. صاحب كتاب «تاريخ ابن الفرات» أو «تاريخ الدول والملوك» والذي حققه لأول مرة الأستاذ / قسطنطين زريق، في بيروت في الفترة ما بين ١٩٣٦ م - ١٩٤٢ م كان مولده بمصر سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤/١٣٣٥ م) ودرس علوم عصره على جماعة من علماء زمانه، كما أجاز علمه فريق منهم، فحدث بما سمع ويسمع، وأكَبّ على دراسة التاريخ وكتابته فوضع فيه مؤلفه الكبير، الذي أورد به الأحداث التاريخية، ابتداءً من السنوات الأولى للهجرة المشرفة، حتى نهاية القرن الثامن الهجري (١٣٩٧ م).

غير أنه ليس معروفاً من هذا التاريخ سوى تسعة أجزاء فقط، منه مخطوطة بالمكتبة الملكية بقينا النمساوية. يبتدىء الأول منها بسنة ٥٠١ هـ (١١٠٦ - ١١٠٧ م) وينتهي الأخير بالقرن الثامن الهجري (١٣٩٧ م). وقام المستشرق جوردان (Jourdain) بترجمة فقرات منه تتعلق بالحروب الصليبية.

وانتهى ابن الفرات في كتابته حتى سنة ٨٠٣ هـ، وقام بتبييض المائة الثامنة، ثم المائة السابعة، ثم السادسة، فلما بلغ المائة الخامسة والرابعة ادركه الأجل.

وعلى الرغم من إنكار أهل البحث التاريخي ما اشتهرت به عبارة ابن الفرات من عامية فجة فإنهم اعترفوا بأهمية كتابه.

وجرى ابن الفرات في تأليفه على قاعدة أكثر المؤرخين في عصر، فرتب الأحداث التاريخية حسب السنين، وأورد الوفيات في آخر كل سنة. وما حفلت به الأجزاء المطبوعة من الوثائق التي تتمثل في المراسلات والمكاتبات بين سلاطين

المماليك والأمراء الفرنجة في الغرب، والأمراء المسلمين في الشرق، وملوك التتار، وعهود الصلح والهدنة مع والصليبيين، ومنشورات الإقطاعات، والعقود المتعلقة بولاية العهد للأمراء، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة النظم الإدارية والمالية والقضائية والعلاقات الدبلوماسية.

وتضمن الجزء التاسع الذي يقع في مجلدين الأحداث الواقعة بين ٧٨٩ و ٧٩٩ هـ (١٣٨٧ و ١٣٩٧ م)، بينما عالج الجزء الثامن أحداث الفترة الواقعة بين (١٣٨٧ و ١٣٩٧ م)، بينما عالج الجزء الثامن أحداث الفترة الواقعة بين سنة ٦٨٣، وسنة ٦٩٦ هـ (١٢٨٤، ١٢٩٧ م). أما الجزء السابع، فتناول دراسة السنوات من ٦٧٢ حتى ٦٨٢ هـ [١٢٧٣ - ١٢٨٤ م).

٤٠

ابن القلانسي:
وأول اهتمام بالشام!

هو أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، صاحب كتاب «ذيل تاريخ دمشق وقام بنشره لأول مرة H. F. Amedroz في ليدن الهولندية، ١٩٠٨ م.

وقد اطلعت على هذه الطبعة ووجدت أن تاريخ القلانسي أو ذيله يتلوه نخب من تواريخ ابن الأزرق الفاروقي، وسبط ابن الجوزي، والحافظ الذهبي - وأعتقد إن الذي قام بهذه الاختيارات ناشر الكتاب وليس ابن القلانسي وذلك لأن ابن الجوزي مثلاً استفاد من تاريخ القلانسي.

وابن القلانسي. اسمه أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، وتعرف أنه ينتمي إلى أسرة عريقة دمشقية، من قبيلة تميم العربية الأصيلة، والقلانسي نسبة إلى يافع القلانسي نال مؤرخنا من العلم ما توافر لأبناء البيوتات العريقة من الدراسة، كالأدب والفقه وأصول الدين.

وتولى الكتابة من ديوان الرسائل حتى صار عميدا له. وولي مرتين منصب رئيس المدينة (مدينة دمشق كمحافظ لها). ومات سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن تجاوز التسعين من عمره.

و «ذيل تاريخ دمشق» هو الكتاب الوحيد الذي ألفه ابن القلانسي.

وعنوان الكتاب يدلنا على أن المقصود منه أن يكون ذيلاً على كتاب هلال الصابىء في التاريخ الذي يقف فيه عند سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م).

ووجه الاختلاف بينه وبين هلال الصابىء، أن ابن القلانسي أولى معظم اهتمامه بدمشق والشام، فضلاً عن الإشارات الى ما يجري من أحداث في بغداد ومصر، على حين أن هلالاً عالج التاريخ العام.

ويتناول ابن القلانسي دراسة فترة تزيد على قرن من الزمان وتنتهي بوفاته سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) والراجح أن ما تهيأ لابن القلانسي من الوسائل بفضل اتصالاته الرسمية كفلت له القيام بهذا العمل، مما أورده من روايات مستمدة من الوثائق والسجلات والأفراد الذين يتلقى بهم، فضلاً عن المشتركين في الأحداث وعلى الرغم من أن اقتباساته من الوثائق قليلة، فإن مادته تحمل طابع الوثائقية.

والراجح أنه كان يبادر إلى كتابة ما يبلغه من الروايات أولاً بأول ثم يراجعها فيما بعد.

ومن خصائص ابن القلانسي أيضاً ما التزمه من الدقة في ترتيب الأحداث من الناحية الزمنية.

وفي ذلك يقول:

«انتهيت في شرح ما شرحته من هذا التاريخ، ورتبته، وتحفظت من الخطأ والخلل والزلل فيما علقته من أفواه الثقات، نقلته وأكدت الحال فيه بالاستقصاء والبحث».

ويعتبر تاريخ ابن القلانسي من أهم المصادر الأصلية التي أفاد منها من جاء بعده من المؤرخين المسلمين، أمثال سبط ابن الجوزي، وابن الأثير صاحب الكامل، وأبو شامة، ويصح للباحث أن يرتكن إلى تاريخ ابن القلانسي كي يعرف نمو وتطور إحساس المسلمين نحو الصليبيين وما كان من روح الجهاد التي بلغت الذروة زمن صلاح الدين. ويشرح ما كان من علاقة دمشق السورية وإمارة بيت المقدس الصليبية، ونشاط المصريين ضد الصليبيين، وما كان من علاقات وثيقة بين دمشق ومصر زمن الفاطميين، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الأوضاع الداخلية بالشام، وحركة توحيد الجبهة الإسلامية ومقاومة أدعياء الدفاع عن الصليب.

هذا، وقد قام الأستاذ: [H. A. R. Gibb] بترجمة ما يتعلق بالحروب الصليبية من فقرات، وأورد مقدمة طويلة كي يعرف بكتاب ابن القلانسي. وشرح أحوال الشام قبيل الحروب الصليبية في كتابه بعنوان:

The Damascus Chronicle of Crusades. London 1932.

٤١

الكافيجي:
مؤرخ اهمله التاريخ!

مع أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عندما زادت المادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية خاصة دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد. وأمكن للمشتغلين بالتاريخ الانتفاع بما في هذه الدواوين من معلومات، فاحتوت كتابات تواريخ القرن الثالث على عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات، يضاف إلى ذلك ما شهده ذلك العصر من نشاط حركة الترجمة عن الفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية وغيرها من اللغات. كما أن سهولة الانتقال في أنحاء الدولة الإسلامية دفعت الكثير من طلاب العلم والمؤرخين على الرحلة في طلب الرواية ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها، لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب في القرن الثالث الهجري أربعة هي:

(أ) كتب السيرة والأخبار.

(ب) السجلات الرسمية.

(جـ) المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية.

(د) المشاهدة والمشافهة(١).

وعندما كثرت المادة التاريخية اتجه الكثير من العلماء، وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم

---

(١) دراسات في علم التاريخ ومناهجه للأستاذين الدكتورين: سيد الناصري، وحسين ربيع. من ص ١٢٥ إلى ص ١٣٤ (كلية الأداب / القاهرة / ١٩٧٧).

المسلمين وأعظمها شأنا. وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الدول الإسلامية(١).

ومنذ القرن الثالث الهجري عندما أصبح علم التاريخ علماً مستقلاً نجد اتجاهات معينة لكتب التاريخ وبدأنا نطالع مؤلفات وأعلاماً تعد من مصادر وأمهات كتب التاريخ.

- فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن بن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧.
- كتاب القضاة للكندي المتوفى ٣٥٠ هـ.
- تاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣ هـ.
- تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى ٥٧١ هـ.
- البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري (القرن السابع).
- تجارب الأمم لابن مسكويه.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير.
- المختصر في أخبار البشر (٤ أجزاء) لأبي الفداء.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ.
- جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمذاني المتوفى ٧١٨.
- مقدمة ابن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي المتوفى ٨٤٥.
- عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط للمقريزي.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي.
- أنباء الغمر في أبناء العمر للعسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ.
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لأحمد العيني المتوفى ٨٥٥ هـ.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن بن تغري بردى المتوفى ٨٧٤ هـ.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لأبي المحاسن بن تغري بردى.

---

(١) تاريخ التأريخ للأستاذ المرحوم علي أدهم - سلسلة (كتابك) دار المعارف القاهرة (بتصرف).

ـ نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان لابن الصيرفي المتوفى ٩٠٠ هـ.

ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي المتوفى ٩٠١ هـ.

ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي.

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لأحمد بن إياس المتوفى ٩٣٠..... الخ... الخ.

هذه القائمة من الأعمال والأعلام والتي تصل بنا إلى القرن الخامس عشر الهجري تخلو من مؤرخ أهمله التاريخ إنه الكافيجي!!.

لا نكون على درجة من المبالغة إذا زعمنا أن الكافيجي[١] لم يأخذ حظه من الدرس والتحليل لدى من يتصدى للتاريخ أو ممن كتبوا التاريخ، فللرجل دور كبير وبارز رغم كل ما نلمحه من سلب أو إيجاب في المنهج التاريخي إلا أنه يستحق البحث والتمحيص محيي الدين محمد بن سليمان) الكافيجي أصله من منطقة تسمى (كوك جاكي) في الأناضول التركية المسلمة، ولد الرجل على حد روايته هو: في سنة ٧٨٨ هـ وتوفي ٨٧٩ هـ أي أنه توفي وعمره يناهز ٩١ عاماً وقد يكون في روايته عن تاريخ مولده بعض المبالغة[٢].

السخاوي يردد اسم الكافيجي في ضوئه اللامع ومن طريقة حديث السخاوي يخيل إلينا أن الرجل كان «معلماً شعبياً»[٣] إن صح التعبير وهذا ما يؤكده لنا كل من ذكر الرجل ضمن تراجم رجال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

للكافيجي عدة مؤلفات يوجد جلها وهي مخطوطات بدار الكتب المصرية، غير أن معظمها قصير ولم ينشر منها شيء يذكر إلا أن أشهرها على الإطلاق «المختصر في علم التاريخ» إلّا أن محاولة مشكورة الجهد قام بها (فرانز روزنشال) في كتابه الهام:

---

(١) يعلل الزركلي سبب تسمية الرجل بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافية في النحو.

(٢) يقول الزركلي إنه ولد ٧٨٨ هـ وتوفي ٨٧٩ هـ ويقول السيوطي في حسن المحاضرة أنه ولد قبل ٨٠٠ هـ وتوفي ٨٧٩ هـ، ويقول صاحب الفوائد البهية إن وفاة الكافيجي كانت سنة ٨٧٣ هـ.

(٣) راجع قصيدة الشهاب المنصوري لتؤكد دور الرجل كمعلم شعبي في نفس الدراسة.

(علم التاريخ عند المسلمين)[٦] والذي ترجم فيه كتاب الكافيجي إلى الانجليزية رغم أن فرانز ألماني الجنسية وقد ترجم هذا الكتاب مرة أخرى إلى العربية الدكتور صالح أحمد العلي (عراقي) وراجعه الأستاذ محمد توفيق حسين (عراقي).

كتاب «المختصر» كتب حوالي ٨٦٧ هـ وبالرغم من حداثة تاريخه نسبياً، فإنه يعد من أقدم الرسائل الإسلامية المعروفة لدى الباحثين عن التاريخ كعلم وكنظرية، وإذا وجدنا عن هذا الموضوع رسائل أو كتباً أقدم من مختصر الكافيجي فهي - وللأسف - لم تخرج للنور بعد وإن كنا نشك أساساً في وجود مؤلفات تعالج التاريخ كعلم أو كنظرية.

وقد يعترض معترض علينا ويسألنا في استنكار ودهشة: وأين ابن خلدون؟ والحقيقة أن مقدمة ابن خلدون اعتبرت في عرف العلماء كتاباً مستقلاً في حياة ابن خلدون الذي أطلق على موضوع الكتاب الأول منها علماً مستقلاً. ومع هذا فقد أريد «بالمقدمة» أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم، وكانت تبحث في التاريخ، ولا تبحث في كتابة التأريخ إلاّ بصورة مباشرة.

لقد حاول الكافيجي أن يكتب «مختصره» كي يظهر في المقام الأول اهتمامه بمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها. ويمكن القول ولأول وهلة بأن رجلنا لم يحالفه التوفيق إلى حد كبير فالنصف الثاني من الصفحات العشرين من المخطوطة الموجودة في دار الكتب المصرية مليء بالقصص، وهذه القصص يهدف منها المؤرخ أن يوضح لنا أموراً نظرية، غير أنها في الواقع مجرد أمور خيالية عادية، وحكايات بعضها متداول لدينا وبعضها مبالغ فيه مثل حديثه عن الأنبياء والملائكة والرسل ونحن نقول مبالغ فيه لأنه لا يتفق مع ما عرفناه وتعلمناه من القرآن الكريم والسنة المطهرة عن الأنبياء البررة والملائكة.

حكايات الكافيجي تنتهي إلى آخر كتابه حيث يعطينا بعض المعلومات

---

(٢) هذا الكتاب الذي ألفه (فرانز روزنشال) وترجمه د. صالح العلي بتصريح خاص من مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (أغسطس ١٩٦٣ م).

التاريخية. وإذا كان النصف الثاني من المختصر مليئاً بمادة لا قيمة لها من وجهة نظر التمحيص العلمي، فإن القسم الأول من الكتاب يعوض لنا تماماً نقائص القسم الثاني.

كتاب «المختصر في علم التاريخ» أو «مختصر في علم التأريخ» هو أشهر كتبه الجديرة بالاعتبار لأصالة طريقته، وجودة كتابته، وهو يتبع النظام المألوف في التعريف العلمي يرجع به إلى الفلسفة الأرسطوطاليسية، ولعله يذكرنا على الفور بخطط المقريزي الذي يبدأ صفحاتها هو الآخر بثماني مسائل «أرسطوطاليسية». ولعلنا نكون على صواب إذا قلنا إن مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث الفقهي في الدراسات الإسلامية.

لقد أجاب الكافيجي في مختصره عن بعض المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه، وهدفه وفوائده. غير أنه كرس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة «تأريخ» العربية، وعن مركز التأريخ في العلوم الإسلامية.

ولم يكن الكافيجي مؤرخاً محترفاً بمعنى الكلمة، ولا يبدو أنه مهتم بصورة خاصة بعلم التأريخ البحت، ولكن ذلك لا يقلل من محاولته التنظيرية في هذا المجال.

وللكافيجي كتاب آخر ذكره بعض المستشرقين، هذا الكتاب يبدو أنه قد اهتم الكافيجي فيه بالمشاكل التاريخية وأعني كتاب «النصر القاهر، والفتح الظاهر»[1].

كان صاحبنا يعتبر في زمانه ثقة في معرفة العلوم العقلية أو غير الدينية وغير الأحاديث. وإن ظهر في كتابه عن علم التأريخ معرفة ضئيلة نسبياً بالفلسفة، والعلوم، غير أنه كان فوق كل شيء عالماً دينياً متمكناً من الطراز الأول مثل معاصره السخاوي، ومثل علماء عصره كافة. غير أن انشغاله بالعملية التأريخية كان عرضياً إلى حد ما بالنسبة لدراساته العويصة عن الحديث النبوي والفقه الإسلامي والتفسير القرآني، ولعل هذا كان أكثر مما يود الكافيجي ذاته أن يعترف به.

---

(١) لم أتمكن من العثور على نسخة من هذا الكتاب في دار الكتب أو معهد المخطوطات.

إن أفكار الرجل عن التأريخ كما نستنبطها من مختصره، كان لها الأثر الأكبر على السخاوي مؤرخنا «المشاكس» لمعاصريه، فلولا كتاب «المختصر في علم التأريخ» لما كان بالإمكان ظهور «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي. فإن المسائل، وطريقة عرضها في كلا الكتابين متفقة تماماً. ولا يوجد مبرر لأي محاولة افتراضية وجود مصدر مشترك لهما. غير أنه قد يكون من الخطأ ذم السخاوي لعدم تقديره المناسب لكتاب الكافيجي، فالسخاوي دائم الرفض لسابقيه ومعاصريه. كان يملك نفسه ويحاول أن يعطي حلولاً جديدة للمسائل التي أثارها غيره سواء أكان الكافيجي أم سواه.

لقد كان السخاوي واضحاً في مسائله بينما كان عرض الكافيجي شديد الإيجاز. ونظرة عابرة على نتاج الرجلين تؤكد لنا هذا. ولا ننكر أن السخاوي ـ رغم ثرثرته الكثيرة ـ قد ملأ فراغاً كبيراً لنواحي علم التاريخ كافة في العلوم الإسلامية.

كان صاحبنا سيىء الحظ ـ الكافيجي ـ فإبداعه لم توازه موهبة في فن التعبير الأدبي، فكل ما يقول من ملاحظات تبدو وكأنها رؤوس أقلام محاضرات ألقيت على جماعة من طلاب الفقه. مع ملاحظة الاصطلاحات الفنية التي كانت شائعة في عصره وهي اصطلاحات فقهية بحتة.

وإذا حاولنا استشفاف المعنى المضبوط لنص «المختصر» يبقى في بعض الأحيان غامضاً بالنسبة لنا، وهذا يرجع ـ في اعتقادنا ـ إلى أن الرجل عالم، ولا ضرر ولا ضرار أن تخون العالم قدرات التعبير عن نفسه بوضوح. غير أن أفكاره تبدو غامضة هي الأخرى ولعل سبب ذلك أنها لم تأخذ حظها من الاستواء والنضج في ذهن الكافيجي.

أعود إلى مخطوطة «المختصر في علم التأريخ» وهي مرجعي في الحديث عن علم التأريخ في فكر الكافيجي، أجدها قد كتبت بعد أيام ثمانية فقط من تاريخ انتهاء مؤلفها من كتابتها في سنة ٨٦٧ هـ ويبدو أنهم كانوا لا يعانون من أزمة نشر ـ ناسخ المختصر تلميذ بار من طلاب الكافيجي وهو علي بن داود الجوهري المؤرخ[١].

(١) علي بن داود الجوهري المؤرخ الذي ولد سنة ٨١٩ هـ وتوفي سنة ٩٠٠ هـ، وحدثنا عنه ابن إياس =

في مكتبة «أيا صوفيا» التركية يوجد نسختان لكتاب المختصر وكاتبهما تلميذ آخر من تلاميذ الكافيجي أنه يحيى بن محمد الدمسيسي[1].

وفي معهد المخطوطات العربية بالقاهرة نجد صورة فوتوغرافية هي طبق الأصل للصورتين الموجودتين في «أيا صوفيا» هذه المخطوطة نسخت في يوم الخميس الموافق ٢٣ شعبان لسنة . . ؟؟ لم أتمكن من قراءة بقية الكتابة، ولعلها ـ إجتهاداً ـ تكون نفس السنة التي ألف فيها المختصر، غير أن اليوم الثالث والعشرين من شعبان سنة ٨٦٧ هـ يوافق الثالث عشر من مايو ١٤٦٣ م يصادف يوم جمعة!!؟؟

يلاحظ أن نسخة المخطوط التي كتبها الجوهري كتبها لاستعماله الخاص كما يتجلى ذلك من خطها الرديء، فإن نسخة المدسيسي ربما نسخت للبيع، ولذلك كتبت بخط جيد مقروء، والكتابة الرديئة في هذه الحالة، لا تعني أن النص جيد، فنسخة الجوهري أردأ فهي تكتظ بالأخطاء الإملائية واللغوية ونسخة الدمسيسي أجود منها من حيث النص.

تحدثنا عن الكافيجي (محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي، محيي الدين، أبو عبد الله الكافيجي) وكما يقول عنه السيوطي إنه شيخه أي أن السيوطي تلقى علماً في حلقته ويصفه بأنه المحقق، علامة الوقت واستاذ الدنيا في المعقولات، وأنه أي الكافيجي تلقى العلم عن البرهان حيدرة، والشمس بن العنزي وجماعة، وتقدم في فنون المعقول حتى صار إمام الدنيا فيها، وإن له تصانيف كثيرة.

ومن أهم مخطوطات الكافيجي

(أ) مختصر في علم التاريخ (مخطوط) بدار الكتب المصرية.

= المصري في بدائع الزهور ج ٢ وحدثنا عنه بروكلمان في تاريخه وقد جعل السخاوي من الجوهري شخصية ذات شهرة رديئة جداً دون أدنى مناسبة تذكر.

(١) يحيى بن محمد الدمسيسي، والذي ولد سنة ٨٢٣ هـ، وكان هو الآخر مثل علي بن داود الجوهري مؤرخاً وتلميذاً ودوداً للكافيجي والشيء المثير للدهشة أن الدمسيسي ظل على علاقة طيبة وطيدة بالسخاوي، بعكس الجوهري. وعندما كتب السخاوي ضوءه اللامع كان الدمسيسي حياً يرزق، فحظي بقسطٍ وافر من المديح في ج ١ من كتابه.

(ب) أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة (مخطوط).

(جـ) منازل الأرواح (خ).

(د) معراج الطبقات (خ).

(هـ) قرار الوجد في شرح الحمد (خ).

(ح) نزهة المغرب (خ) في النحو.

(ط) التيسير في قواعد التفسير (خ).

(ي) حل الأشكال (في الهندسة) (خ).

(ك) الأحكام في معرفة الإيمان والأحكام (خ).

(ل) الإلماع بافادة (لو) الامتناع (خ).

(م) جواب في تفسير: «والنجم إذا هوى. . .».

(ن) مختصر في علم الإرشاد (خ).

(ص) شرح كتاب ابن هشام في النحو (خ).

وتوفي الرجل ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وثمانمائة[1] وقد رثاه الشاعر المشهور على عصره الشهاب المنصور بأبيات (جيمية) منها:

بكت على الشيخ محيي الدين كافيجي ... عيونـنـا بـدمـوع مـن دم المـهـج

كـأن أساريـر هـذا الـدهر من دُررٍ ... تـزهـى فبـدل ذاك الـدر بـالسبـجِ

فـكم نـعى بـسمـاح مـن مـكـارمـهِ ... فقـراً وقـوم بـالإعـطاء من عـوجِ[2]

يـا نـور علم أراه اليـوم مـنـطفئـاً ... وكـانت النـاس تمشي منـه في كـرج

فـلو رأيت الـفتـاوى وهـي بـاكـيـة ... رأيتهـا من نجيـع الـدمـع في لجـج

ولـو سـرَت بثنـاء عنـه ريـحُ صَبـاً ... لاستنشقـوا من شـذاهـا أطيب الأرج

يـا وحشـةَ العلم من فيـه إذا اعتـركت ... أبـطالـه فتـوارت في دجى الـوهـج

---

(١) على حد قول السيوطي في حسن المحاضرة ويجدر بالذكر أن السيوطي لازم الكافيجي ١٤ سنة، وأشاد السيوطي بأستاذيه الرجل.

(٢) تولى الكافيجي في حياته عدة وظائف ابتدأت بتوليته مشيخة الخانقاه الشيخونية وانتهت برئاسته للمذهب الحنفي بالقاهرة.

لم يلحقوا شأوَ علم من خصائصه ... أنّى ورُتبته في أرفع الدرج؟!
قد طال ما كان يقرينا ويقرئنا ... في حالتيه بوجهٍ منه مبتهج
سَقْياً له، وكساه الله نور سناً ... من سندسٍ بيد الغفران متشج

رحم الله الكافيجي وجزاه خيراً عما قدم للعلم وللإسلام(1).

(1) من المصادر التي رجعنا إليها:
(أ) الضوء اللامع للسخاوي ج ٧ ص ٢٥٩ .
(ب) مفتاح السعادة ج ١ ص ٤٥٤ .
(ج) الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان ص ٦٨ .
(د) بغية الوعاة للسيوطي ص ٤٨ .
(هـ) بدائع الزهور لابن إياس ج ٢ ص ١٥٢ .
(و) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٧.
(ز) شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٢٦.
(ح) الفوائد البهية ص ١٦٩ .
(*) ويجدر بالذكر أن هذه الدراسة سبق ونشرها مؤلف الكتاب في مجلة «منبر الإسلام» المصرية.

٤٢

الكتبي:
ووفيات الأعيان

اسمه محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، كانت وفاته عام ٧٦٤ هـ. . جاء الكتبي ليكتب لنا ذيلاً تاريخياً هاماً على كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان وعنوانه (فوات الوفيات).

هذا الكتاب «الذيل» ألفه فخر الدين الكتبي ليحتوي على أكثر من (٨٤٦) ترجمة، يحكي فيها من كتاب ومؤلفين سابقين، ويسند الحديث إليهم، وقد يترك ذلك الإسناد، فيكون كتابه عند التحقيق مجموعة كتب، ويكون كل جزء منه مؤلفاً آخر، فإذا حكمت على هذا المجموع حكماً واحداً، ونسبته إلى من ضم شتاته وجمع متفرقه كنت مجانباً للصواب.

والناظر لكتاب (فوات الوفيات) أي ما فات ابن خلكان يجد أن الكتبي قد تفرد بتراجم لم نجدها أثناء مراجعتنا لابن خلكان أو غيره من كتب التراجم على اختلاف مناحيها وأنواعها ومشارب مؤلفيها، وإذا زاد فهو يزيد على غيره زيادات مفيدة، لا بأس بها.

ويبدو لي أن أغلب التراجم التي أبرزها ابن شاكر الكتبي مأخوذة من كتاب (الوافي بالوفيات) الذي يعد من أهم مؤلفات صلاح الدين الصفدي، ذلك الأديب الأريب المعاصر لابن شاكر، والدليل على مذهبنا اننا وجدنا عبارة ابن شاكر هي نفس عبارة الصفدي، اللهم إلا ما يخلو منه الناقل من تغيير كلمة، أو تقديم كلام على كلام.

وفي (فوات الوفيات) أشهر مؤلفات الكتبي تجد عشرات التراجم لعلماء وأعلام من القرن الثامن الهجري (المائة الثامنة) وإن كان يحلو للبعض أن يردد دائماً: إن

كتاب الكتبي ما هو إلا (هامش) أو ملحق لكتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان.

بعد ذلك جاء الصفدي والمعاصر لابن شاكر الكتبي ليكتب لنا (الوافي بالوفيات) وهو الكتاب الذي أخذ منه ابن شاكر مادته كلها. لقد ضمن الصفدي كتابه المئات من تراجم أهل القرنين السابع والثامن. وإذا كان كتاب الكتبي يقع في (٦) مجلدات كاملة ينتهي فيها إلى أعلام سنة ٧٦٠ هـ فإن كتاب الصفدي يقع في خمسين مجلداً، ولا يوجد مجتمعاً في أي مكتبة (مكتبة واحدة) فهو بحق موسوعة جامعة في تراجم الاعلام وقد اقتدى به السيوطي أثناء كتابته لمؤلفه: «بغية الوعاة» مؤكداً أنه اطلع على مؤلف الصفدي بخط الصفدي نفسه في أكثر من خمسين مجلداً. كتاب الصفدي الذي اقتدى في تأليفه بابن خلكان جعل كتاباً آخر أكثر أهمية يحتل المرتبة الثانية: (أعيان العصر وأعوان النصر) وهو عبارة عن مجموع طيب لمشاهير القرن الثامن الهجري وسيرهم إلى أيام المؤلف من نساءٍ ورجال.

على كل حال كان الكتبي تلميذاً جاداً نابغاً من تلاميذ مدرسة التأريخ للرجال والتي نبغت في كتابة التأريخ وتزعمها ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان، وأنباء الزمان».

٤٣

الكندي:
وللقضاة تاريخ!!

بالطبع هو غير الكندي الفيلسوف الشهير، فاسمه أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري صاحب كتاب: «كتاب الولاة والقضاة» والذي حققه البحاثة رڤن جست R. guest وصدر في بيروت، ١٩٠٨ م.

والكندي من مؤرخي مصر الإسلامية، ولد سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٧ هـ، في مصر، وينتمي إلى تجيب من قبيلة كندة، التي قدمت إلى مصر زمن الفتح، وعلى الرغم من دراسته الحديث والتبحر فيه، فإنه كان يميل إلى دراسة التاريخ المصري ومأثوراته. والراجح أنه عاش في الفسطاط، حيث مات بها سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م.

وأشهر مؤلفاته، ما كتبه عن ولاة مصر، وقضاتها. ويتناول الأول الأمراء الذين ولوا مصر وأصحاب الشرطة، وتخللت كتاباته عن الولاة ما أورده من إشارات عن أحوال البلاد الداخلية والخارجية. ويمضي المؤلف في تاريخه حتى وفاة الأخشيد سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م، وذيل عليه مؤرخ مجهول، حتى قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م. وألحق الكندي كتابه عن الولاة، بمؤلف عن القضاة حتى زمن القاضي بكار ٢٤٦ هـ / ٨٦١ م.

ولهذا الكتاب أهمية كبيرة من الناحية التشريعية، لما أورده المؤلف في أحوال كثيرة من أحكام قضائية هامة أصدرها القضاة.

وذيل على هذا الكتاب حتى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م أحمد بن عبد الرحمن بن برد، وكاتب مجهول حتى سنة ٣٤٧ هـ - ٤٢٤ هـ / ٩٥٩ - ١٠٣٣ م.

وقام على نشر هذا الكتاب R. gottheil

بعنوان : The History of the Egyptian gadis - Paris 1908.

على أن R. guest قام على نشره، وأضاف إليه ملحقاً من كتاب ابن حجر العسقلاني المعروف برفع الإصر عن قضاة مصر.

٤٤

ابو المحاسن:
مؤرخ من طراز فريد!

احتلّ أبو المحاسن مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزي والعيني، أواسط القرن الخامس عشر الميلادي. واسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الجويني، ومولده بالقاهرة في يناير سنة ١٤١١ م، بدار الأمير منجك اليوسفي، قرب مدرسة السلطان حسن، بحي القلعة الحالي. وكانت أمه جارية تركية من جواري السلطان برقوق؛ وأصل أبيه تغري بردي مملوك رومي (يوناني) جميل الطلعة، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن مماليكه، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه إلى فرقة الخاصكية، وهي إحدى فرق المماليك السلطانية. ثم أصبح تغري بردي موضع رعاية مولاه، فتقلد كثيراً من الوظائف الرفيعة في الدولة المملوكية، واشترك في حوادث ذلك العهد حتى وفاة السلطان برقوق سنة ١٣٩٨ م. وقام تغري بردي أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير في حياة الدولة المملوكية الثانية، ونهض بمسؤوليات كبيرة، إذ تولى نيابة دمشق، وهي أكبر النيابات في الدولة، وأسهم في مدافعة تيمورلنك عن مدن الشام، وانهزم منه مع السلطان إلى الديار المصرية. ثم تولى تغري بردي نيابة دمشق للمرة الثانية بعد جلاء التتر عن الشام، واتهم أثناء ولايته عليها بتهمة الخيانة العظمى، فشقّ عصا الطاعة وهرب إلى بلاد التركمان، حيث أقام مدة منفياً. ثم عفا عنه السلطان فرج بعد ذلك، وطلب إليه العودة إلى القاهرة، وولاه أتابكية العساكر بالديار المصرية؛ بل تزوج السلطان من كبرى بناته، واسمها فاطمة، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة؛ وما زال تغري بردي على نيابتها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م [ترجم أبو المحاسن لأبيه تغري بردي ترجمة وافية في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

(٦/ ٤٣٢ ـ ٤٣٥)]. وفي تلك السنة نفسها مات السلطان فرج قتيلاً بسيف الشرع، على يد الخليفة العباسي والقضاة الأربع والأميرين نوروز وشيخ؛ واعتلى عرش السلطنة المملوكية الثانية بعده ثاني هذين الأميرين، وهو المعروف باسم السلطان المؤيد شيخ.

وترك تغري بردي ستة أبناء وأربع بنات، منهن خوند فاطمة زوج السلطان المتوفي. وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأولاد والبنات جميعاً إذ توفي والده وهو في الثانية من عمره، فتولى تربيته قاضي القضاة ناصر الدين بن المديم الحنفي، وهو زوج أخته الثانية واسمها بيرم. ثم توفي ابن العديم، وتزوجت بيرم من قاضي القضاة جلال الدين البلقيني الشافعي، فأكمل البلقيني تربية الصبي إلى أن كبر وانتشى وترعرع. ثم توفي البلقيني سنة ١٤٢١ م، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر ممالك أبيه، فتعهدوه بما حاجه من رعاية وعيش وتعليم مدني وحربي.

وحكى أبو المحاسن عن نفسه أنه أدخل يوماً وهو في الخامسة من عمره إلى حضرة السلطان شيخ، بعد أن علّمه بعض مَنْ معه أن يطلب إلى السلطان أن يعطيه «خبزاً» ومعناه في مصطلح الدولة المملوكية إقطاع من الأرض؛ وهذه عبارة أبي المحاسن: «فلما جلست عنده وكلمني سألته في ذلك، فغمز من كان واقفاً بين يديه وأنا لا أدري، فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطاني، فأخذته من يده وألقيته إلى الأرض، وقلت: أعطِ هذا للفقراء، أنا ما أريد إلا خبزاً بفلاحين، يأتون بالغنم والأوز والأجاج، فضحك حتى كاد أن يغشى عليه، وأعجبه مني ذلك إلى الغاية، وأمر لي بثلاثمائة دينار، ووعدني بما طلبته وزيادة (النجوم الزاهرة: ٦/ ٤٣٠).

والواقع أن أبا المحاسن نشأ في بسطة من العيش، وليس من الحق قوله في موضع آخر من كتابه هذا إنه عاش فقيراً من غير مال ولا عقار بعد وفاة أبيه، لاستيلاء السلطان فرج فعلاً على جميع ما خلفه تغري بردى من ثروة ومتاع ـ وإقطاع طبعاً. ذلك أن أوصياءه كفلوا نفقته وتنشيئه وتعليمه على أحسن وجه، كما تشهد بذلك قائمة المشايخ الذين درس عليهم مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز، ومنهم المقريزي والعيني وابن حجر وابن عربشاه بالقاهرة، وابن ظهيرة، وابن العليف

بمكة، والرعشي وابن الشماع بحلب، وكثير غيرهم من أصلاء القرن الخامس عشر الميلادي بالشرق الأدنى من علماء المسلمين. على أنه أحبَّ التاريخ من دون العلوم التي درسها وأجيز له فيها، فلازم المقريزي - والعيني أيضاً - من أجل ذلك، ونهج نهجها، واتبع أسلوبهما ونمطهما في التحصيل والكتابة الغزيرة؛ واجتهد في ذلك إلى الغاية، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره، وهذا فضلاً عن معرفته باللغة التركية [وقد ذكر تفاصيل ذلك في مقدمة كتاب النجوم الزاهرة (١/٣ - ٢٨)].

غير أن تفضيل أبي المحاسن لدراسة التاريخ خاصة يرجع في الغالب إلى ما استقام للعيني بواسطته من المكانة السامية التي شغلها في بلاط السلطان برسباي، إذ طمح هو أيضاً في مثل ذلك لنفسه، بالوسيلة عينها لدى سلطان مقبل فلما مات المقريزي سنة ١٤٤٢ م، والعيني بعده سنة ١٤٥١ م خلا الجو لأبي المحاسن، ولم يوجد من ينازعه في زعامة المؤرخين في عصره. وأشار أبو المحاسن نفسه إلى ذلك في غبطة ورضى، وجسارة مشوبة بغرور، إذ كتب بصدد وفاة العيني: «ولما انتهينا من الصلاة على قاضي القضاة [العيني]، قال لي بدر الدين محمد بن عبد المنعم الحنبلي: خلا لك البرّ بيّض واسفر [والجملة دعابة لفظية مستمدة من عبارة «أبيضي وأصفري» المشهورة]. فلم أرد عليه، وأرسلت إليه بعد عودتي إلى منزلي ورقة بخط العيني هذا، يسألني فيها عن شيء سئل عنه في التاريخ من بعض الأعيان، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه، ثم أبسطَ في الشكر والمدح والثناء إلى أن قال: وقد صار المعول عليك الآن في هذا الشأن، وأنت فارس ميدانه وأستاذ زمانه، فاشكر الله على ذلك؛ وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة في سنة تسع وأربعين [أبو المحاسن في النجوم الزاهرة (٧/٣٦٦)؛ كذلك أول صفحة من كتاب (حوادث الدهور) حاشية (هـ) بتلك الصفحة] وثمانمائة»، أي قبل وفاة العيني بسنتين.

ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين في مصر لأبي المحاسن، فإنه لم يتفق له أن صار نديماً دانياً لسلطان من سلاطين المماليك، يقرأ له التاريخ في أمسياته، مثلما كان العيني مع السلطان برسباي. على أنه تقلد كثيراً من الوظائف في عهود مختلفة، وكان له من مولده وتنشيئه، وقراباته ومصاهراته وصداقاته، ما جعله من

روّاد البلاط السلطاني. ولذا كان أبو المحاسن من المختلفين إلى حضرة السلطان برسباي، حتى صحبه في حلقات الصيد والنزهة والسرحة؛ وحَسُنت صلته بالسلطان جقمق، حتى انتظمت زياراته مجلسه مرّة كل أسبوع، ضمن رجال العلم والأدب؛ وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة. بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان إينال، حتى إن زياراته لبلاطة لم تعدُ المرة أو المرتين في العام كله. ثم لم يلبث أن عاوده الحظ عند السلطان خشقدم الرومي، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبار. وعاش أبو المحاسن ليرى أوائل سلطنة قايتباي، وليكتب في حوادثها بما يدل على أنه لم يلق في بلاط ذلك السلطان عناية أو قبولاً.

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة ـ التي صرف معظمها وهو يحوم حول البلاط السلطاني ـ أن يكتب كثيراً في التاريخ والتراجم، وأن يبرع في فنون الفروسية، من لعب الرمح ورمي النشاب، وسوق البرجاس ولعب الكرة بالصوالجة (Polo)، وأن يحذق علم النغم والضروب والإيقاع، وأن ينظم الشعر في العربية والتركية، وأن يحج إلى مكة مرتين سنتي ١٤٢٢ و ١٤٤٥ م. وقام أبو المحاسن في حجته الثانية بوظيفة باش المحمل المصري، وهي أقل رتبة من وظيفة أمير المحمل؛ وجرَت العادة أن يكون لهذا الأمير رجلان في معيته يسمى أحدهما باش الميمنة، وثانيهما باش الميسرة، وكان قايتباي الذي تسلطن فيما بعد على الميسرة فحسب كما يقول السخاوي في التبر المسبوك في ذيل السلوك (ص ١٢٣).

أما مؤلفات أبي المحاسن فعددها اثنا عشر كتاباً على قول ابن الصيرفي وغيره ممن كتبوا ترجمته، وبقي بين أيدينا من هذه المؤلفات سبعة فقط، أشهرها كتابٌ عظيم في تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٤٦٧ م، واسمه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في سبعة مجلدات ضخمة. ويقال أن أبا المحاسن اختصر هذا المؤلف في مجلد واحد اسمه (الأنوار الظاهرة من الكواكب الطاهرة) غير أني لم أستطع العثور عليه حتى الآن.

وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجوّ محمد بن جقمق، الذي عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق ذلك الرجاء؛

وكان في عزم أبي المحاسن أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله، وأن يجعل منه ما جعل العيني من عقد الجمان (أبو المحاسن في النجوم الزاهرة، ٢٩٣/٧). وكثيراً ما يشير أبو المحاسن في ثنايا هذا الكتاب إلى كتاب آخر سبق له أن ألّفه، واسمه المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، وهو كتاب حافل بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى، من سنة ١٢٥٢ م إلى عصره؛ ورتّبه أبو المحاسن ترتيباً أبجدياً، وأراد به أن يكون ذيلاً وتكملة لكتاب الوافي بالوفيات، لخليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ١٣٦٢ م. ثم اختصر أبو المحاسن هذا المؤلف في كتاب سماه الدليل الشافي على المنهل الصافي، وجعل لهذا المختصر مختصراً سمّاه مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة، فجاء هذا الكتاب الأخير كالهيكل العظمي، لا يوجد فيه سوى تاريخ مقتضب للسيرة النبوية، يتلوه بيانات جافة بأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين والفاطميين، ومَنْ وليهم على مصر إلى سنة ١٤٣٨ م.

ولأبي المحاسن مؤلف آخر يُكثر من الإشارة إليه كذلك في كتاب النجوم الزاهرة، واسمه حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، وهو ذيل لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقريزي، وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب السلوك، أي أن أبا المحاسن بدأ به من حيث انتهى ذاك إلى سنة ١٤٥١ م. لكنه خالف المقريزي وغايره قليلاً في طريقته من الإطناب في الحوادث والاقتصار في تراجم الوفيات، فأطال في كل منهما ما استطاع إلى ما سبق له استيفاؤه في كتابيه الأولين، «لتكثر الفائدة من الطرفين»، على قوله في مقدمته لذلك الكتاب الأخير.

ومن مؤلفات أبي المحاسن كذلك كتاب اسمه نزهة الرائي في التاريخ، وكتاب البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، وهذان عدا كتب أخرى[١] لا صلة لها بصميم التاريخ، وهي كتاب نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب، وكتاب حلية الصفات في الأسماء والصناعات، وكتاب البشارة في تكملة الإشارة، وكتاب الإنتصار للسان التتار، وهو رسالة في معاني اللغة التركية، وكتاب في الرياضيات والموسيقى، وكتاب السكر الفاضح والعطر الفائح في التصوف وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب

في مكتبة الإسكوريال تحت رقم ٣٦٧ ولنا ملاحظة في هذا المجال وهي أن جميع الكتب التي ذكرناها لأبي المحاسن موجودة كاملة أو ناقصة، مطبوعة أو مخطوطة، في مختلف دور كتب العالم، وما عداه فغير مقطوع بوجوده حتى كتابة هذه الصفحات.

ونقدَ ابن الصيرفي والسخاوي مؤلفات أبي المحاسن في عنف وشدة، ورماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم يستشف القارىء في عبارتها شيئاً من الغيرة والحسد. ومن ذلك قول السخاوي، ونصه: «وبالجملة فقد كان [أبو المحاسن] حسن العشرة، تام العقل - إلا في دعواه فهو حمق -. . . لطيف المذاكرة، حافظاً لأشياء من النظم ونحوه، بارعاً حسبما كنت أتوهمه في أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم، منفرداً بذلك، لا عهد له بمن هداهم، ولذلك تكثر فيه أوهامه، وتختلط ألفاظه وأقلامه، مع سلوك أغراضه، وتحاشيه مجاهرة من أدبر عنه بإعراضه، وما عسى أن يصل إليه تركي! على حد قول السخاوي في «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» (١٠/٣٠٥ - ٣٠٨) وردّد ابن الصيرفي هذا المعنى، وزاد عليه أن أبا المحاسن كان «كلما فرغ من تصنيف يتوجّه به إلى من يعرف العربية، فيصلحه له ويصير له به مزية».

ومع هذا وغيره من أقوال المعاصرين يتجلّى من كتب أبي المحاسن أنه كان مؤلفاً واسع المعرفة، شديد التدقيق والتحري في كتابته، وأنه كان مجتهداً كدوداً، أميناً بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين في العصور الوسطى بالشرق والغرب، حين لم يكن النقل وانتحال الصفات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة. يضاف إلى ذلك أنه إذا أخذنا نقد أبي المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم في كتبه مقياساً لخلقه، وذكرنا قول ابن إياس فيه، وهو الذي خلفه في زعامة المؤرخين بمصر، وضح لنا حقاً أنه كان «رئيساً حشماً فاضلاً. . . له إشتغال بالعلم. . . مشغوفاً بكتابة التاريخ [ابن إياس في «بدائع الزهور» ٢/١١٨].

بدليل أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته في يونيو سنة ١٤٧٠م (*).

(*) راجع «المؤرخون» في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي، القرن التاسع الهجري للدكتور - محمد مصطفى زيادة، ص ٢٦، وما بعدها.

٤٥

محمد بن طولون: سيوطي من بلاد الشام!!

ابن إياس، والسيوطي، وعبد الباسط بن خليل الحنفي، وحسن بن حسين الطولوني، وابن زنبل، ومحمد بن طولون ـ وإذا كان ما لدينا من أخبار ابن إياس، والسيوطي والطولوني، وعبد الباسط وابن طولون تكفي لكتابة ترجمة مفيدة عن كل منهما فإن ما لدينا من أخبار ابن زنبل لا تكفي لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية على كل حال فالمراجع تضفي الآن أمامنا بأخبار محمد بن طولون الدمشقي آخر معاصري ابن إياس من المؤرخين والكتّاب، فضلاً عن ترجمة ذاتية كتبها ابن طولون لنفسه واسمها (الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون)، وأول طبعة لها منشورة عن دار مكتبة القدس والبدير بدمشق السورية، سنة ١٣٤٨هـ ـ وابن طولون بذلك يقلد السابقين من المعاصرين والمتقدمين كالسيوطي، وهي أربع وخمسين صفحة من القطع الصغير، لا يخرج القارىء منها بشيء كثير، خلاصتها أن ابن طولون ولد سنة ١٤٧٥ م في صالحية دمشق السورية، وأن أُمّه (أزدان الرومية) توفيت وهو في سن الطفولة الأولى، وتعلم ابن طولون على يد شيوخ دمشق، ومنهم عمه القاضي جمال الدين يوسف الحنفي مفتي دار العدل بها، والمؤرخ الدمشقي محيي الدين النعيمي، والمحدث جمال الدين ابن المبرد، ثم رحل ابن طولون في طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م، فسمع بها على الحافظ عز الدين بن فهد، وأجازه السيوطي إجازة بالمكاتبة من القاهرة.

وقرر ابن طولون في ترجمته الذاتية أن عدة شيوخه بلغت خمسمائة، وأن العلوم التي اشتغل بتحصيلها تزيد عن ٧٢ علماً، ومنها الحديث والكلام والأصول والنحو والصرف والمنطق، والطب والهيئة والهندسة، والمعاني والبديع والحساب،

والفرائض والعروض والفلك، والميقات واللغة والتاريخ والفقه والتصوف والتفسير. وأجازه مشايخه في بعض هذه العلوم الإجازة والإجازتين والثلاث، ولذا جاء ابن الطولوني كالسيوطي تماماً من حيث مشايخه وعلومه وبراءاته العلمية وسماعاته، بل أصاب المرحوم تيمور (باشا) حينما وصفه بأنه (سيوطي الشام).

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتعدى إلى مؤلفاتهما وأنواعها وقيمتهاكذلك، بل تزيد مؤلفات ابن طولون الدمشقي كثيراً عن مؤلفات صاحبه المصري، وهي واردة في ترجمته الذاتية ـ وفي غيرها من المراجع ـ في عدة صفحات بترتيب أبجدي لكثرتها. ومن هذه في التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق، ولا يوجد منه سوى قطعة صغيرة حديثاً، عثر عليها المستشرق رتشارد هارتمان بمكتبة جامعة توبنجن، ونشرها سنة ١٩٢٦. ولعله كتاب (عجب الدهر في تذييل من ملك مصر) أو كتاب (نزهة الناظر في معرفة الأواخر)، أو كتاب (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان). وكيفما كان الأمر، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول هي التي أهلت ابن طولون لأن يكون في عداد المؤرخين الذين يرجع إليهم في كتاب التأريخ المصري في العصور الوسطى؛ لانفرادها بحقائق تاريخية هامة في الفتح العثماني وأسبابه وحوادثه، واشتمالها على ما رآه مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق السورية، مما لم يره ابن إياس وهو بالقاهرة.

ولابن طولون في التاريخ كذلك كتاب (العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية) وكتاب (حور العيون في تاريخ ابن طولون) وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للبلوي المؤرخ المتوفى حوالي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. وعثر ابن طولون على تلك السيرة في دكان ورّاق، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العمرية بصالحية دمشق، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بتسعة قروش، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذي اعتبره جده الأعلى. وقد نشر الأستاذ/محمد كرد علي هذه السيرة الطولونية من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق وسد بنشره وتحقيقه هذا الكتاب ثغرة واسعة من ثغرات التاريخ المصري أوائل العصور الوسطى.

ولابن طولون كذلك كتاب (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) وكتاب (إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى) كما أن له في التراجم كتاب (سلك الجمان فيما وقع لي من تراجم ملوك بني عثمان)، وكتاب (النطق المنبي في ترجمة الشيخ المحيوي ابن العربي) وكتب (الاختيارات المرضية في أخبار التقى ابن تيمية) وكتاب (التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان). وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعي المعروف باسم (عنوان الزمان) وغير ذلك كثير في مختلف العلوم والمواضيع والصناعات.

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة، ومشارفة وفقاهة ومشيخة، بمختلف معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها، فكانت أوقاته معمورة تماماً، وظل على كثير من تلك الوظائف بالرغم مما جرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثماني، وكانت وفاته سنة ١٥٤٥م، ولم يعقب أحداً.

٤٦

مرضي الطرسوسي وللسلاح تاريخ!

هو صاحب كتاب «تبصرة أرباب الألباب، في كيفية النجاة في الحروب والأسواء، ونشر أعلام الأعلام، في العدد والآلات المعينة في لقاء الأعداء» الذي ما زال مخطوطاً بمكتبة بودليان، اكسفورد، في مجموعة ـ Hunt: 264 .

ومرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي: لم يعرف عنه إلا اسمه الوارد في صدر الكتاب، وخاتمته، وقد أشار في المقدمة إلى أنه ألّف الكتاب للناصر صلاح الدين، الذي يقاتل الصليبيين، مع العلم بأنه لم يشر إلى أنه ألّف الكتاب قبل استرداد صلاح الدين لبيت المقدس ١١٨٧ م. أو بعد ذلك.

ومما هو جدير بالملاحظة أنه جرى زمن الأيوبيين تصنيف مؤلفات، بإشارة السلاطين تعالج أوضاع البلاد من النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

ولعل المؤلف ينتمي إلى طائفة من الأرمن الذين استقروا بمصر في العهد الأخير من حكم الفاطميين. وكان فيما يبدو يعيش في الإسكندرية.

والواضح أن كتاب مرضي الطرسوسي في مجموعه ليس أصيلاً، إذ شمل مصادر عديدة أشار إليها المؤلف عند ذكر آرائهم وما بينها من الاختلاف.

ومن العسير أن نقرر ما إذا كانت أدوات الحرب التي وصفها المؤلف، تطابق ما كان معروفاً في زمنه من الأسلحة. ومع ذلك فإن إشارته إلى متولي دار السلاح في الإسكندرية في أواخر عهد الفاطميين، وإلى ما ردده هذا الموظف عن أدوات الحرب، يدل على أنها كانت معروفة في زمنه. وتناول المؤلف في خطبة الكتاب ما جاء عن الأسلحة في الأحاديث والأشعار والآداب، وما حدث من تطور لنظام الرماية،

ودراسة الهندسة، ثم تطرق إلى الإشـادة بصلاح الدين الأيوبي الـذي أهدى إليـه الكتاب.

وينقسم الكتاب إلى قسمين:

● القسـم الأول عن الأسلحـة: أورد أدوات الحـرب كـالسيف، والمعـادن المستخدمة في صناعة السيـوف ثم تلا ذلـك وصف القوس والسهـام والأوتار وفي الرماية، وشرح الرمح والتـرس والدرع والجـوشن، واللت والعمود والـدبوس، ثم وصف أنواع المنجنيقات، والدبابات والأبراج والستائر، وذكر المثلثات والنقوط.

● والقسـم الثاني عن الحرب وفنها: يتناول فيه ترتيب الجيوش.

وتتجلى أهمية هذا الكتاب، فيما تعرض له من الإلمام بأصول الفنون الحربية عند المسلمين والإشارة إلى ما كان معروفاً عند الفرنج وقتذاك من أسلحة.

٤٧

مسكويه:
وللأمم تجارب!

هو أبو علي أحمد بن محمد. صاحب كتاب «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» المطبوع بالقاهرة ١٩١٥ م ـ ١٩١٦ م. في ثلاثة مجلدات.

(والجزء الأخير من هـذا الكتاب عبـارة عن ذيل على كتـاب تجارب الأمم، للوزير أبي شجاع، وتليه قطعة من تاريخ هلال الصاني إلى سنة ٣٩٣ هـ).

كان جده مجوسياً ثم أسلم، لم نعرف إلا النزر اليسير عن حياته، وكل ما يصح معرفته عنه، أنه كان خازن كتب الوزير المهلبي، ثم ظفر بعطف الوزير ابن العميد، ثم ابنه من بعده، أبي الفتح، زمن عضد الدولة وصمصام الدولة بويه، وتقلد وظيفة بالري زادت من قدره ونفوذه. وعكف أول الأمر على دراسة الفلسفة والطب والكيمياء. واشتهر مسكويه بالصدق والأصالة فيما يورده من الروايات.

وفي كتابه في التاريخ المعروف بتجارب الأمم يتناول تاريخ الدولة العباسية منذ سنة ٢٩٥ هـ (خلافة المقتدر) حتى سنة ٣٦٩ هـ، وأسهب في شرح أحوال الدولة في تلك الحقبة، وما كان من نزاع بين العناصر المختلفة، ووصف النزعات الاستقلالية، والحروب مع الدول المجاورة، كالبيزنطيين. فضلاً عن اعتباره تاريخاً للدولة البويهية، ويعتبر من المصادر الأصلية لهذه الفترة الحاسمة من التاريخ الإسلامي ولا سيما فيما يتعلق بالنظم الإدارية والمالية والعسكرية. وتوفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وترجمه إلى الإنجليزية أيضاً في (٣) أجزاء ـ مارجليوث واميدروز.

Margoliauth and Amedroz

بعنوان: «The Eclipse of the Abbasid — Caliphate».

ونشر بلندن، ١٩٢٠ م ـ ١٩٢١ م.

٤٨

المسعودي: والذهب مروج!

هو أبو الحسن علي. صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المطبوع في مجلدين، ببولاق، سنة ١٢٨٣ هـ.

كان مولد المسعودي ببغداد من أسرة عربية، وشغف بالسفرِ منذ حداثته، فطاف بفارس، والهند، وسيلان، وسار بصحبة التجار إلى بحر الصين، وإلى زنزبار، وعمان. وبلغ في طوافه بحر قزوين، وفلسطين والشام ومصر، ومات بالفسطاط سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٦ م.

لم يكن يدفعه للسفر والرحيل ميله للمقامرة فحسب، بل الرغبة الصادقة في الاستزادة من العلم، فأحاط بما كان معروفاً في زمنه من المعرفة، كالفقه وأصول الدين، والفلسفة والسياسة، فضلاً عن ملاحظاته وتجاربه أثناء حله وترحاله.

وعلى الرغم من كثرة مؤلفاته، التي أوردها دي جويه في تصديره لكتاب التنبيه والإشراف (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية)، والتي ضاع معظمها، فإن شهرة المسعودي جاءت من اشتغاله بالتاريخ.

وتضمن كتابه في التاريخ، وهو المعروف بمروج الذهب، خلاصة ما كتبه في مؤلفه الضخم، أخبار الزمان، وكتاب الأوسط، ولم تصل إلينا منهما نسخ كاملة. وفرغ من تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، وراجعه في ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م.

واستهل الكتاب بذكر الخليفة، وبعد عرض قيم وقصير للأوضاع الجغرافية، للبلاد الواقعة على أطراف العالم الإسلامي، أخذ المسعودي يناقش أخبار الملوك والأمراء السابقين على الإسلام، في الشرق وفي الغرب، وفي البلاد العربية، وما كان

عندهم من ديانات، وأسهب في التاريخ الأسطوري لمصر، وأخبار عجائبها.

ثمَ جرى على النهج التقليدي في كتابه التاريخ الإسلامي، مبتدئاً بسيرة النبي، ثم الخلفاء الراشدين، وأعقب ذلك بتاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية، حتى سنة ٣٣٦ هـ.

ويشير المسعودي في خاتمة كتابه، إلى أنه أتى على أخبار كل عصر، وما حدث فيه من الأحداث، وما كان فيه من الكوائن، مع ما أسلف من ذكر البر والبحر والعامر منها والغامر، والملوك وسيرها، والأمم وأخبارها. إلى أن تجشم كثيراً من التعب في الحصول على الروايات، وأنه لم ينتصر فيه لمذهب، ولم يتعصب لقول، ولا حكى عن الناس إلا مجالس أخبارهم.

ونشر هذا الكتاب في باريس مع ترجمة بالفرنسية، في (٩) أجزاء، بين ١٨٦١م - ١٨٧٧م بعنوان:

Les prairies d'or.

وقام على هذا النشر:

C. Barbier de meynard et pavet de Courteille.

كما طبع الكتاب بالقاهرة سنة ١٣١٣ هـ.

وطبع أيضاً بالقاهرة في بولاق على هامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٣٠٣هـ). وطبع على هامش المقريزي: نفح الطيب. القاهرة، ١٣٠٢ هـ، جـ ١ - ٣.

٤٩

المقري:
واندلسنا الضائع!

هو أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المالكي. صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب». المطبوع في بولاق، ١٢٧٩، أربعة مجلدات.

وهو من رجال الأدب ومؤرخي التراجم بالمغرب. ولد في تلمسان سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ ـ ١٥٩٢ م)، وتوفي بالقاهرة ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م.

وينتمي المقري إلى أسرة اشتهر أفرادها بالعلم، في مقرة بالجزائر. وحظي بقسطٍ كبير من التعليم، وكان عمه من أهم العلماء الذين تتلمذ عليهم. وعين إماماً ومفتياً بجامع القيروان. ثم توجه إلى الشرق، ليؤدي فريضة الحج، وفي أثناء عودته حل بالقاهرة حيث أقام بها واتخذها له مقراً. مارس مهنة التدريس في مصر والشام، حيث درس الحديث. وعلى الرغم من طول مقامه بالشرق فإنه دأب على جمع المادة التاريخية لكتابهِ عن الأندلس، أثناء مقامه بمراكش ومقرة.

وبناءً على اقتراح السيد / أحمد بن شاهين بالمدرسة الجقمقية، ألّف كتابه عن الأندلس والوزير بن الخطيب، وهو المعروف باسم «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب». وهو مصنف كبير حوى فقرات واقتباسات عديدة في الأدب والشعر والتاريخ، استمدها من كتب مفقودة. وهذا هو السبب في أهمية هذا الكتاب، إذ يعتبر من المصادر الأصلية للأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى أيامها الأخيرة، بل إنه الكتاب العربي الوحيد الذي يصف هذا الإقليم الإسلامي في مرحلته التاريخية الأخيرة.

ويتألف نفح الطيب من قسمين:

القسم الأول: يتناول تاريخ الأندلس وآدابها.

القسم الثاني: عن ابن الخطيب.

ويشمل الأول جغرافية الأندلس، وفتح المسلمين لها، وعصر الولاة، عصر الأمويين وملوك الطوائف، ووصف قرطبة وتاريخها وآثارها، ورجال الأندلس الذين رحلوا إلى الشرق، ومَنْ قدم إلى اسبانية من المشارقة، ثم نماذج من تاريخ الأدب، وعن كل ما يتصف به الأندلسيون من خلال فكرية وخلقية، يضاف إلى كل ذلك فتح المسيحيين لاسبانيا وخروج العرب منها.

أما القسم الثاني فاشتمل على ترجمة لأجداد الوزير ابن الخطيب، وترجمة حياته، وتراجم لمدرسيه، ورسائل مسجوعة لكتاب الإنشاء في غرناطة وفاس، تلقاها ابن الخطيب أو أرسلها، ثم نماذج من آثاره في الشعر والنثر، وذكر مصنفاته.

وطبع نفح الطيب بالقاهرة أيضاً ١٣٠٢، ١٣٠٤، ١٣٥٤ هـ. (١٩٣٦ م).

وترجمه سنة ١٨٤٠م pascual de Grayangas.

إلى الإنجليزية بعنوان:

History of the Muhammadan Dynasties in spain

٥٠

المقريزي: بين الخطط والملوك

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني. صاحب كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك».

صدر الجزء الأول منه بالقاهرة، ١٩٣٤ - ١٩٣٩، والجزء الثاني ١٩٤١ - ١٩٥٨.

والمقريزي صاحب كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والمنشور عن مطابع بولاق، ١٢٧٠ هـ في مجلدين.

ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ/١٣٦٤م، وقام جده لأمه بتربيته وتعليمه على أصول الحنفية. ولم يلبث أن تحول إلى الشافعية وصار يهاجم الحنفية، ثم التحق المقريزي بالخدمة الحكومية، فكان كاتباً بديوان الإنشاء بالقلعة، ثم قاضياً، ثم إماماً ومدرساً للحديث، تولى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري، ثم انتقل سنة ٨١١ هـ/ ١٤٠٨م ناظراً للأوقاف والمارستان ومدرساً بدمشق. على أنه ترك دمشق وأعمالها بعد إقامة استمرت عشر سنوات فعاد إلى القاهرة ليعكف على الدراسة والاشتغال بالعلم. وأمضى بمكة خمس سنوات، بعد أن توجه إليها حاجاً، سنة ٨٣٤ هـ/ ١٤٣٠م/ ومات بالقاهرة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م.

يعتبر المقريزي مثالاً طيباً للمصنفين في العصور الوسطى، إذ كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع، كثير الدأب والمثابرة، فألم بالخطط والتاريخ والترجمة والسكة والأوزان والمقاييس والمعادن والطب والموسيقى والحشرات، فضلاً عن علم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث ولكن أعظم اهتمامه كان وموجهاً نحو التاريخ، لأنه كان مغرى به معنياً بتحقيقه والتأليف فيه.

وكتاب السلوك الذي ألفه المقريزي تاريخاً لدولة بني أيوب والمماليك، أتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ الهجري.

وما نشره الدكتور زيادة يؤلف جزأين من أربعة أجزاء.

وافتتح المقريزي مؤلفه بمقدمة طويلة في ذكر العصور السابقة، لموضوع مؤلفه، حتى زوال الدولة الفاطمية وتأسيس دولة الأيوبيين بمصر.

ومن هنا كان البدء الحقيقي لكتاب السلوك. فاستهله بشرح أصل صلاح الدين ومولده وقدومه إلى مصر واستقرار الأمر له بها.

ثم بدأ فجأة من سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م يكتب على نظام الحوليات، يورد حوادث كل سنة على ترتيب تاريخي تقريباً، ثم يختمها بالوفيات، ويضيف إليها أحياناً ما قد يفوته من أخبار أخرى. وانتهى في هذين الجزأين إلى سنة ٧٥٥هـ / ١٣٦٠م.

وعلى الرغم من استناد المقريزي إلى ما كتبه المؤرخون السابقون عليه، فإن ما أورده من حقائق وإرشادات لم تحوها مطولات المعاصرين.

إذ أنه نقل وأفاد كثير منهم، وزاد عليهم أحياناً من مراجع أخرى اندثرت، أو وثائق ديوانية لم يبق منها إلا ما حفظه المقريزي في كتابه.

والواضح أن المؤرخين الذين جاءوا بعد المقريزي نقلوا عنه أو اقتبسوا من كتاباته، دون الإشارة، في كثير من الأحيان إلى المصدر أو المرجع. وكان ذلك أمراً مألوفاً عند المؤرخين في العصور الوسطى.

ومن كتب المقريزي الهامة «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وصدر عن مطابع بولاق، ١٢٧٠هـ في مجلدين.

وهو كتاب عني فيه صاحبه قبل كل شيء بدراسة الخطط، حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن. على أنه يظهر أن المقريزي اعتمد، إلى حدّ كبير في تأليف هذا الكتاب على كتاب صنفه قبله الأوحدي المؤرخ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يعترف به.

وصدَّر المقريزي هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق مبتدئاً بالإسكندرية، وعني عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة، فجاء الجزء الثاني منه، وهو نصف الكتاب ثَبْتاً زاخراً بأحوال القاهرة وأخبارها، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى، فشرح ما تحتويه القاهرة من الأخطاط وما يقع من الآثار، فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والفيساريات والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين والقلعة وما بها من منشآت، والجوامع والمساجد، والمعابد، والمقابر، وأرباب المذاهب الدينية المختلفة. وحرص المقريزي على أن يستند في وصفه إلى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخي، فاحتوى كل فصل على ما يلائمه ويشاكله من الأخبار، فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر. ولم يتردد المقريزي في تكرار الخبر إذا احتاج إليه. بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب.

وقام البحاثة Wiet على نشر الكتاب نشراً علمياً، فأعاد طبع أجزاء منه في القاهرة في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار المصرية: ١٩١١ - ١٩٢٣، ونشر أيضاً بالقاهرة في أربعة أجزاء ١٣٢٤، ١٣٢٥هـ.

مؤرخون مجهولون
من العصر العثماني

بدأت حركة التأليف التاريخي في مصر الإسلامية، بابن عبد الحكم صاحب كتاب «فتوح مصر والأندلس» ثم نشطت هذه الحركة بعد ذلك نشاطاً عجيباً لم تشهده بلد من البلاد الإسلامية، وأنتج المؤرخون المصريون إنتاجاً ضخماً وألفوا في معظم الفنون التاريخية بمختلف تآليفها، وظلت هذه الحركة نشيطة عصراً بعد عصر، وتتابع المؤرخون المصريون قرناً بعد قرن، وكل منهم يضيف إلى جهد سابقيه، إما تكملة أو تذييلاً أو إضافة أو ابتكاراً، حتى إذا كان القرن الخامس عشر الميلادي وجدنا أن حركة التاريخ في مصر الإسلامية بلغت أوجها ووصلت الذروة من حيث وفرة الإنتاج وتنوعه، ومن حيث عدد المؤرخين العظام الذين ظهروا في هذا القرن.

ـ ولعل السمة الظاهرة التي تميز مؤرخي مصر في هذا القرن أنهم كلهم مؤلفو موسوعات، وأنهم جميعاً وافرو الإنتاج، ويكفي أن نشير هنا إلى أسماء بعضهم من أمثال:

ابن خلدون، والمقريزي، وابن حجر، والعيني، وابن تغري بردى، وابن الصيرفي، والسخاوي، والسيوطي وابن إياس المصري . . . إلخ[1].

ـ وكان آخر من عرفته مصر من المؤرخين في نهاية العصر المملوكي: ابن إياس، وابن زنبل الرمال، وهما مؤرخان لهما قدرهما، فقد شهدا نهاية عصر

(١) نراجع في ذلك الدكتور جمال الدين الشيال وكتابه تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٢٣.

ونراجع لنفس المؤلف كتابه تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية.

المماليك ـ عصر الاستقلال ـ وبداية العصر العثماني عصر التبعية والغزو الخارجي ـ وقد أرخا للفتح العثماني في كتابيهما تاريخاً له قيمته.

وقد شهد الشرق الأوسط الإسلامي في بداية القرن السادس عشر تغيراً أساسياً، فقد نجح الأتراك العثمانيون في القضاء على دولة المماليك في مصر والشام، وفي الانتصار على الدولة الصفوية، ونتيجة لهذا الانتصار المزدوج ضمت مصر والشام، كما ضم العراق إلى أملاك الدولة العثمانية، وأصبحت القسطنطينية بعد انتقال الخلافة الإسلامية إليها مركز الثقل، ومحور الارتكاز في العالم الإسلامي.

ولعل هذا يفسر لنا بعض التفسير ركود الحركة العلمية بوجه عام وحركة التأليف التاريخي بوجه خاص ـ في مصر طيلة القرون الثلاثة التي خضعت فيها للحكم العثماني، فقد أصبحت القسطنطينية مركز النشاط العلمي في العالم العثماني، فهي مقر السلطان والخليفة بل هي عاصمة الدولة الإسلامية، والدولة كانت تركية اللسان فمن البديهي إذن أن تنشط حركة التأليف بين علماء الأتراك، وباللغة التركية، وأن تضعف حركة التأليف باللغة العربية، يضاف إلى هذا أن السلطان سليمان الأول كان قد صحب معه حين خروجه من مصر عدداً من كبار العلماء وكل ماهر في فن أو صنعة، كما حمل من معظم ما كانت تزخر به مكتبات القاهرة من نواد، الكتب والمؤلفات. ولهذا لا نعجب إذا لاحظنا أن حركة التأليف التاريخي التي ظهرت وظلت مستمرة متصلة من ابن عبد الحكم إلى ابن إياس المصري قد انقطعت خلال هذه القرون العثمانية الثلاثة، فلا نجد مؤرخاً مصرياً له شأن أو قيمة بعد ابن إياس المصري اللهم إلا إذا اعتبرنا صوفياً جليلاً كالإمام الشعراني[1] مؤرخاً حين يكتب كتابه الشهير «الطبقات الكبرى» في تراجم الصوفية[2]. ويستمر هذا الفراغ ملحوظاً إلى أن يقرب القرن الثامن عشر من نهايته.

إلا أن جهداً رائعاً قد بذل بغض النظر عن سلبياته المنهجية خلال هذه الفترة ونعتقد أن هذا الجهد التاريخي ننفرد نحن في هذه الدراسة الموجزة بإبرازه وإلقاء الضوء عليه

---

(١) لمزيد من المعلومات عن الشيخ إسماعيل الخشاب نراجع كتاب الجبرتي، عجائب الآثار، جـ ٤، ص ٢٥٤.

فخلال العصر العثماني ظهر بمصر عدد من المؤلفين الذين كتبوا في التاريخ، ولكنهم في جملتهم لا يستطيعون أن يرقوا إلى مرتبة مؤرخي القرن الخامس عشر أو القرون التي قبله، ولكن ذلك لا يعني إنكار جهدهم بل إنه من المفيد لأي متتبع لتطور الحركة التأريخية قبل القرن التاسع عشر ـ أن نشير إلى بعض هؤلاء المؤرخين وإلى إنتاجهم.

١ ـ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، عاش في القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) وتوفي سنة ١٠٨٧ هـ، وله ثلاثة كتب تاريخية نأمل بجهدنا المتواضع أن نخرجها للنور قريباً:

(أ) «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» وفيه يؤرخ لولاة مصر وقضاة العسكر في العصر العثماني إلى سنة ١٠٥٤ م.

(ب) «عيون الأخبار في نزهة الأبصار»، وهو تاريخ مختصر لمصر والدول التي تعاقبت على حكمها إلى آخر عصر المماليك الجراكسة.

(ج) «المنح الرحمانية في الدولة العثمانية» وفيه يؤرخ لسلاطين آل عثمان وينتهي إلى سنة ١٠٢٩ هـ [1].

٢ ـ الإسحاق المنوفي: (محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح).. وهو من رجال القرن الحادي عشر (١٧ م) كذلك ترجم له المحبي فقال عنه: إنه كان قاضياً فاضلاً، وعالماً مؤرخاً، كثير النظم، صحيح الفكرة، وله تاريخ لطيف، ورسائل كثيرة قرأ ببلده على شيوخ كثيرين، وكان يتردد على مصر، وأخذ بها عن أكابر علمائها، وتوفي في نيف وستين وألف ببلده منوف، وله كتاب تاريخي سماه: «لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» ورتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، وأرخ فيه لمن ولي مصر من حكام منذ الفتح العربي إلى أوائل القرن الحادي عشر، وانتهى من تأليفه سنة ١٠٣٣ هـ، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة أكثر من مرة

---

(١) عن العلامة «ريج» تحدث الدكتور الشيال في كتابه: تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، القاهرة ١٩٥١ م).

طبعات مختلفة في السنوات ١٢٧٦ هـ ، و ١٢٩٦ هـ و ١٣٠٠ هـ .

٣ ـ **الجزري الحنبلي**: (عبد القادر الأنصاري)، وهو من رجال القرن العاشر (١٦ م) وقضى معظم حياته موظفاً في إدارة الحج بالقاهرة، وصحب قافلة الحج من مصر إلى الحجاز سنوات كثيرة، وألف في سنة ١٥٥٤ م كتاباً بعنوان «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج، وطريق مكة، المعظمة». والكتاب يشبه أن يكون مذكرات شخصية خاصة بالرجل، إلاّ أنه ضمنه معلومات قيمة كثيرة عن أخبار الحج ومنازله وكيفية الرحيل والنزول والإقامة، كما أرّخ فيه لمن حج بالناس من الخلفاء والصحابة والأمراء والأعيان من مختلف البقاع، والأماكن، كما شرح الجزري مناسك الحج على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ورتب الحوادث فيه على السنين الهجرية، وتوجد من هذا الكتاب نسخة ناقصة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، ومنه نسختان لم يشر إليهما بروكلمان:

إحداهما: في المكتبة التيمورية بالقاهرة والتي آلت ملكيتها للهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الدار القومية للوثائق (المخطوطات).

الثانية: وهي أكثر أهمية من وجهة نظرنا وذلك لأنها بخط الجزري الحنبلي وهذه النسخة توجد في مكتبة الأزهر تحت رقم ٢٨٤٤ / تاريخ.

وهنا ملاحظة يجب الإشارة إليها ألا وهي أن المصريين كانوا هم السابقين إلى وضع كتب تترجم لرجال قرن بأكمله، بدأ هذا النوع من كتب التراجم ابن حجر العسقلاني، حين ألف موسوعته ذائعة الصيت: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» ـ ثم أتى تلميذه السخاوي فألف كتابه «الضوء اللامع في تراجم أعيان القرن التاسع».

وهنا يجب ألا ننسى جهد الأدفوي المصري الذي حاول أن يترجم لأعيان نهاية القرن التاسع وبدايات القرن العاشر.

ثم انقطع هذا اللون من ألوان التأليف التاريخي من مصر في العصر العثماني، وانتقل إلى أيدي المؤرخين السوريين، فألفوا كتباً ثلاثة ضخمة للترجمة للرجال الذين

عاشوا في قرون العصر العثماني الثلاثة: (العاشر والحادي عشر، والثاني عشر).

١ ـ أرخ الغزي (نجم الدين محمد بن محمد) لرجال القرن العاشر في كتابه: «الكواكب السائرة في تراجم أعيان المائة العاشرة».

٢ ـ أرخ المحبي لرجال القرن الحادي عشر في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»

٣ ـ وأرخ المرادي لرجال القرن الثاني عشر في كتابه «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر». وحاول مؤرخ مصري (من رجال القرن الرابع عشر الهجري) هو العلامة أحمد باشا تيمور إتمام السلسلة فيما بعد بالترجمة لرجال القرن الثالث عشر، ولكن للأسف لم ينجز من مؤلفه هذا إلا قسماً يسيراً وهو الذي طبع بعد وفاته بعنوان: «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر» وطبع بالقاهرة سنة ١٩٤٠ م[١].

نعود لنجد القرن الثامن عشر قد قرب من نهايته، وتبدأ مصر محاولة الاستقلال والانفصال عن جسم الدولة العثمانية على يد علي بك الكبير[٢]، وتمهد هذه اليقظة إلى نهضة علمية تظهر ولكن على استحياء، ويظهر عدد من العلماء والأدباء والمفكرين ذوي نشاط ملحوظ فنسمع عن العلامة السيد مرتضى الزبيدي[٣] ـ صاحب المعجم الشهير: «تاج العروس في شرح القاموس» و «شرح كتاب الإحياء للغزالي» وغيرهما من الكتب المفيدة ووفيرة العدد.

ونسمع عن شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوي الذي يقول شعراً فيه لمحة من لمحات التجديد.

ونسمع عن الشاعر الناثر إسماعيل الخشاب، ونسمع عن العلامة الأديب حسن الجبرتي، ونسمع عن الأديب الناقد حسن العطار، وهو شيخ من شيوخ الأزهر له ولع

---

(١) الجبرتي في عجائب الآثار جـ ٤ ص ٢٥٦.

(٢) الجبرتي، في عجائب الآثار: جـ ٣، ص ١٤٤ ـ ١٤٥. وجـ ٤، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٣) جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤، ص ١٢.

بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية وخاصة في علمي التاريخ والجغرافية ثم نسمع أخيراً عن عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المعروف[1].

والشيخ الجبرتي صاحب «عجائب الآثار» هو الذي سيصل ما انقطع من حبل الحركة التأليفية التاريخية فهو أول مؤرخ مصري يظهر بعد ابن إياس، وابن زنبل، وبعد أن خلت مصر من المؤرخين الكبار ثلاثة قرون كاملة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٢) الأب لويس شيخو في كتابه: آداب اللغة العربية في القرن ١٩، ج ١ ص ١٥ ـ ١٦.

(٣) **Roussau** : Kleber et Menou en Egypte. p 375 — 377.

ونراجع أيضاً: Riganit: La general **Abdlla** Menou et La dernière phase de l'Egypte — edition d'Egypte p. 161.

(٤) الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده في كتابه: تاريخ الوقائع المصرية ص ٦.

والدكتور جمال الدين الشيال في كتابه: تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، ص ٢٤، ٢٩.

(٥) المرجع السابق للدكتور إبراهيم عبده، ص ٥.

٥١

ابن مماتي :
وللدواوين قوانين

هو الأسعد بن المهذب. صاحب كتاب «قوانين الدواوين» الذي نشره عزيز سوريال عطية، بالقاهرة، ١٩٤٣ م.

وينتمي ابن مماتي إلى أسرة من نصارى أسيوط، ولي أفراد منها مناصب هامة في الإدارة المصرية زمن الفاطميين والأيوبيين. وتولى أبوه ديوان الجيش في أواخر عهد الدولة الفاطمية وأوائل عهد الدولة الأيوبية، واعتنق الإسلام هو وأولاده، وخلفه ابنه الأسعد مؤلف هذا الكتاب على ديوان الجيش، وأضاف إليه صلاح الدين وابنه العزيز، ديوان المال. واختص بصحبة القاضي الفاضل. على أنه تقرر عزله ومصادرة أملاكه، فلجأ إلى حلب فحباه بفضله صاحبها غازي بن صلاح الدين، وبقي بها حتى مات سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م - ١٢١٠ م).

ولابن مماتي تصانيف عديدة لها فائدة علمية. ولعل أهم كتبه قوانين الدواوين، الذي صنفه للعزيز بن صلاح الدين، تناول فيه كل ما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها، وكان يقع في أربعة أجزاء ضخمة، ثم جرى اختصاره، في هذا المؤلف الذي بين أيدينا.

وأورد ابن مماتي في مؤلفه، ذكر أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحتها وقانون ريها ومتحصلها من عين وعلة.

والموضوعات التي يعرض لها المؤلف تشمل، وصف جغرافية مصر زمن الدولة الأيوبية، حيث أشار إلى حدود مصر وإلى النيل، والأقاليم والنواحي، وعالج الضياع والكفور والجزائر، والترع والجسور وكل ما يتصل بالديوان.

ثم تصدى المؤلف إلى كثير من المسائل المتصلة بنظم الحكومة الأيوبية فاستعرض وظائف الدولة واختصاص كل منها، وشرح موارد البلاد ونفقاتها، ثم أسهب في ذكر أنواع الأراضي والفصول الزراعية وأنظمة الري، وتدل هذه المعلومات على ما بلغته الزراعة والفلاحة من التقدم في العهد الأيوبي على أن ابن مماتي اكتفى بالإشارة إلى الوحدات المالية، ولم يلجأ إلى تفصيل عبرات البلاد ومساحاتها، لأنها من أسرار الدولة التي لا يجوز إذاعتها بين الناس ويبدو أن ابن مماتي كان له نشاط آخر، كان يعمل مقاولاً أو له اتصال وثيق بالمقاولين الذين كانوا ينفذون بناء قلعة صلاح الدين.

وكان نفر من هؤلاء يقومون بغش مواد البناء وعدم الالتزام بالمطلوب منهم.

وقد واجه بهاء الدين قراقوش هؤلاء بشجاعة نادرة وتصدى بوجه عام لكل أساليب الغش والتسيب والانفلات والرشوة والمحسوبية. . . .

ويبدو أن ابن مماتي لم تعجبه هذه الطريقة التي لا تتفق مع أغراضه الكسبية ومن هنا قاد ابن مماتي حملته ضد قراقوش واتهمه بالتعسف والاضطراب، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك أبداً.

ولعلنا نتذكر «الفاشوش في حكم قراقوش» هذا الكتاب الذي شوه صورة الوزير الحاسم قراقوش والذي ينسب لابن مماتي.

٥٢

الصابىء:
بين الأمراء والوزراء

هو أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي. صاحب كتاب «تحفة الأمــراء في تــاريــخ الــوزراء» و«مــا تبقى من كتــابــه في التــاريــخ». بتحقيق هـ. ف ـ اميدروز ونشر في بيروت، ١٩٠٤م.

كـان مولـده سنة ٣٥٩ هـ، وكـان صـابئـاً كـأهـل بيتـه، ثم اعتنق الإسـلام سنة ٣٩٩ هـ، وكانت أمه أخت المؤرخ الطبيب / ثابت بن سنان بن قرة. كان كاتباً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف. مات سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م.

لم يبق من أعماله سوى ما نشره أميدروز، سنة ١٩٠٤م، من أجزاء تشمل كتاب التاريخ، وهو عبارة عن تذييل لكتاب صهره ثـابت بن سنان، ويعـالج مـا وقع من الأحـداث بين سنـة ٣٦٠ هـ، وسنـة ٤٤٧ هـ. ومـا نشــره أميـدروز اقتصــر على السنوات ٣٨٩ ـ ٣٩٣ هـ.

وكان لهذا الجانب المنشور من القيمة ما أثار الأسى لما فقد منه.

وعلى الرغم من أنه يعالج ما وقع من الأحداث في بغداد، فالواضح أنه أفاد من الوظيفة التي تقلدها، وهـي كاتب الإنشاء، فيما توافر له من الوثائق الأصلية، وما ترامى إليه من الروايات، وما استطاع أن يجمـع الأحداث وينسقهـا في لغة عـربية سليمة، بأسلوب رصين، وعبارة دقيقة.

أما كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» فإنـه، حسبما أشـار المؤلف في مقدمته، ليس إلا تذييلاً على ما كتبـه على هذا الموضوع كل من الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ هـ، والصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ/٩١٦ م.

وهذا الجزء المطبوع من كتاب الوزراء يعالج الأفراد والأحداث الواقعة زمن وزارة ابن الفرات، والوزيرين اللذين خلفاه، وهما ابن خاقان، وعلي بن عيسى بن داود. ويشير المؤلف في المقدمة إلى أن الغرض، وهو ذكر أخبار الوزارة في رواية متصلة غير منقطعة.

وظهرت طبعة أخرى لكتاب الوزراء، قام على تحقيقها ونشرها بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م، الأستاذ المرحوم / عبد الستار فراج.

٥٣

ابن واصل:
واخبار بني ايوب

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم، . صاحب كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب».

رأيت منه (٣) أجزاء بتحقيق أستاذنا الدكتور / جمال الدين الشيال، في القاهرة.

كان مولد ابن واصل بحماة السورية ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م. برع في علوم كثيرة، مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه الإسلامي وعلم الهيئة والتاريخ.

كان أول الأمر مدرساً بحماة، ثم استدعاه الظاهر بيبرس السلطان المملوكي، وكلفه بالسفارة إلى صقلية، إلى الملك مانفرد، فمكث بها زمناً غير قصير، ومن نتائج هذه السفارة العلمية الموجز الذي ألفه ابن واصل في المنطق[١]. وأورد إسماعيل بن علي بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي المعروف بأبي الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) وصفاً ممتعاً لرحلة ابن واصل في إيطاليا، ومنه الحديث في أحداث ٦٩٧ هـ. ولما عاد عيِّن قاضياً للقضاة ثم مدرساً بحماة، حيث مات سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م.

ومؤلفه عن الأيوبيين، الذي لم ينشر منه إلا ثلاثة أجزاء، يعتبر من أهم المصادر التاريخية في هذه المرحلة الحاسمة، في العلاقات بين الشرق والغرب.

وتناول في الجزء الأول دراسة الزنكيين، وأفرد الجزء الثاني لصلاح الدين، واختص خلفاء الدين بالجزء الثالث، وعلى الرغم من اعتماد ابن واصل على روايات المؤرخين السابقين، وانتهاج طريقهم في التأليف التاريخي، بالتزام نظام الحوليات،

فإن ما يورده من رسائل ووثائق، ووصف ما كانت عليه أحوال الفرنج ، وأحوال العالم العربي والإسلامي في زمنه، يعطي صورة واضحة لدارس التاريخ في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك أن بعض ما أشار إليه من تقسيم دولة صلاح الدين، وما تعرضت له وحدة العالم الإسلامي من التداعي ، وما كان للصليبيين من أغراض تجارية، كل ذلك يجعل لكتاب ابن واصل أهمية بالغة في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب، والتعرف إلى الديبلوماسية بين السلاطين والأباطرة البيزنطيين، والإحاطة بما يجري من أحداث في البلاد المجاورة.

وتناولت الأجزاء الثلاثة ما وقع من الأحداث حتى وفاة العادل أيوب سنة ٦١٥ هـ.

أما الثلاثة أجزاء التالية فتؤرخ للفترة الواقعة منذ هذا التاريخ إلى قيام دولة المماليك، سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م.

٥٤

يحيى بن سعيد الأنطاكي: وذيل التاريخ !

هو صاحب كتاب «ذيل التاريخ» المنشور في بيروت سنة، ١٩٠٩م.

وهو من أقارب سعيد بـن البطريق، ولد بأنطاكية سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢م حيث درس بعض المؤلفات الشهيرة. واستهل ابن سعيد هذا كتابه بهجرة النبي ﷺ، وانتهى فيه عند سنة ٤٢٥ هـ، عالج في هذا الكتاب ما وقع من أحداث سياسية وعسكرية وديبلوماسية في الدولة البيزنطية، والخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، وأشار إلى ما كان من العلاقات بين بطريركيات الإسكندرية وإنطاكية والقسطنطينية، وإلى حروب الدولة البيزنطية في البلغار، وما وقع من الفتن والاضطرابات الداخلية.

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى حرص المؤلف على أن يصف حياة المجتمع والعلاقات بين العناصر المختلفة في هذه البلاد التي تعرض لها.

ودأب أيضاً على أن يورد نصوص قرارات المجامع الدينية، والعهود والهدنات التي تقـررت بين الأطراف المختلفـة، وعالـج الأحوال الاقتصـادية ولا سيمـا عند اضطراب أحوالها بسبب انخفاض النيل أو سلوك بعض الخلفاء.

وأشار الأنطاكي إلى ما حدث من امتداد حدود الدولة البيـزنطيـة زمن الأسرة المقدونية.

ولما لهذا الكتاب من أهمية، اعتبـره من المصادر الأصليـة، كل المـؤرخين البيزنطيين، الذين حرصوا على أن يطابقوا بين ما يورده من روايات، وما انطوت عليه كتابات البيزنطيين من أخبار، يضاف إلى ذلك ما يلمسه المؤرخ في هذا الكتاب من إدراك سليم عند مؤلفه، لطبيعة العلاقات وقتذاك بين الأمراء والملوك والأباطرة في الشرق والغرب.

٥٥

اليونيني: ومرآة الزمان

اسمه موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين صاحب كتاب: «ذيل مرآة الزمان» والذي طبع لأول مرة في حيدر آباد الهندية ١٣٧٤ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ م في مجلدين.

أصله من بعلبك اللبنانية، ولد سنة ٦٤٠ هـ، وعاش في دمشق، وتلقى العلم عن جماعة من شيوخها، ثم صار شيخ بعلبك بعد وفاة أخيه.

كان فاضلاً مليح المحاضرة، معظماً جليلاً، شديد المروءة والكرم. وتوفي سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦م. له مختصر مرآة الزمان، في جزأين، تناول أحدهما أحداث سنوات ٤٩٣ـ ٤٩٩ هـ وفي الثاني عالج الفترة من ٥٩٠ هـ إلى ٦٥٤ هـ.

أما ذيل مرآة الزمان فيقع في ٤ مجلدات، نشر منها مجلدان، الأول: يورد الوقائع من سنة ٦٥٤ هـ إلى اثناء ٦٦٣ هـ، ويشمل المجلد الثاني ما جرى في السنوات من ٦٥٨ إلى ٦٧٠ هـ ويشير في مقدمة المجلد الأول إلى المؤلف وقف عند سنة ٦٥٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها، فآثر اليونيين أنه يذيل بما يتصل به سببه إلى حيث يقدره الله تعالى من الزمان.

والواضح أن الدارس لهذا الكتاب، يدرك ما دأب عليه المؤلف من الإطالة في بعض المواضع، والاقتصاد في بعضها، غير أن المؤلف يبرر ذلك بأنه جمع هذا من أفواه الرجال، ونقله من خطوط الفضلاء.

وهذه الفترة التي يعالجها كتاب ذيل مرآة الزمان، حافلة بما حدث من تغييرات سياسية واقتصادية وعسكرية في العالم العربي، فضلاً من تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين، ومن هنا جاءت سوء أهمية هذا الكتاب، عند مقارنته بالمصادر المعاصرة في الغرب للحروب الصليبية.

٥٦

اليعقوبي[1]:
بين الرحلة الجغرافية والموسوعية التاريخية

دعوة: تراث كل أمة: هو رصيدها الباقي وذخيرتها الثابتة والمعبرة عما كانت عليه من تقدم وحضارة، فالأمم بماضيها قبل أن تكون بحاضرها، ولكي تبني على الماضي العتيد حاضرها الوطيد، والتراث ـ لا شك ـ هو وسيلتها إلى هذا الوجود.

وفي هذة الترجمة نتناول كنزاً من كنوز التراث إنه كتاب (البلدان) للرحالة العربي (اليعقوبي) وبالطبع (البلدان) غير (معجم البلدان) لياقوت الحموي، وسنحاول قدر الطاقة أن نتجول في رحلة هذا الكتاب ونستنتج قدر الاستطاعة الملامح الشخصية والفكرية لمؤلفه من خلال الكتاب.

ما زال تراثنا العربي الإسلامي في حاجة ماسة إلى جهد علمي منظم كي يخرج بدراسته اللامعة إلى شبابنا الباحث عن ثقافة عربية أصيلة تأخذ بيده بعيداً عن الضلال الفكري والتطرف العقائدي. . . وبواكير هذا الجهد يجب أن تبدأ بالتنسيق بين الجهات المعنية بهذا التراث وقياداتها التي يجب أن تكون من أهل الخبرة والدراية والعلم الغزيز كي لا يحدث كما نسمع ونرى كل يوم من خروج تراثنا إلى البلاد هباءً منثوراً وسيكون ذلك على فكرنا يوماً عبوساً قمطريراً!!

---

(١) اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (اليعقوبي)، طبع كتابه (البلدان) لأول مرة بمدينة ليدن، بمطبعة بريل ١٨٩٢ م وهو القسم الثاني من المجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية التي نشرها دي جويه (من صفحة ٢٣٢ إلى صفحة ٣٧٣).

وقبل ذلك في سنة ١٨٦١ م طبع نفس الكتاب بعناية المستشرق جوينجول في ليدن.

ثم ظهرت له في سنة ١٩٣٧ ترجمة فرنسية بقلم جاستون فييت تحتوي على كثير من الهوامش والتعليقات.

عفواً ـ أيها القارىء المفضال ـ على هذا التقديم فرجلنا الذي نصاحبه اليوم قد يسمح لنا بهذا الاستطراد لأنه مثلنا يحب العروبة والإسلام وتراثهما المتفرد رجلنا هو اليعقوبي وكتابنا هو (البلدان) إنه درة من درات هذا التراث، اليعقوبي العلامة المسلم (أحمد بن واضح) والمتوفى سنة ٢٨٤ هـ في رأي الأغلبية من الرواة. هذا المخطوط طبع وأقول فقط ولم يحققه تحقيقاً علمياً سليماً وفقاً للمنهجية العلمية في تحقيق التراث ـ طبع هذا الكتاب مرتين.

الأولى: في ليدن سنة ١٨٦١م أشرف عليه المستشرق (جوبنول)، ونفس الطبعة أعادها المستشرق (ديجويه) في جملة المكتبة الجغرافية الذي طبع فيها ثمانية مجلدات.

الثانية: طبعة الحيدرية بالتحف العراقية وهذه الطبعة أعيدت ثلاث مرات ولكن هذه النسخة التي وجدناها بعد مشقة هي الطبعة الثالثة وهي طبعة رديئة جداً وتاريخ طبعها ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧م.)

مؤلفنا هو أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، الكاتب الاصبهاني، الاخباري، المحدث. وكان يقال له مولى بني العباس، وكان هو بحاثة في الجغرافية والتأريخ، وأخبار البلدان، ولقد أعطى التنقيب حقه في سياحته في البلاد شرقاً وغرباً، ودخل بلاد فارس (إيران) وأقام في سياحته طويلاً في منطقة آسيا الصغرى، والبلقان، وبحر قزوين وكان فيها ٢٦٠ هـ، ثم دخل شبه الجزيرة الهندية (جنوب شرق آسيا)، ثم بلاد العرب إلى الشام العربية: فلسطين والخليل والقدس، الأردن، سوريا، لبنان، ثم المغرب العربي: ليبيا ـ الجزائر ـ مُراكش ـ تونس عن طريق مصر، وأغرق الرجل نزعاً في البحث الجغرافي فطفق يسأل أهل الأمصار عنهم وعنها، يسألهم عن عاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، ومللهم، ونحلهم، وطعامهم وشرابهم، وحكوماتهم، وعن المسافات بين بلادهم والبلاد المجاورة، فإذا وثق بالأقوال عن أكثر من ثقة سجل ذلك في كتاباته.

واليعقوبي يذكر الفتوحات للبلاد: إسلامية وغير إسلامية، وكيفية هذه الفتوحات، ويسجل لنا أسماء الخلفاء والأمراء والمشايخ والقادة الذين دخلوها أو

فتحوها وتحدث عن ثرواتها الاقتصادية ودخولها ومبلغ خراجها، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلّاوقف عليها وأحصاها في كتابه البلدان.

وبناءً على ما سبق نؤكد أن (كتاب البلدان) لليعقوبي أقدم مصدر جغرافي وأوثقه لما يحمل في طياته من جهدٍ دؤوب وجادّ سبق عصره، فيه العناية والتوثيق العلمي الذي نتباهى به ـ نحن أهل العصر الحديث، فيه حسن البلاء، والدقة والأمانة الدالة على جهده الملتزم وعنائه من أجل العلم والمعرفة.

ـ كان نبوغ اليعقوبي في القرن الثالث الهجري وذلك لأنه كان حياً سنة ٢٩٢ هـ، وفي ليلة عيد الفطر من نفس العام وقف ملياً في داره يتذكر الدولة الطولونية بمصر والشام، وما كان عليه بنو طولون في مثل هذه الليلة من بُلَهْنية العيش والنعيم الرغيد، والوفر السابغ، هذا يذكرنا بأسلوب (الفلاش باك) في الأدب الحديث حيث ينطلق الأديب من اللحظة الحاضرة إلى الماضي، إنه يتذكر ما كان فيه آل طولون في مثل أيام الأعياد هذه من الزي الحسن بالسلاح، وملونات البنود والأعلام، وشهرة (وشهير) الثياب وكثرة الكراع، وأصوات الأبواق والطبول، فاعترته لذلك فكرة (عبرة) ونام ليلته فسمع هاتفاً يقول:

ذهب الملك والتملك والز ... ينة لما مضى بنو طولون

وأضاف اليعقوبي:

إن كنت تسأل عن جلالة مُلكهم ... فارتع وعج بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت ... وامرح بزهرة ذلك البستان
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة ... تُنْبيك: كيف تصرف العصران؟
يا قتل هارون اجتثت أصولهم ... وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا ... في جحفل لجب ولا غسان
وعدية البطل الكمي وخزرج ... لم ينصرا بأخيهما عدنان
زفت إلى آل النبوّة والهدى ... وتمزقت عن شيعة الشيطان

اليعقوبي يرثي آل طولون وملكهم الزائل، إنه شاعر حقيقي يملك أدواته الفنية في نضج وإحكام، علماً أن إمكاناته التعبيرية جيدة، إنه يعبر بصدق وكلماته تنضح به، فهو معجب بآل طولون وجلالة ملكهم، وقصورهم وبساتينهم... وبما أن الرجل

شاعر فنحن نقدمه لمن يهمه الأمر كي يتولى جمع شعره من كتبه ومن أمهات المراجع وبذلك نكون قد قدمنا شاعراً بالإضافة إلى كونه عالماً، تاريخياً، وجغرافياً ومن خلال الأبيات السالفة يمكن لنا أن نعد اليعقوبي من شعراء الممالك الزائلة، ذلك الاتجاه الذى برع فيه ابن عبدون الأندلسي شاعر بني الأفطس في بطليوس الأندلسية.

متى كانت وفاه اليعقوبي؟

اليعقوبي توفي سنة ٢٨٤ هـ وهذا هو رأي الأغلبية. ياقوت الحموي في معجم الأدباء يروي عن أبي عمر محمد بن يوسف ابن يعقوب المصري في تأريخه أن اليعقوبي توفي ٢٨٤ هـ وهذا قابل للرد.

والزكلي في الأعلام يقول أن وفاة اليعقوبي في نفس سنة ٢٧٨ هـ وهذا قابل للرد أيضاً.

وجورجي زيدان يصدر ترجمته للعلامة اليعقوبي بنفس تاريخ الزركلي ٢٧٨ هـ، ولكن زيدان في أثناء تأريخه لليعقوبي (في الجزء الثاني صحيفة رقم ١٩٧ من كتابه آداب اللغة العربية) يعود ليقول: «يؤخذ من سياق كتبه أنه توفي سنة ٢٧٨ هـ» !!!

كان اليعقوبي من الذين عاصروا أبا حنيفة الدينوري المتوفى ٢٨٢ هـ، كما أن صحبه: سعيد الطبيب، وأن حفيده محمد بن أحمد بن خليل التميمي المقدسي بن سعيد يروي في كتابه (حبيب العروس، وريحان النفوس) عن اليعقوبي بواسطة أبيه أحمد وجده خليل ولنقرأ ما في صحيفة ١١٧ وما بعدها من كتاب البلدان لليعقوبي الطبعة العراقية لنجده يقول: «قال محمد بن أحمد بن الخليل بن سعيد التميمي المقدسي في كتابه المترجم بحبيب العروس، وريحان النفوس: المسك أصناف كثيرة وأجناس مختلفة وأفضلها وأرفعها... إلخ ...»

وفي ص ١١٨ من نفس الطبعة يتحدث عن (العنبر) راوياً عن محمد بن أحمد التميمي الذي روى بدوره عن أبيه عن جده عن أحمد بن يعقوب، قال: إن العنبر أنواع كثيرة وأصناف مختلفة... إلخ.

وهذه الرواية نجد سندها في أكثر من موضع والذي يهمنا في هذا المقام أن

اليعقوبي على الأرجح ومن وجهة نظرنا توفي بعد عام ٢٩٢ هـ لأنه كان على قيد الحياة سنة ٢٩٢ هـ. ليلة عيد الفطر عندما تذكر الدولة الطولونية ورثاها بشعرٍ كما أسلفنا من قبل.

إذن ما ذهبنا إليه يجعلنا نذهب إلى عدم صحة ما رواه يعقوب الحموي في معجم الأدباء عن ابن يعقوب المصري في تاريخه من أن اليعقوبي مؤرخنا قد قابل باريه سنة ٢٨٤ هـ، ولا صحة لما ذكره الزركلي في اعلامه من أن وفاة اليعقوبي كانت سنة ٢٧٨ هـ ـ والله أعلم.

آثار اليعقوبي:

ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أن من أهم آثار اليعقوبي: كتاب التأريخ الكبير، وهو عبارة عن مجلدين أو جزأين:

المجلد الأول: في التاريخ القديم على العموم من آدم فما بعده؛ إلى ظهور الإسلام الحنيف، وتدخل فيه أخبار بني إسرائيل، والسريان، والهنود، واليونان، والرومان، والفرس، وبلاد النوبة المصرية، والبجة والزنج، والحميريين اليمنيين، والغساسنة، والمناذرة اللخميين من سكان الحيرة العربية.

المجلد الثاني: وهو في التاريخ الإسلامي، وينتهي في زمن المعتمد على الله الخليفة العباسي خامس عشر خلفاء الدولة العباسية أي إلى سنة ٢٥٩ هـ، وقد رتبه حسب الخلفاء. ولكتاب (التاريخ الكبير) لليعقوبي ميزات علمية تجعله يفوق المؤلفات التأريخية السابقة واللاحقة ويمكننا تلخيص هذه السمات فيما يلي:

أ ـ أنه من أقدم المؤلفات التاريخية قاطبةً.

ب ـ يمتاز التأريخ فيه بالحيدة والبعد عن الهوى.

جـ ـ يتحرى القضايا الصادقة.

د ـ ينصف أهل التاريخ مهما كان الخلاف مع أحدهم، ولا يفتري على أحد بالباطل.

هـ ـ له أسلوبه المميز فهو يقص علينا الوقائع والحوادث الصحيحة حتى لكأننا نشاهدها بأنفسنا ونراها رؤية العيان.

و ـ يمتاز أسلوبه بالسلاسة، والجاذبية، والتشويق.

ز ـ لا نكاد نلمح في أسلوبه مغالطة أو خطأ نحويّاً أو لغويّاً الكتاب الثاني لليعقوبي هو كتاب (البلدان) الجغرافي والذي تحدثنا عن منهجه في كتابه من قبل.

الكتاب الثالث عبارة عن رسالة صغيرة بعنوان: (أخبار الأمم السالفة) وكتاب رابع عبارة عن رسالة صغيرة بعنوان: (مشاكلة الناس لزمانهم) وهو رسالة صغيرة يمكن لنا أن نطلق عليها خواطر ذاتية وتعليقات طريفة عن الناس والزمان.

هذه الكتب الأربعة والتي ذكرها ياقوت الحموي في معجمه ـ ويظهر من آخر النسخة المطبوعة من كتاب (البلدان) لليعقوبي طبعة ليدن أن له كتاباً آخر أسماه (الممالك والمسالك) وإن كان ذلك يداخله شك كبير ويحتاج لفحص وتمحيص هذا ليس بمجاله لأن هناك كتباً كثيرة عن الممالك والمسالك نسبت إلى الكثيرين.

كان اليعقوبي شاعراً كما أسلفنا القول، وقد شهدت ساحتنا الفكرية بنبوغه وتفوقه قبل الطبري والمسعودي وليسمح لي القارىء العزيز أن أسمعه هذه الأبيات من قصيدة رائية لليعقوبي يصف فيها مدينة سمرقند:

علت سمرقند أن يقال لها ... زين خراسان جنة الكور
أليس أبراجها معلقة ... بحيث لا تستبين للنظر
ودون أبراجها خنادقها ... عميقة ما ترام من ثغرِ
كأنها وهي وسط حائطها ... محفوفة بالظلالِ والشجر
بدر وأنهارها المجرة والـ ... ـآطام مثل الكواكب الزهرِ

الحاقات كتاب البلدان:

نحن الآن نقلب الصفحات من ص ١١٢ إلى ص ١٢٤ وهذه الإلحاقات رواها الأعلام في مؤلفاتهم عن اليعقوبي، وذكرت في آخر كتاب البلدان والمطبوع في ليدن سنة ١٨٦١ م. وقد أُلحقت بالنسخة العراقية السابقة الإشارة إليها ولنا ملحوظة على النسخة العراقية:

أ ـ مساحة النسخة ١٤ سم × ١/٢ ٢٠ سم.

ب ـ النص هو المطبوع فقط دون التحقيق. ط ١٩٥٧ م.

جـ ـ ورق الكتاب أصفر، قديم، مُتآكل.

د ـ عدد صفحاته ١٢٨ ص.

هـ ـ مكتوب عليه: كتاب (البلدان) تأليف: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف بـ (اليعقوبي) المتوفى سنة ٢٨٤ هـ.

و ـ أسفل الكتاب كتب بخط صغير: (منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف).

ز ـ ورد الكتاب لدار الكتب المصرية (مكتبة مركز تحقيق التراث) بتاريخ ١٦/٦/١٩٦٣ م.

ومن الأعلام الذين رووا عن اليعقوبي:

ـ الشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط (الكتبي) الوراق المتوفى سنة ٧١٨ هـ، في كتابه: (مناهج الفكر ومباهج العبر) قال: إن اليعقوبي ذكر حديثاً عن (نهر الأهواز) ووصفه.

ـ عبد الله بن شداد المؤرخ الرحالة والذي طاف ببلاد الشام، وجزيرة العرب، وصنف رحلة أسماها (الأعلاق الخطيرة) وتوفي سنة٦٨٤ هـ، ويحتمل أن يكون ابن شداد هو يوسف بن رافع بن تميم الأسدي ـ بهاء الدين أبا المحاسن بن راشد المؤرخ الذي ولاه صلاح الدين قضاء حلب فاستمر عليه إلى أن مات سنة ٦٣٢ هـ، وهو شيخ المؤرخ المشهور ابن خلكان، وصاحب (النوادر السلطانية) في سيرة صلاح الدين وصاحب (تأريخ حلب).

ـ أحمد بن الخليل بن سعيد التميمي المقدسي، الطبيب العالم بالنبات والأعشاب، ولد في المقدس وانتقل إلى مصر فسكنها وتوفي في القاهرة نحو سنة ٣٨٠ هـ، ومن أشهر كتبه: (مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء، والتحرز من ضرر الأوباء) وهو عدة مجلدات صنفه للوزير يعقوب بن كلس بمصر وكان جده سعيد طبيباً، وصحب أحمد بن يعقوب بواسطة أبيه وجده.

أهم المدن التي زارها اليعقوبي :

بغداد ـ كور الجبل ـ الصميرة ـ حلوان ـ الدينور ـ قزوين ـ زنجان ـ أذربيجان ـ همذان ـ نهاوند ـ الكرج ـ قم ـ أصبهان ـ الري ـ قومس ـ طبرستان ـ جرجان ـ طوس ـ نيسابور ـ مرو ـ بوشيخ ـ بادغيسن ـ سجستان ـ عرمان ـ الطالقان ـ الجوزجان ـ بلخ ـ مرورود ـ ختل ـ بخارا ـ الصفد ـ سمرقند ـ قرغانة ـ اشتاخنخ ـ الشاس ـ الكوفة ـ المدينة المنورة ـ مكة ـ اليمن ـ الجزائر ـ البصرة ـ حمص ـ دمشق ـ الأردن ـ مصر ـ فلسطين ـ النوبة ـ البحة ـ المغرب ـ برقة ـ سرت ـ ودان ـ زويلة ـ قزان ـ طرابلس ـ القيروان ـ الأندلس ـ تاهرت ـ بحلماسة ـ السوس الأقصى ـ الأهواز ـ شيراز ـ نصيبن ـ المصيصة ـ عين زربة ـ ملطية ـ رعبان ـ دكوك ـ كيسوم ـ منبخ ـ اذنه ـ باب الإسكندرية ـ أرمينية .

خاتمة

عصر التجمع الاسلامي في مواجهة الضربات القاصمة ودور العلماء ورجال التاريخ الاسلامي في ذلك

لم يستطع سقوط بغداد في الشرق، ولا ضياع الأندلس في المغرب أن يدعا الكيان العربي في وجه الرياح العاتية، فحين اضطرب اللواء في أيدي الحكام والملوك، تقدم العلماء فصانوا للعروبة ماضيها وللإسلام حضارته، وجمعوا الرصيد الحافل من العلم والمعرفة لإثراء حاضرنا ومستقبلنا.

تلقى المد العربي الزاحف أولى الضربات القاصمة التي جاءته من الشرق عام ستة وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) حين سقطت بغداد العباسية في أيدي جحافل التتار، واندكت معالمها تحت سنابك خيولهم وبطش جحافلهم الجارفة كالطوفان.

ثم تلقى ثاني الضربات القاصمة والحاسمة بعد قرنين من الزمان وما يقارب نصف القرن، وكانت هذه المرة من الغرب حين أُكرِهَ المسلمون على الرحيل من الأندلس عام سبعة وسبعين وثمانمائة من الهجرة تحت الضغط الإسباني الصليبي الذي لم تكن وطأته مبعث الخطر بقدر ما كان ضعف المسلمين، واختلاف كلمتهم هو العامل الحاسم.

وتحت وقع الضربتين القاصمتين من الشرق ثم من الغرب ترنح المد العربي وتعثرت خطواته، واستحالت الأمبراطورية الإسلامية الكبرى فريسة مستساغة للأطماع العادية من هنا وهناك، ولقي الأجداد من المسلمين بين بغداد العراقية وقرطبة الأندلسية من ألوان التمزق، والاضطهاد، والعسف والجبروت ما نذكره اليوم، وملء قلوبنا مرارة وألم.

وبدافع طبيعي للخلاص من هذا الطوفان العاتي تحركت الجموع الناجية من

الشرق ثم الغرب باحثة عن الاستقرار والأمان في مصر أو في بعض المدن الشامية، والمغرب العربي التي ساعد موقعها الجغرافي بعض الشيء على أن تكون بمنجاة من الانهيار السريع تحت وطأة الضربات الماحقة.

وفي القاهرة ـ ومن جديد ـ أخذ المد العربي المنحسر يجمع أشتاته وبقاياه، ويلم ثانية شذراته لعله يمنع الفناء، ويقوى على مواجهة الإعصار الكاسح.

في هذه المرة لم تكن الأشتات المتساندة من قادة الجند، ولا من رجال السياسة، لأن هؤلاء كانوا في ظلال المحنة، أعجز من أن ينهضوا بالدور في هذا المنعطف التاريخي الخطر، ومن ثم كانت كل الظروف التاريخية تصنع المسؤولية، وتهيىء الدور للعلماء الذين أسرعت أيديهم في لهفة مخلصة رائعة، فلم كل ما بعثره المغول في الشرق أو الاسبان في المغرب من رصيدنا الفكري والثقافي، وتضم بعضه إلى بعض في حب وإيمان، لتصنع البديل والعوض العلمي عن المجد السياسي الذي ضاع مع كوارث الفرقة والعصبية المقيتة.. ولتصنع منه قبل هذا سياجاً روحياً وفكرياً يحمي وجدان أمتنا ويصون نفسيتها من الانحلال والذوبان والتفتت.

في هذه الفترة بين الضربتين ترددت في قلب العالم العربي الإسلامي عشرات الأسماء من الأعلام الكبار الذين فجرت المحنة في وجدانهم الوعي الجاد (المستنير بحركة التاريخ) فشرعوا يجمعون ويوثقون كل ما بعثرته الأحداث من أمجاد أمتنا، ومن تاريخ فكرها) وسير رجالها، ثم ارتقى إحساسهم بالتاريخ فبحثوا في فلسفته، وفي أسرار حركته. وفي الاتجاه الأول ظهرت المجاميع الضخمة والموسوعات الشاملة التي كان من أبرز رجالها:

- ابن أبي أصيبعة (٦٦٨ هـ) صاحب عيون الأنباء.
- صلاح الدين الصفدي (٦٧٤ هـ) صاحب الوافي بالوفيات.
- ابن خلكان (٦٨٣ هـ) صاحب وفيات الأعيان.
- ابن شاكر الكتبي (٧٥٤ هـ) صاحب فوات الوفيات.
- الذهبي (٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الإسلام.

- أبو الفدا (١٣٣١ م) صاحب المختصر في تاريخ البشر.
- ابن حجر العسقلاني (٧٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنة.
- المقريزي (٧٤٥ هـ) صاحب الخطط.

وفي الاتجاه الثاني - اتجاه فلسفة التاريخ كانت المدرسة التي بدأت بـ :

ابن الطقطقي (٧٠٢ هـ) في كتابه الفخري.

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) صاحب المقدمة الشهيرة.

ووراء هذين كان اتجاه الجمع الموسوعي الذي برز من أعلامه :

ابن منظور الإفريقي صاحب لسان العرب.

ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار.

النويري صاحب نهاية الأرب. وغيرهم وغيرهم.

وواضح من هذه الاتجاهات في البحث والتجميع، ومن هذا الجهد الدؤوب المتفاني ومن هذا النتاج الرائع الذي يعتبر معجزاً فريداً إذا ما قيس بأعمار القائمين به وظروفهم كأفراد عزل من التأييد ومن مساندة الدولة. . . ويتضح من كل هذا كيف كان الروح العربي الناجي من وجه المغول والإسبان وكان يتحرك مدفوعاً بالحرص على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بين فكر المحنة العاتية المطبقة من الشرق ثم من الغرب، وحريصاً في الوقت نفسه على استيفاء الوجود العربي المسلم حتى لا يجرفه الطوفان الساحق دون عودة.

وبوسعي أن أقرر هنا أن حركة أولئك العلماء في مختلف اتجاهاتهم لم تكن صدى الانعزال والرهبة الفكرية، أو الثرثرة الفارغة، أو العنترية الجوفاء، أو التقوقع في أبراج عاجية عالية، ولا الهروب من ساحة الواقع المعايش ولكنها في صميمها محاولة رائعة للمقاومة بالكلمة حين عزت إذْ ذاك المقاومة بالجند والسلاح.

وفي اعتقادي أن كل عالم من هؤلاء إنما هو في حقيقة الأمر بطل من أبطال المقاومة الحقيقية، وكل وثيقة علمية من ثمرات هذه المحنة الكبرى إنما هي إلى جانب قيمتها العالمية وثيقة من وثائق النضال الفعلي.

وفي اعتقادي أيضاً أن في هذه النظرية ما يعطينا التفسير الطبيعي لصد هؤلاء العلماء الأماجد وتبتلهم وحبهم للعلم والفكر والناس، من أجل الاستقصاء والبحث العلمي بسخاء من أعمارهم ومن ذوات أنفسهم وما تنقطع دونه أعناق مؤسسات علمية، وهيئات متخصصة كي نفعل ذرة من أعمال هؤلاء العلماء.

* * *

ولأجل أن ندرس أي شخصية من الشخصيات التي كان لها أثر في ناحية من نواحي الحياة لا بد من دراسة الظروف المحيطة بها، والبيئة التي كانت تعيش، كي نقف منها على العوامل والمؤثرات التي أدت إلى نبوغ هذه الشخصية، وعملت على ظهورها أو التي كانت تهيمن عليها وتسيرها.

ونحن في هذا الكتاب المتواضع نعرِّف القراء بمجموعة من أعلام التاريخ الإسلامي أو بالأدق نعرِّف بأعلام عصر التجميع بعد ضربتي بغداد والأندلس، نعرف بهؤلاء النابهين والعلماء البارزين الذين ظهروا بأعمالهم وآرائهم وأفكارهم، وكانت لهم في الفكر الإسلامي آثار طيبة، وأفكار وأعمال قيمة، تشهد لهم بذلك تلك الثروة الطيبة التي تركوها لنا من مؤلفات متعددة متنوعة.

وقد أثبت البحث العلمي الحديث أن الشخص يتأثر بالأحوال والظروف المحيطة به، كما يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، ويكون لها دخل كبير في تكييف حياته، وطبعها بطابع خاص، فنوع التربية التي يتلقنها في البيت وفي معهد العلم، والروح العامة التي تسود أساتذته ومعلميه، والتلاميذ الذين يحيطونه ويعاشرونه والكتب التي تقرأونها، والأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي توجد في عصره، كل تلك عوامل مهمة في تكوين شخصيته، وتكييف اتجاهها، وتعيين طريقها ومنهجها.

ولذلك كان لا بد لنا ونحن نترجم لبعض أعلام عصر الموسوعات المملوكي ولفكرهم ولمنهجهم العام في التفكير والتأليف، كان لا بد أن نلقي نظرة عاجلة على عصرهم، الذي كانوا يعيشون فيه، والبيئة التي كانت تحيط بهم، كي تكشف لنا هذه التراجم عن حال عصر هؤلاء، وقد تناولت بالكلام عن حال هذا العصر في هذه العجالة: الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والحالة العلمية.

وإني لأعلم أن دراسة الحالة العلمية هو الأمر الهام في موضوع بحثنا، ما دمنا نبحث عن آثار هؤلاء العلماء العلمية، لنرى مقدار تأثرهم ككل بالحالة العلمية في ذلك العصر، إلا أني ـ مع ذلك ـ طرقت ووضحت الحالة الاجتماعية والسياسية كذلك، لما قد يكون لهما غالباً من الأثر في توجيه الحالة العلمية نحو ناحية معينة، وطبعها بطابع خاص، سلباً وإيجاباً.

(أ) **الحالة السياسية**: كانت حالة البلاد الإسلامية السياسية في تلك الفترة من التاريخ وهي التي يطلق عليها ـ في الشرق والغرب ـ اسم «العصور الوسطى» سيئة إلى درجة خطيرة، وضعيفة إلى غاية شديدة، إذ أن البلاد الإسلامية كانت في ذلك الوقت عبارة عن ممالك صغيرة يحكمها أمراء من المماليك والعجم، ولم يكن للخلافة في ذلك الحين غير الاسم والرسم، وإنما السيادة الفعلية كانت للمتغلبين من العجم والمماليك يعزلون من يشاءون عزله ويولون من يريدون توليته.

ومن الأدلة على ضعف الخلافة الإسلامية، وتدخل السلاطين من الأمراء، وأن السلطة كانت بيدهم يولون ويعزلون كما يشاءون: أنه حدث في سنة ٧٣٧ هـ أن السلطان الناصر «محمد بن قلاوون» اعتقل الخليفة «المستكفي بالله» ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم أفرج عنه بعد ذلك ولكنه ما لبث أن نفاه السلطان مع أهله وذويه إلى بلدة «قوص» في صعيد مصر، وبقي الخليفة بها إلى أن توفي. ثم بويع لابنه المنصور سيف الدين عام ٧٤٢ هـ. فبايع ذلك السلطان. الخليفة أمير المؤمنين «أبا القاسم أحمد بن المستكفي بالله» كما يقول ابن كثير في البداية والنهاية (١٤/١٧٦).

وقد حصل في سنة ٧٤٧ هـ أن تدخل نائب السلطنة في ذلك الحين في أمر المملكة وجمع الأمراء حوله، ودعا إلى تولية السلطان أمير «حاجي» وعزل أخيه الملك الكامل «سيف الدين» وكان لهم ما أرادوا بعد أن فر الملك الكامل هو وأنصاره وبعد أن قتل بعض الأمراء في المعركة، ثم أجلسوا السلطان الجديد على سرير الملك. وسموه الملك المظفر ابن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» ولكنهم ما لبثوا أن غضبوا عليه. وتحزبوا ضده فخرج إليهم في نفر قليل فقتلوه عام ٧٤٨ هـ (البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٢٤).

كما حدث أيضاً أنه في عـام ٦٩٣ هـ قام بعض الأمـراء وعلى رأسهم الأمير «بيدرا» خلف السلطان «الأشرف خليلي» وهو الذي انتصر على الصليبيين في الشام. وكان السلطان يصطاد وحيداً بجوار الإسكندرية، فخرجوا إليـه وضربـوه بسيوفهم. ومثلوا به تمثيلاً شنيعاً، حتى أن بعضهم وضع سيفه في دبره، وأخرجه من فمه، ثم تركوه طريحاً على الأرض تأكله الطيور، والحيوانات وحصل أن تذمر من هذا العمل بعض الأمراء، فتقاتلوا بعضهم مع بعض حتى قتل «بيدرا» ومثل به كذلك، ثم بايعـوا السلطان «الظافر محمـد ابن الملك المنصور قـلاوون» وكان أخـاً للأشـرف خليل المقتول.

(تاريخ مر لابن إياس ١/١٢٩).

كما حدث أيضاً أن قام بعض المماليك البرجية وعلى رأسهم «كرجي» مقدم المماليك في ذلك الحين، واتفقوا فيما بينهم على قتل السلطان (حسام الدين لاجين) فتم لهم ذلك وقتلوه وهو يصلي العشاء في قصره (راجـع تاريـخ مصر لابن إيـاس ١/٢٩).

كما قام الأهالي فـي عام ٧٤٣ هـ وخلعوا السلطان «أحمد ابن الملك الناصر» لفتنة حصلت في ذلك الوقت وملكوا عليهم أخاه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر (البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٢٠٢)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت بلادنا الإسلامية مهددة بالغزو الأوروبي الصليبي، فقد أغار الصليبيون الأوربيون على ساحل الشام ونزلوا به، واستولوا على معظم مدنها الساحلية وأسقطوا مدينة «عكا» وقتلوا من بها من المسلمين ودخلوا «بيت المقدس» الشريف وهدموا أركانه، وفعلوا به المنكرات.

كانت أطراف البلاد الإسلامية الشمالية، مهددة بغزو التتار الذين أغاروا عليها، وأسقطوا «بغداد» عـاصمة البـلاد الإسلاميـة، ومقر الخـلافة عـام ٦٥٦ هـ على يد «هولاكو خان» التتري، وقد استولوا عليها واستعملوا فيها أعمال التخريب والتدمير والقتل، حتى صارت بغداد في ذلك الوقت بحراً من الدم من كثرة القتلى، حتى ليقال إن هواءها قد فسد، وريحها قد تغير من كثرة الجيف المطروحة على قارعة الطريق،

والتي لم تجد من يدفنها ويواري سوأتها، كما يروي ذلك «ابن كثير» في كتابه «البداية والنهاية».

وكانت الحروب مستمرة بين المسلمين والتتار من جهة، وبينهم وبين الصليبيين من جهة أخرى، حتى إن دمشق قد سقطت يوماً في أيـدي التتار، فـاستعملوا فيها أعمال التخريب والتقتيل بشكل مريب، وهدموا بعض المساجد، وفعلوا بها بعض المنكرات، كما يروي ذلك «ابن كثير» في «البداية والنهاية» و «ابن إياس» في كتابه «تاريخ مصر» ولكن من حسن حظ المسلمين، أنه لم تطل إقامتهم بدمشق، بل كان أن اجتمعت كلمة المسلمين، ووحدوا صفوفهم، ثم جاء الجيش المصري، وهزمهم هزيمة منكرة في موقعة «عين جالوت» عام ٦٥٨ هـ [١].

كما قضى الله كذلك بنصر المسلمين على الصليبيين، فهزمهم الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون، وأخرجهم من بلاد الشام، وكفى الله المؤمنين شر هؤلاء القوم الغاشمين[٢].

وفي ذلك الحين كانت الخلافة قد انتقلت إلى مصر، وكان أول خليفة قد بويع بها هو الخليفة المستنصر بالله «أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمن الظاهـر» بايعـوه بالخلافة عام ٦٥٩ هـ بعد ما شغر منصب الخلافة أكثر من ثلاث سنين إلا أن خلافته لم تدم طويلاً، فعزل، وبويع من بعـده للحاكم بـأمر الله أبـو العباس «أحمـد ابن المسترشد بالله العباسي» عام ٦٦٠ هـ.

وهكذا نجد أن حياة المسلمين في ذلك العصر كانت مليئة بالأحداث الجسام والمصائب المتلاحقة التي روعتهم وأخافتهم، ووقع في قلوبهم أن مصدر ذلك كله، إنما هو انقسامهم فيما بينهم، وتفرق كلمتهم بسبب انحرافهم عن تعاليـم الدين، وتهيأت بذلك أذهانهم لقبول دعوة إصلاحية جديدة، تقوم على الوحدة ونبذ الخلاف.

وفي ذلك يقول صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ «مصطفى عبد

---

(١) البداية والنهاية: ١٣/ ٢٢٠، وتاريخ مصر لابن إياس ١/ ٩٧.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣١، وتاريخ مصر لابن إياس ١/ ١٢٣.

الرازق» شيخ الجامع الأزهر في كتابه «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» ما نصه:

(كانت الدولة الإسلامية في هم مما أصابها من أثر الخراب المغولي، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب إلى إصلاح الإسلام بالرجوع إلى السنة التي كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله[1]).

وهذه الحالة التي دعت «ابن القيم» وأستاذه «ابن تيمية» من قبله[2]، إلى القيام بدعوة إصلاحية شاملة، والتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ونبذ الخلاف القائم بين المسلمين، وتوحيد المذاهب الكلامية والفقهية، معتقدين أن السبب في فشل المسلمين وضعفهم، وتفرق كلمتهم، إنما هو الخلاف الحاصل بينهم.

(ب) **الحالة الاجتماعية لهذا العصر**[*]:

ليس لنا أن نتوقع حالة اجتماعية طيبة، قارة ثابتة، بعد ما قدمناه من سوء الحالة السياسية، وما كان فيها من فوضى واضطراب، وتنازع وشقاق، فقد أدى تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم، وقتل الخلفاء والتمثيل بهم، وكثرة الغارات على البلاد الإسلامية إلى اضطراب الحالة الاجتماعية في البلاد، ووجود الرعب والفزع في نفوس الناس، بحيث أصبح لا يطمئن أحد على نفسه وأهله وماله.

كما حصل الجدب والقحط في أكثر البلاد الإسلامية، حتى إن المصريين كانوا يحفرون الحفرة فيضعون فيها الفئام من الناس، من كثرة القتلى بسبب الجوع، وارتفاع أسعار أقوات المسلمين، من قلة المحصول الزراعي، الذي سببه جدب الأرض، وشن الغارات والحروب[3].

من الأدلة على سوء الحالة الاجتماعية أنه في سنة ٦٩٥ هـ حصل قحط شديد في الديار المصرية، وارتفعت الأسعار في جميع البلاد الإسلامية «ومصر والشام ومكة

---

(١) فيلسوف العرب والمعلم الثاني (ص ١١٩) للشيخ مصطفى عبد الرازق.

(٢) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي / د. عوض الله جاد حجاري ص ٢٣.

(*) اعتمدنا في هذه الجزئية على كتب ابن كثير، وابن إياس وعلى كتب ابن تيمية والسيوطي وأبي المحاسن.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/٣٤٣.

والمدينة» حتى بلغ سعر الرطل من اللحم سبعة دراهم، وحتى بيع الفروج الواحد بخمسة عشر درهماً، والبيضة الواحدة بأربعة دراهم، واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال، ولم يبق من الدواب شيء عند أحد من الناس، وبيع الكلب في ذلك الوقت بخمسة دراهم(١).

كما حصل في سنة ٧١٨ هـ أن قل المطر في بلاد الجزيرة والموصل، فحصل الجدب والقحط، وارتفعت الأسعار، وعدمت الأقوات بحيث أكلوا كل ما وجدوه من الجمادات والحيوانات، ومن قلة الأموال التي يشترون بها ما يسدون به رمقهم باعوا كل شيء يملكونه، حتى أولادهم وأهليهم، وبيع الولد في ذلك الحين بخمسين درهماً بل وأقل من ذلك(٢).

وفي تاريخ ابن إياس (بدائع الزهور) يدلل لنا ابن إياس على سوء الحالة الاجتماعية وتفاقم أمر العامة واللصوص، والنهب والسلب في البلاد من أنه في سنة ٧٤٢ هـ نادى أحد الأمراء العوام والعسكر، وأمرهم أن ينهبوا بيت الأتابكي «قوصون» فدخل العوام بيته، وأحرقوا بابه، ونهبوا كل ما في اصطبله من الخيول والبغال، وسرقوا ما عنده من السلاح والنحاس وغير ذلك، و «قوصون» ينظر إليهم من الشباك ولا يملك لنفسه دفعاً، وقد خاطب أحد الأمراء بقوله يا مسلمين! أما تحفظون هذا المال الذي تنهبه العوام، أما أن يكون لي أو للسلطان، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل هجم عليه بعض الأمراء، وقبض عليه وسجنه.

ثم خلعوا الملك الأشرف «علاء الدين» في ذلك الوقت، وولوا بعده الملك الناصر «شهاب الدين أحمد» عام ٧٤٢ هـ(٣).

كما كثر النزاع المذهبي، والخلاف الديني بين الفرق الإسلامية، التي كانت تتطاحن فيما بينها، والتي جرت على البلاد الخراب والدمار، وأوقعت بها كثيراً من الويلات والمصائب.

---

(١) تاريخ مصر لابن إياس: ١/١٣٣، والبداية والنهاية: ١٣/٣٤٣.
(٢) راجع البداية والنهاية: ١٤/٧٦.
(٣) راجع تاريخ مصر لابن إياس ١/١٧٨.

ومن الأدلة على الخلاف المذهبي الذي جر للبلاد الخراب والدمار، ما حصل في عام ٦٥٥ هـ من الخلاف المذهبي بين أهل السنة والرافضة، والحرب التي وقعت بينهما وكان فيها الغلبة لأهل السنة على الرافضة، فاشتد حنق الرافضة عليهم. حتى أن الوزير «ابن العلقمي» وكان رافضياً دبَّر للمسلمين الشر، فكاتب «هولاكو خان» ملك التتار في ذلك الوقت، ودعاه إلى غزو بلاد المسلمين. ففعل وكانت الكارثة المؤلمة بسقوط بغداد، وقتل الخليفة وزوال مقر الخلافة من بغداد، وصيرورتها بحراً من الدم لكثرة ما قتل فيها من الرجال والنساء والأولاد على يد أولئكم القوم الكافرين الغاشمين[١].

وهل أدل على ذلك الخلاف المذهبي من ذلك، وأيضاً مما حصل بين «ابن تيمية الحراني» وقضاة عصره من الشقاق والخلاف الذي أدى بهؤلاء العلماء إلى أن يرفعوا أمره إلى السلطان، بحجة أنه خرج على الإجماع بسبب ما نشره في (العقيدة الواسطية) التي أرسل بها رداً على خطاب وصله من أحد علماء (واسط) أن يبين له عقيدة أهل السنة، فكان أن جمع له السلطان ثلاثة مجالس لمحاكمته انتهت بسجنه.

وكما حصل أيضاً أن اختلف العلماء في «تاج الدين السبكي، وانقسموا في أمره فريقين، وصار السلطان يصلح ويوفق بينهم. فيزداد خلافهم حتى أن السلطان خاطبهم بقوله: (لقد كنا نختلف فنحتكم إلى العلماء واليوم يختلف العلماء فيحتكمون إلينا)[٢].

وكثر اللصوص واستفحل أمرهم، وكثر قطاع الطريق، فزاد النهب والسلب في البلاد، واستعملهم الأمراء ليتوصلوا بهم إلى مآربهم، وعمد الناس إلى الغش في البيع والشراء، والتطفيف في الكيل والميزان، واحتكار الأقوات، وغير ذلك من العلل الاجتماعية، مما حدا ببعض العلماء إلى أن يأمروا بفرض التسعيرة الجبرية، وأن يؤلفوا في ذلك كتباً ورسائل، ومن هؤلاء العلماء: «ابن تيمية» الذي ألف رسالة يبين فيها حرمة احتكار أقوات المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢٠١/١٣ وما بعدها، وتاريخ مصر لابن إياس ٩٤/١.

(٢) راجع البداية والنهاية لإبن كثير ٣١٧/١٤ وما بعده.

وقد ذكرت أمثلة كثيرة، تدلنا على سوء الحالة الاجتماعية وتقهقرها في ذلك العصر، وتدخل العامة واللصوص في الأمر، وكثرة الخلاف المذهبي الذي أدى إلى ضعف الدولة وانحطاطها في ذلك الوقت، مما أدى إلى قيام عالم فاضل مثل «ابن قيم الجوزية» يدعوهم للوحدة، ونبذ الخلاف المذهبي، والرجوع في ذلك إلى الكتاب والسنة النبوية الصحيحة.

(ج) الحالة العلمية:

قدمنا أن الحالة السياسية كانت ضعيفة إلى درجة كبيرة، وأن الحالة الاجتماعية كانت سيئة إلى أقصى حد، فليس لنا بعد ذلك أن نتوقع تقدماً في الحركة العلمية والفكرية، في ذلك العصر المضطرب الفاسد، ولا رواجاً في الإنتاج العلمي في وقت ساد فيه الأتراك والمماليك، واستعجمت فيه الألسن والعادات، والأنفس والعقول، وكثرت الثورات والحروب السياسية ضد المسلمين، وجاءتهم المصائب من كل ناحية، فلم يكن لديهم من الاستقرار والرفاهية ما يمكنهم من الاشتغال بالبحث والتفكير.

فقل الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأخذ الناس يقلدون من سبقهم في الأصول والفروع، ولم يمكنهم الاجتهاد في الفروع، واعتنق الناس مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في الأصول، وحرم الأخذ في الفروع بغير المذاهب الأربعة، وعمد العلماء في ذلك العصر إلى الجمع من كتب السابقين، والسير على نظامهم في التأليف، وسلكوا مسلكاً حسناً فيه، فجمعوا المباحث المتعلقة بكل فن في سلك واحد، وكتبوا في ذلك للمؤلفات الضخمة أحياناً، والمختصرة أحياناً أخرى، ولكن لم يكن في كل ذلك أثر للابتكار والتجديد.

غلبت على العلماء في ذلك العصر نزعة التقليد، وسيطر الجمود الفكري، وأصبح جهد العلماء أن يفهموا كلام السابقين دون بحث أو مناقشة، مما دعا «ابن قيم الجوزية» وغيره من علماء عصر الموسوعات المملوكي إلى أن يثور ضد هذا العصر، وأن يحارب التقليد بكل قوة، ويجعله طاغوتاً من الطواغيت، فيقول في مؤلفاته: (كسر طاغوت التقليد) ثم يفتح لهم باب الاجتهاد في الأصول والفروع معاً.

وهكذا نرى عصور الضعف العلمي دائماً تمتاز بكثرة الجمع مع نضوب في البحث والاستنتاج، مما حمل علماء عصر التجمع والبحث وساعدهم على قراءة هذه الكتب والمؤلفات المتعددة ليخرجوا منها مذهبهم، ويختاروا منها ما يتفق مع عقلهم، تلك الطريقة التي استطعنا أن نسميها (الانتخاب في تفكير هؤلاء العلماء).

ولكن ليس معنى ذلك أن الضعف العلمي، والجمود الفكري، قد وصل إلى غاية لا يرجى معها نهوض، ولا توثب لبعض العلماء النابهين الذين يوجدون دائماً في كل عصر... كلا! فقد وجد في ذلك العصر بعض العلماء الذين تأثروا بمنهج الغزالي، ومشايعته للمذهب الأشعري، ومحاربته الفلسفة، وألفوا المؤلفات الضخمة في تأييد هذا المذهب ومناصرته.

ولكن تأليفهم إنما هو جمع فقط لآراء السابقين، وتأييد لمذهب خاص في الأصول والفروع، وليس لهم في هذا التأليف أي ابتكار.

كما وجد في هذا العصر كثير من علماء اللغة والمحدثين ممن لهم أثر يذكر فيشكر في سجل العلماء العاملين، وغيرهم من علماء التاريخ.

لم تعدم النهضة العلمية التي أسسها الغزالي في الشرق في القرن الخامس الهجري علماء أجلاء، يقومون على رفعها، ويسيرون في ضوئها في الغرب والشرق.

وفي ذلك يقول الأستاذ «محمود مصطفى» في كتابه (تاريخ الأدب العربي) يصف حالة هذا العصر العلمية ما ملخصه:

(وقد كانت البلاد الإسلامية ممزقة بين التتار والمغول في الشرق، والمماليك في مصر والشام، والبربر فيما وراء مصر إلى المحيط الأطلسي، فكانت البلاد في حالة يرثى لها، يتولاها في غالب الأمر من لا يمت إليها بنسب، ولا يجمعه بها لغة، فاستعجمت الألسن، وضعفت اللغة العربية، والسيادة الإسلامية، ولولا أن الإسلام هو دين القوم، والقرآن قانونهم ومرجع أحكامهم، والقوم مضطرون في سبيل قيادة هذه الشعوب إلى أن يجعلوا للقرآن وعلومه المكان الأول، لولا ذلك لزالت العربية، ومحيت آثارها، حتى إن لغة التخاطب ولسان الحكومة الرسمي في بعض الممالك

الإسلامية كانت اللغة الفارسية أو التركية، ولكن العربية ظلت لغة التأليف.

ولكننا مع ذلك نجد نشاطاً في التأليف، وإظهاراً لكتب جامعة في كل علم وموسوعات تشمل كثيراً من العلوم، وذلك بسبب نكبة البلاد بالمغول، وحرقهم للمؤلفات العلمية، ورميهم إياها في البحر، فحفزهم ذلك إلى جمع المتفرق، وإحياء الدارس، والتعويض عما فات[1].

ولقد ذكرنا كثيراً من هؤلاء العلماء، وعرفت بهم تعريفاً موجزاً، ونوعنا في ذكر هؤلاء العلماء، لنعلم إلى أي حد قد طرقوا جميع أنواع العلم، وكتبوا فيها المؤلفات الكبيرة، سواء كان ذلك في التاريخ الإسلامي، أم في اللغة العربية، أو علم الكلام، أو التفسير والحديث.

---

(١) عن كتاب (الأدب العربي وتاريخه) ٣/١٨٢ ـ ١٩٠ (طبع الحلبي).

تأملات في
علم التاريخ الإسلامي

- الفائدة والجدوى!!
- والتفريـق بين العلم والفن!!

مدخل الى علم التاريخ

قد يتساءل البعض من القراء عن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي أو بالتاريخ كله بوجه عام خاصة في عصر كثرت فيه المتغيرات والاضطرابات، عصر تغير فيه كل شيء، وسيتغير كل شيء مع بدايات القرن الواحد والعشرين، فلا شيء ثابت، الكل متغير، الا الله سبحانه وتعالى، عصر وصل فيه الإنسان إلى القمر وصارع الكواكب والنجوم؟ وهؤلاء قد يتساءلون، أليس من الأجدى ان ننسى ذلك الماضي وننظر إلى حاضرنا ومستقبلنا؟!

نعم، الكرة الارضية تدور الآن بسرعة النفاثة، والعلم على أبواب عصر جديد ومختلف تماماً، والدنيا تتغير من حولنا وتتحرك، وسيحصد الندامة كل من يغمض عينيه عن هذه الحقيقة، ويتمسك بأهداب القديم، ويستوي في ذلك الماركسي الذي يتحسر على أيام السيد / ستالين، ويصر على أن الشيوعية وكلامها الفارغ هي أعلى مراحل الاشتراكية، وان كل من ينتقد النظرية خائن وابن خائن، وكل من يعترض على المنغستو اللينيني عميل للمخابرات الأمريكية، إن العالم يتغير أيها السادة وواجبنا نحن أن نتغير أيضاً لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . . .

لن تتغير إلا بالتاريخ!! لا تندهش!! اعلم ان الاضطراب الذي تعانيه والتخلص من أدران الماضي لا يمكنه أن يعالج أو يزال الا بالنفاذ إلى جذوره العميقة واستئصال أسبابه البعيدة جداً جداً ومعرفة العلل والأسباب وطبيعتها ومداها. اعلم أن

كل مشكلة من المشكلات التي تعترضها الإنسانية لها جذورها وأسبابها المغروسة في التراث الذي ورثته من الأجيال السابقة.

ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة لأن التاريخ يطل علينا من نوافذ متعددة، والتاريخ العربي بأمجاده وتقاليده وبطولاته من أهم مقومات ودعائم الوحدة والقوة.

وعندما نتساءل عن أسباب وعلل النكبات والمآسي والأخطاء التي حدثت لنا نجد أنفسنا نرجع بدون وعي إلى التاريخ وكتب التراث نقرأ فيها ونستنتج.

ولعل أبلغ دليل على ذلك أن العالم الفيلسوف المسلم ابن خلدون رائد علم الاجتماع كتب مقدمته الرائعة - التي تعتبر أبرز اثار التفكير التاريخي والاجتماعي - عندما وجد عالمنا الإسلامي في القرن الرابع عشر قد اقتسم إلى دول متناحرة يرثى لها تغير عليها دون هوادة جحافل الغزاة من التموريين وغيرهم، فأثار ذلك في نفسه تساؤلات كثيرة عن نشوء الأمم وتطورها وتداعيها.

ولكي ندرك أهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ، والاهتمام والعناية بتخفيف ونشر التراث التاريخي المحفوظ في المخطوطات العربية النفيسة في مكتبات العالم الشهيرة، فلنفرض جدلاً أننا استطعنا بطريقة أو أخرى أن نقطع صلتنا بالماضي قطعاً تاماً أي نحرق دور الكتب وندمر كل آثار العمران الراهنة، ثم ننظر إلى حال الإنسان ومصير الحضارة بعد ذلك؟ الحقيقة أن الإنسان سوف يحاول عندئذ أن يعود لكي يبدأ من جديد بعد أن فقد خبرات الماضي التي هي تراث الأجداد منذ آلاف السنين. ولهذا لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه ومعرفة تاريخ تطوره وأعماله وآثار وأوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة.

إن كل عالم أو أديب أو فنان لا غنى له في عمله أو فنه لو كان جاداً أو صادقاً من أخذ الماضي بعين الاعتبار والتأثر به إلى حد قريب أو بعيد.

فالطبيب عندما يعالج الداء، يبدأ بسؤال مريضه عن تاريخ مرضه، عن نشوئه وتطوره وعما اعترى المريض من علل سابقة.

والكيميائي عندما يخضع مادة من المراد لتجربة معينة يدرس تاريخها إلى تغيرها من حال إلى حال، من ماضٍ إلى حاضر، أو من حاضر إلى مستقبل.

وعالم الاجتماع لا يستطيع دراسة المشكلات الاجتماعية التي يعالجها دون النظر إلى الجذور التي ثبتت منها والتغيرات التي طرأت عليها، وهكذا الحال في العلوم الأخرى، الطبيعية منها والبشرية فكلها تهتم بالماضي.

حتى الأديب والفنان لا يستطيع أن يتجرد تماماً من خبراته السابقة ومشاعره الموروثة والمكتسبة والجو الذي نشأ فيه والتقاليد السائدة في عصره.

ومعنى هذا كله ان التاريخ منساب في شتى العلوم والآداب، مرتبط بها متفاعل وإياها، ولكنه يتميز عنها من حيث اهتمامه بالماضي بالذات، بينما تتجه العلوم والآداب الأخرى إلى أغراض وغايات أخرى غير أنها تستخدم التاريخ أو تستفيد منه في سبيل تحقيق هذه الأغراض.

كان الناس في الماضي - والمؤرخون في مقدمتهم - يوجهون جل عنايتهم إلى الوقائع الحربية والتقلبات السياسية ويعتبرونها لب الماضي وجوهره الجدير بالاعتبار.

غير أن التاريخ في أَيامنا الآن أصبح يشمل الحياة البشرية الماضية بجميع مظاهرها فأصبحت دراسة التاريخ الآن تهتم بالنظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والاعتقادات الدينية، والأساليب الأدبية والفنية مثل اهتمامها بالأحداث السياسية والوقائع الحربية.

التاريخ هو ذلك الشيخ الجليل الحكيم المجرب القوي الذاكرة الذي لا يخاف سوى ربه العلي العظيم، يقول الحق ولا يخشى في الحق لومة لائم، مهما حاولوا أن يجعلوه يكذب ويزيف فيرفض ذلك، فليسجنوه أو يعذبوه، فليصادروا أمواله

وممتلكاته، فليمزقوا ريشته وأوراقه، فليلفقوا له التهم ظلماً وبهتاناً، يقولون: لص أو سارق أو مزور، يحاكمونه غشاً وخديعة، ظلماً وعدواناً. . . فليجعلوه ظلماً عضوا في تنظيم لقلب نظام الحكم أو في جماعة مخربة أو متطرفة فليجعلوه إرهابياً، لن يخضع لهم، لن ينافق، لن يتزحزح عن موقفه، لأن التاريخ الذي لن ولن يرحم سيقول كل شيء، سيخضع كل طاغية، كل أعداء الحرية والحق والخير والجمال

لكن التاريخ لا يريد منا أن نعود القهقري يريد منا أن نستفيد من الماضي كي تبنى أسس الحاضر والقادم، أن تتلاشى سلبيات الماضي وتنتقي ايجابياتها من أجل مستقبل أفضل وواقع أحسن، لا يريد منا أن نبكي على الأطلال، بل يطلب منا أن ننظر باستمرار إلى الأمام، إلى المستقبل، فالله سبحانه وتعالى خلق لنا العينين في وجهنا ولم يخلقها في «قفانا» خلقها في وجهنا كي ننظر دائماً للأمام لا للخلف، نأخذ من الماضي العبرة والعظة والادراك والوعي السليم كي لا تكرر أخطاء الماضي.

هل التاريخ علم؟!

كثيراً ما يتجادل الناس ما إذا كان يصح أن نعتبر التاريخ علماً من العلوم؟

مؤرخ انجليزي اسمه (بيوري) كان من أشهر مؤرخي انجلترا في الرابع الأول من القرن العشرين، أعلن أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل!!

الفلاسفة الطبيعيون لم يعجبهم هذا الكلام جادلوا وناقشوا وهاجوا وماجوا واشتعلوا وقالوا التاريخ أقل من العلم بكثير!!

رجال الأدب تدخلوا وثاروا ليثبتوا أن التاريخ فوق العلم بكثير!!

الفلاسفة الطبيعيون يرون أن مادة التاريخ التي ندرسها تختلف عن مادة العلوم يشتغلون بها من حيث كونها مادة غير ثابتة، وغير قابلة للتحديد.

قالوا أيضاً ليس من السهل للإنسان أن يعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة، وأن الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين في الدراسة التاريخية وبالتالي لا يمكن لحادثة تاريخية أن تتكرر مرة أخرى.

يعود رجال الأدب ليقولوا لنا أن التاريخ سواء أكان علماً أم غير علم، فهو لا

ريب فن من الفنون، وأن العلم لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المحروقة اليابسة، وأنه لا مندوحة عن خيال الشاعر اذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحياها الخيال فهي بحاجة إلى براعة الكاتب وبلاغته.

وهكذا اختلف الباحثون في وصف التاريخ بصفة العلم كالكيمياء والطبيعة وغيرهما أو نفيها عنه فذكر البعض أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأن الوقائع التاريخية لا يمكن أن يخضع لها العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة. وبالتالي لا يمكن استخلاص قوانين علمية ثابتة من التاريخ عما هو الحال في الطبيعة والكيمياء، وهذا ـ في نظرهم ـ يبعد التاريخ عن صفة العلم.

ويرى بعض رجال الأدب أن التاريخ سواء أكان علماً أم لم يكن فهو من الفنون [فن] يستعين بالخيال في كثير من الأحيان. غير أن [هرتشو] يرى في كتابه (علم التاريخ) أن التاريخ ليس كالفلك علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجي، والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته لكي يستخلص ما يمكن استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار المؤرخ إلى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الاداري الانفعالي حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية. وربما يسأل سائل ما الذي يبحث فيه التاريخ؟!

والحقيقة أنه يبحث في الموجود من مخلفات الماضي وسجلاته التي قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه وهو مقصد البحث التاريخي. ومعنى هذا أن التاريخ من حيث هو علم يختلف أصلاً عن العلوم الطبيعية، اذ أنه ليس علم معاينة أو تجربة ولكنه علم ونقد وتحقيق. ومواد التاريخ ليست الأشياء التي مضت وانقطع وجودها، ولكن الأشياء التي لا تزال موجودة سواء أكانت روايات عما وقع، أم بقايا اشياء وجدت أم نتائج أحداث حدثت!!.

ومن الأسس الجوهرية التي يتحدد بها قيمة التاريخ هو نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته، أهي نقوش أو آثار قديمة أم أصول ووثائق ومراسلات

مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية؟ أم أن المادة التي اعتمد عليها الباحث هي مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية؟ وهنا تأتي أهمية كتب التراث العربي لأنها المنبع الأصل الذي لا ينضب والذي يمد الباحث في التاريخ دائماً بمادة علمية لها القيمة الجوهرية.

ما فائدة التاريخ

لابد لمن يكتب عن التاريخ كعلم اذاً أن يبدأ ببحث قضية هامة وأساسية وهي ما هو الهدف الحقيقي والفائدة المباشرة لعلم التاريخ أو التأريخ كما كان يسميه أجدادنا في كتبهم؟!

يقول البعض: دراسة التاريخ ليس لها فائدة!! فخطىء من يقول ذلك لانه لو لم يكن مفيداً ما بقي علماً من أهم العلوم الإنسانية فالناس كما قال كونفيوشيوس حكيم الصين العظيم في القرن السادس قبل الميلاد: منذ قديم الزمن يدرسون الماضي بهدف تطوير انفسهم! إن دراسة التاريخ جادة واعية محايدة تعلم الناس كل الناس كيف يلتفتون ويتعرفون على سالف الأجداد وأفكارهم رغم آلاف من السنين التي تفصل بين الأجيال.

إن طلب المعرفة غريزة عند الإنسان في كل زمان، وكل مكان، كما تملي المعدة مثلاً على صاحبها أن يبحث عن الطعام يملي العقل على النفس يجب أن تصاحبها أي تصاحب نفسك من أجل المعرفة وخاصة طلب المعرفة الماضية أي الماضي بكل عبقه وسحره!!

اعلم أيها القارىء المفضال أن درجة الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي للمواطن في أي مكان لا تتحدد الا بقدر إلمامه بالتاريخ، والمواطن الذي يريد أن يمارس حقوقه السياسية كاملة غير منقوصة في ظل نظامه السياسي أياً كان عليه أن يكون واعياً بالقدر الكافي، ولكي يكون واعياً يجب أن يلم بقدر كافٍ من الثقافة التاريخية. ان المواطن الملم بالقراءة عادة يقرأ الصحف ليشبع غريزة البحث والمعرفة بماذا حدث وأين وكيف؟!

الصحف لا تقدم الحقائق كاملة والتي سوف تصبح فيما بعد قراءة تاريخية لأن

الدعاية والمبالغة والتزوير والتشهير ظاهرة واضحة في الصحف في العصور الحديثة، فالصحف تتيح فرصة الكتاب لتغير من الخلق لا هم بشر ولا هم حيوانات هم أي شيء، انعدمت الأخلاق فيهم، لا يعرفون الحياء ولا العفة، لا يعرفون الشرق، لا يعرفون ماذا تعنى سمعة الناس؟ يريدون الوصول إلى مآربهم الحقيرة بأي ثمن مهما كان حتى لو كان الثمن التشهير بالناس والتزوير والتدليس والكذب، هؤلاء لا يعرفون ماذا تعني أمانة الكلمة، وماذا يعني شرفها، هؤلاء دار البوار في استقبالهم بالترحيب يوم الموقف العظيم، ولكن حتى تحين الساعة اذا تركوا هكذا يفعلون ما يريدون سيعودون بالإنسانية القهقرى . .

ويسألني سائل: هل الماضي القديم لم يكن فيه أي تزوير أو تشهير أو خيانة لأمانة الكلمة وعلم قول الحقيقة؟! بالطبع حتى الماضي لم يخل أبداً من التشهير والتزوير وعلم قول الحقيقة ولهذا نقول ان ليس كل ما تقوله الوثائق صادق مائة في المائة الا بعد الدراسة النقدية التحليلية الناقدة، بل وقراءة ما بين السطور وتحليل الحقيقة التي كتبتها الوثائق أو تفادتها أو شوشتها. وبذلك لا تضلل الوثائق الباحث.

هناك آراء كثيرة في فائدة علم التاريخ فيقول البعض بأنها دراسة ممتعة ومفيدة لانها توسع ادراكنا وتنمي مواهبنا الفكرية في جوانب كثيرة، ويرى المؤرخ الشهير ارنولد توينبي مثلاً: أن دراسة تاريخ الشعوب ذات الحضارات فائدة لا تقدر بالنسبة لكل من يطلب المعرفة، وأن أهم ما تتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق جل وعلا في خلقه وفي عالم الإنسان ذي الحركة الدائبة والتي لا تتوقف. فالدارس للتاريخ يرى دون غيره كيف تتحرك حضارات العالم.

«نابليون بونابرت» قائد الحملة الفرنسية على مصر والشام الذي جاء خصيصاً كي يجعل مصر منطلقاً للأمبراطورية الشرقية التي كان يحلم بها، نابليون عرف كيف يثير شجية جنوده قبل بدء معركة امبابة عندما خطب في جنوده قائلاً: «ان اربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق الأهرامات». بل أن خصمه في المعركة وهو مراد بك المملوكي خطب في جنوده خطبة مماثلة تذكرهم بالتاريخ المجيد لكي يلهب حماستهم للقتال ورد الحملة الفرنسية.

فالتاريخ متى كان مجيداً يمكن أن يكون باعثاً للاحياء القومي ومحركاً لطاقات الشعوب لأن به وفيه تتمثل الكبرياء الوطني، فإن في أعمال الأجداد العظام دائماً نموذجاً أسمى ومثلاً يختذيه الخلق.

وما من نهضة حديثة من النهضات وما من معركة كسبها الجنود الا وكان التاريخ باعثاً وملهماً. وهي احدى الفوائد العملية لدراسة التاريخ.

التاريخ المجيد يلهم الحاضر ويجعلنا نتفهم واقعنا وما يدور حولنا. لأن هدف التاريخ القديم هو الكشف عن الحاضر وتفهمه فنحن ندرس تاريخ الشعوب والقادة العظام وتاريخ المعارك التي غيرت وجه التاريخ، وتاريخ الصراعات والمشاكل الدولية التي تنعكس نتائجها على مشكلات العصر الحديث فإن لم نتفهم مواطن الخلاف في الماضي فلن نتفهم نتائجها الحاضرة، فالحاضر نتيجة لتفاعل احداث الماضي فالتاريخ قضايا وحلول، كل فترة نتيجة لقضية سابقة وهي في نفس الوقت مسألة لأحداث المستقبل.

ولهذ فاختيار الموضوعات التاريخية يجب أن تكون على ضوء القضايا التي تهم الحاضر وتساهم في حلولها. واهتمام المؤرخ يجب الا يكون منعزلاً عن الحاضر ومشاكله ومتطلباته، ولكن على الباحث الجاد الصادق الملتزم، الا يلجأ إلى تشويه الماضي لكي يتماشى مع الحاضر، ولكي يخدم أغراضه عليه هدف معين لأن هذا هو تزوير للتاريخ، كذلك من المرفوض أن نعيد رسم الشخصيات القديمة بطريقة تفرض عليها شكلاً حديثاً فلكل شخصية ظروفها الخاصة وسماتها النفسية وعصرها الذي عاشت فيه.

يكتب البعض أو كتب البعض يقول: ما العيب في أن يذهب انور السادات إلى تل أبيب؟! ما المانع في أن يصالحهم ويعقد معهم معاهدة أو اتفاقية سلام؟! الرسول محمد ﷺ عقد اتفاقية مع اليهود ومع المشركين، وعمر فاوض ووقع اتفاقية سلام مع حكام بيت المقدس من الرومان، وصلاح الدين فاوض وسالم الصليبيين. نعم كل ذلك وارد تاريخاً ولكن من الإجحاف وعدم الإنصاف هذا التشبيه الشاذ ولكل شخصية ظروفها الخاصة وسماتها النفسية وعصرها الذي عاشت فيه.

أذكر أن واحداً من المنافقين في عصرنا واثناء انعقاد جلسة خاصة لمجلس الشعب المصري لتكـريم كفاح مدينة السويس المصرية الباسلة ضد الغزو الصهيوني ١٩٧٣م، وقف هذا المنافق يشبه ما فعله أهل السويس بما فعله الرسول والصحابة في غزوة الخندق (الأحزاب)، بل تمادى في غيه ونفاقه ليشبه جيهان السادات زوجة انور السادات بأنها مثل السيدة / خديجة رضي الله عنها زوجة الرسول ﷺ!!!

اعود لأقول إن عصر الأمبراطور الروماني أغسطس ليس عصر الدكتاتور الاسباني فرانكو، ولا الدكتاتور الإيطالي موسوليني ومن ثم لا يجب أن نشوه الشخصيات القديمة بصورة تخلط بينها وبين شخصيات من عصور أو مناطق أخرى.

كذلك فإن المؤرخ يجب أن يكتب التاريخ بأمانة وصدق وحيدة بعيداً كل البعد عن روح التعصب العنصري أو الفكري، أو التحيز السياسي، بل يروح الحياد التام من أجل الحقيقة، وهذا يمثل أكبر التحديات وأخطرها فكثير من المؤرخين لا يجرؤون على قول الحق.

فلو كتب شيوعي التاريخ سيكتبه من وجهة نظره هو فقط ويشوه كل من خالف عقيدته وفكره، نفس الوضع لو كتبه رأسمالي أو برجماتي أو وجودي المؤرخ الحقيقي هو من يتجرد عن كل الأهواء والميول والنزعات وهو يكتب التاريخ بـأمانـة وصدق وحيدة.

اذكر هنا وصية لشيشرون المؤرخ يقول فيها: المؤرخ هو ذلك الرجل الذي لا يجرؤ أبداً على أن يقول شيئاً كاذباً، وثابتاً إلا أنه يجرؤ على قول ما هو صادق. وكثير من المؤرخين كتبوا تاريخهم بروح التعصب والانحياز وتركوا العاطفة تغلب على العقل فجاء تاريخهم مزوراً.

فالأوروبيون الذين كتبوا عن الشرق لم ينجوا من عقدة العداء نحوه، تلك العقدة المتأصلة في نفوسهم، فكم تعرض تاريخ العرب خاصـة في عصر الرسول ﷺ وفي صدر الخلافة الإسلامية إلى التشويه على أيدي المستشرقين ولا يزال تاريخهم الحديث يلقى نفس المصير وقلما اشادوا بفضل العرب على الحضارة الانسانية. كذلك عندما يكتب الرجل الأبيض تاريخ أفريقيا القارةالسمراء، فإنه يترك لعقدة

العنصرية العنان ليصور المجتمع الافريقي بدرجة ترضي عقدة الاستعلاء عند الرجل الأبيض، واليهود يزورون تاريخهم لينسبوا فلسطين العربية لهم ويبعدوا حق العنصر العربي الفلسطيني في امتلاك الارض كما أن اتباع المذهب السياسي المعين يشوهون كل شيء تاريخي لإثبات المعتقدات الراسخة في نفوسهم ومن ثم يتحول التاريخ الذي يكتبونه إلى صورة مزيفة وادعاء على الحقيقة وتحميلها أكثر مما يجب ولا يمكن أن يكون هؤلاء مؤرخين مثاليين بأي حال من الأحوال كما أن ما يكتبونه هو تاريخ مزور، وما أكثر ما تعرض التاريخ للتزوير، وهذا يلقي على عاتق المؤرخ مهمة شاقة وهي كيف ينقى التاريخ من الشوائب والمبالغات والافتراءات حتى يكون أقرب إلى الصورة الحقيقية حتى وان كان ذلك على حساب مشاعر المؤرخ، من حق المؤرخ أن يتنحى كما يتنحى القاضي عن النظر في قضية له بأحد أطرافها صلة أو علاقة يخشى أن تؤثر على حكمه، وما المؤرخون سوى قضاة في محكمة التاريخ والبينة على من ادعى.

المؤرخ النزيه الشجاع هو الذي يقول الحق ولا يعبأ بالآخرين والمثل على ذلك واضح في المؤرخ الانجليزي الكبير أرنولد توينبي الذي تعرض لحملة نقد شديدة من المفكرين الغربيين، فقد اتهمه بعضهم بأنه تحامل على الحضارة الغربية عندما صورها بصورة الحضارة التى في طريقها إلى الأفول. قالوا توينبي قد خان الغرب وحضارته بسبب اعتناقه الآراء وفلسفات لا تنبع من الغرب. واتهمه اليهود بأنه من أشد المعادين للسامية متحيز للفلسطينيين وبأنه متعصب للعرب لأنه أعلـن ادانته للصهيونية وأطماعها ونظرياتها العنصرية.

وقد تصدى توينبي بشجاعة لهذه الحملة الشرسة من النقد. وتساءل محتجاً كيف يتمنى زوال مجتمع له فيه أحفاد، إنه يحب أوروبا ولكن الحقيقة أهم بكثير من الحب لانها تخص البشرية كلها، أيضاً ألهمه آخرون بأنه اهتم بتاريخ مصر أكثر من اهتمامه بتاريخ بريطانيا موطنه ومسقط رأسه، فقد خصص لتاريخ بريطانيا في فهارس موسوعته الخالدة «دراسة في التاريخ» مساحة تبلغ سدس ما خصص لمصر وحضارتها وتاريخها.

ورد توينبي على ذلك أنه فعل ذلك لا راغباً بل مرغماً لأنها هي الحقيقة. وقال متهكماً

لو كانت الفهارس تقاس بكمية التراث التاريخي لما تعدى نصيب انجلترا واحداً من سنين بالنسبة لنصيب مصر، لأن مصر ليست بلده ولكنها ظلت محور التاريخ العالمي ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة من تاريخ العالم الحضاري البالغ خمسة من تاريخ الحضارة الإنسانية عبر العصور الفرعونية والاغريقية والرومانية وخلال العصر بين القبطي والبيزنطي، فهي أعطت العالم فكرة الرهينة، وهي نفسها التي أصبحت فيما بعد قلعة العالم الإسلامي ورائدة الأمة العربية ولولا مصر ودورها لتحطم العالم الاسلامي واختفت الحضارة الإسلامية لأنها هي التي حمته من همجية التتار عندما هزمتهم في عين جالوت، فأنقذت الثقافة الإسلامية من الدمــار. وهي التي انقذت العالم الإسلامي من حروب أدعياء حماية الصليب في حطين وغيرها.

كما أن الأزهر الشريف هو الذي حمى الثقافة العربية من عملية «التتريك» التي حاولها العثمانيون.

ولا تزال مصــر هي قلب العالم العربي النابض وهي ينبوع فكره المعطاء رغم كل الظروف التي تحياها أو تعاني منها.

ويتساءل ارنولد توينبي المؤرخ البريطاني المحايد: أين هذا من الدور الهزيل الذي قامت به بريطانيا في التاريخ الإنساني.

لعبت بـريطانيـا دوراً قيادياً لم يستمر سـوى مـائتين وخمسين سنـة ارتكبت خلالها أخطاء كثيرة: ثم راحت تنزوي عن هذه القيادة منذ الحرب العالمية الثانية واعتقد أن نفس الكلام ينطبق على فرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

على كل حال فما ذكرناه مثال نسوقه لشجاعة المؤرخ الحق الذي يجرؤ على أن يقول الحق دون خوف، دون تملق، دون نفاق، دون مواربة، يتصدى بشجاعة لكل ما يلاقيه من نقد أو ظلم أو إجحاف طالما كان مقتنعاً بفكره وحيدته ونزاهته.

عزيزي القارىء /كان في نيتي استكمال هذا الموضوع بأفكار أخرى كان بودي الحديث عن أهمية الموضوعات السياسية في دراسة التاريخ، وعن مدارس التفسير التاريخي (مدرسة التفسير الديني والأخلاقي للتاريخ / المفهوم العقلاني المثالي

للتاريخ / مدرسة التفسير الاجتماعي للتاريخ / مدرسة التفسير المادي الاقتصادي للتاريخ) الإسلامي فقط ككل.

الا أنني أحب أن اركز هنا على أن هناك مزايا مطلوبة وفضائل مكتسبة لدراسة التاريخ أهمها: الجد والمثابرة، الشك والنقد، الدقة، التجرد، محبة الحقيقة، الشعور بالمسؤولية، ولو تحلى بها كل من يتصدى لدراسة التاريخ أو بحثه أو الكتابة فيه لوصلنا إلى المؤرخ المحايد الذي ننشده بإذن اللّه تعالى.

وللأمانة العلمية وإحقاقاً للحق، ولضرورة إعادة الفضل إلى أصحابه أتقدم بالشكر للأستاذين الجليلين الأستاذ الدكتور / سيد أحمد علي الناصري، والأستاذ الدكتور / حسين محمد ربيع، فقد استفدت في هذا الجزء من مجموعة المحاضرات القيمة التي قاما بإلقائها على طلبة كلية الآداب (قسم التاريخ) جامعة القاهرة في العام الجامعي (١٩٧٦ - ١٩٧٧) تحت عنوان: (محاضرات في علم التاريخ ومناهجه) فلهما الشكر ووفقنا اللّه جميعاً إلى ما فيه الخير للعلم ولطلابه ولمريديه.

تم المعجم بحمد اللّه تعالى وتوفيقه.
وذلك في صباح يوم ٢٥/١/١٩٩٠م.
القاهرة / يسرى عبد الغني عبد الله

مراجع تم الاعتماد عليها في كتابة هذا المعجم التاريخي

- فهارس دار الكتب المصرية.
- فهارس المكتبة الازهرية بالقاهرة.
- فهارس معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية.
- مصر في عهد دولة المماليك الشراكسة لابراهيم طرخان.
- كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين لأبي شامة.
- ذيل الروضتين لأبي شامة.
- المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا.
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردى.
- عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.
- الخراج لأبي يوسف
- الكامل في التاريخ لابن الأثير.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة للدكتور / أحمد شلبي
- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب للأنصاري.
- فتوح البلدان للبلاذري.
- سيرة أحمد بن طولون للبلوي.
- يتيمة الدهر للثعالبي.
- عجائب الاثار في التراجم والأخبار للجبرتي.
- تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان.

- تاريخ حنا النقيوسي.
- المؤرخون في مصر - د. محمد مصطفى زيادة.
- المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون.
- وفيات الأعيان لابن خلكان.
- سيرة أحمد بن طولون لابن الداية.
- سيرة الآباء البطارقة لساويرس ابن المقفع.
- المغرب في حلي المغرب والمشرق لابن سعيد «علي بن موسى».
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي.
- سيرة صلاح الدين بهاء الدين بـن شداد.
- الوافي بالوفيات للصفدي.
- تاريخ الأمم والملوك للطبري.
- فتوح مصر لابن عبد الحكم.
- مختصر تاريخ الدول لابن العبري «أبو الفرج».
- عجائب المقدور في تاريخ تيمور لابن عربشاه.
- تاريخ آل سلجـوق لعماد الدين الأصفهاني.
- تاريخ دمشق لابن عساكر.
- الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصفهاني.
- عقد الجمـان في تاريخ أهل الزمان للعيني.
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي.
- ذيل تاريخ دمشق لهلال الصابىء للقلانسي.
- كتاب الولاةوالقضاة للكندي.
- الأنس الجليل لمجير الدين.
- السلوك للمقريزي.
- الخطط للمقريزي.
- اتعاظ الحنفاء للمقريزي.

ـ تاريخ مصر لابن الميسر.
ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي.
ـ نهاية الأرب للنويري.
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل.
ـ تاريخ يحيى بن سعيد.
ـ معجم البلدان لياقوت الحموي.
ـ اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى للسيوطي المنهاجي.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / أحمد أمين.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / عبد الحميدالعبادي.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / محمد حلمي.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / محمد ضياء الدين الريس.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ / محمد كرد علي.
ـ مؤلفات كارل بروكلمان وكيرك.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ الدكتور / حسنين ربيع.
ـ علم التاريخ (مترجم) للدكتور /عبد الحميد العبادي.
ـ المدينة العربية الإسلامية (نظرات في الأصول والتطور).
ـ تأليف: يسري عبد الغني عبد الله.
ـ مجموعة مؤلفات جوستاف لوبون.
ـ مجموعة مؤلفات الاستاذ / قدري قلعجي.
ـ الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي.
ـ مجموعة من الدوريات (الصحف والمجلات).
ـ لقطات تم تحريرها من برامج اذاعية عالجت التاريخ الإسلامي.
ـ بحوث واوراق عمل عدد من الندوات والمؤتمرات والسِينمارات التي عالجت التاريخ الإسلامي بوجه عام.
ـ عصر الموسوعات (رجال، وأعمال، وأفكار) دراسة للمؤلف ـ تحت الطبع.

- انباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني.
- إغاثة الأمة لكشف الغمة للمقريزي.
- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لأبي المحاسن.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي.
- الضوء اللامع للسخاوي.
- الدرر الكامنة في المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.
- نظم العقيان للسيوطي.
- ذيل الطبقات الكبرى للإمام الشعراني.
- كتاب التنبئة بمن يبعثه اللّٰه على رأس كل مائة للسيوطي.
- مجموعة مؤلفات السيوطي الصغرى (محفوظة بدار الكتب المصرية).
- مجموعة مؤلفات الاستاذ / فيليب حتي.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- الاعلام للزركلي.
- الموسوعة العربية الميسرة.
- دائرة معارف الاستاذ / محمد فريد وجدي.
- معجم المؤلفين لعمر كحالة.
- كشف الظنون.
- ذيل كشف الظنون.
- صبح الأعشى للقلقشندي.
- الكاوي على السخاوي للسيوطي.
- السكر الفاضح والعطر الفائح في التصوف لأبي المحاسن.
- المجمع المؤسس والمعجم المفهرس لابن حجر العسقلاني.
- نحل عبر النحل للمقريزي والذي نشره الدكتور / جمال الدين الشيال، ١٩٤٦.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون.
- مجموعة مؤلفات استاذنا الدكتور / جمال الدين الشيال.

ـ مجموعة مؤلفات استاذنا الدكتور / محمد مصطفى زيادة.

ملحوظة: هذه بعض المراجع التي استفدنا منها، وهناك مراجع أخرى ذكرناها في طيات المعجم.

نسأل اللّٰه جميعاً أن يجعلنا من أهل العلم والمعرفة ويبعد عنا كل سوء، ويبعد عنا أصحاب الحقد الاسود والنفوس المريضة.

وبالله التوفيق.

كتبه يسرى عبد الغني عبد اللّٰه

الفهرس